Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار الشروق





طبعة مزيدة منقحة



فاروق خورشيد


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الرواية العربية

عصر التجميع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الثانية
١٩٧٥
الطبعة الثالثة
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاروق خورشيد

في الرّوَاية العَربيّة

عَصْر التّجْميع

طبعَة مزيدة منقحَة

دار الشروق



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهداء الطبعة الثانية

الى روح استاذى الكريم

صاحب زنوبيا وجحا وعنتره والوعاء المرمرى

محمد فريد ابو حديد

وفاء وتقديرا

فاروق خورشيد



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقـــدمة الطبعة الثانية

مضى اكثر من خمسة عشر عاما منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، وكنت احسب اننى فرغت من أمره من زمن ، وانه قام بما اريد له من دور وانتهت رسالته بظهور الكثير من الأعمال الأكثر منه دقة والأشد تخصصا والاقدر منه على تناول القضية ودراستها .. وكان يؤكد لى دائما هــذا الراى ما اشهده من احتفال الجامعات العربية عاما بعد عام بدراسة القصة العربية ودراســة الأدب الشعبى العربى وخاصــة السير الشعبية .. الا اننى فى كل هذه الأعوام لم انج من الدخول فى مناقشـــات مستفيضة وحادة حول الآراء التى وردت فى هذا الكتاب والتى ظلت تثير الجدل طوال هذه الأعوام كلها ..

وكنت أعرف ان الكتاب لم يتمكن من الوصول الى الجمهرة الكبيرة من طالبى البحث والدراسة ومن المهتمين بشئون قضية الرواية العربيـــة ، والباحثين فى نشأتها وتطورهـــا ، فنسخه المحدودة قد نفدت من المكتبات منذ سنوات طويلة ، والمناقشات حوله فى غالبها تقوم على ما نقل عنه أو منه فى دراسات أخرى ظهرت بعده وتعرضت له بالنقد او الموافقة .. وادى هذا الى ان الكتاب كان يطلب منى شخصيا لا من ناشره وسرعان ما نفدت نسخى انا ايضـــا ، حتى لقد احتاج الأمر لتلبية طلبـــات بعض الدارسين الى البحث فى مكتبات الاصدقاء عن نسخة ، وهكذا اصبح أمر اعادة طبعه واجبا ، ولهذا اقدمت على تقديمه للمطبعة من جديد ، وان كنت احس انه كان من الأولى أن يكون المقدم بدلا منه عملا جديدا يكون اســـتمرارا له واستئنافا للبحث من حيث انتهى هو .

والكتاب لا يزعم لنفسه انه دراسة جامعية منهجية ، وانما

هو كتاب رأى ومناقشة ، ربما دفع اليه الايمان بضرورة جلاء صورة تاريخنا الأدبى القديم ، وربما دفع اليه تعلق بأصول لابد من التعلق بها ان كان من خطتنا ان نبنى للغد الأدبى .. على اية حال فلنعتبر الكتاب فكرة مثبتة بالشاهد والمنطق ، انه لايحاول ان يقول عن نفسه أكثر من هذا ، ويكفيه أنه اثار ويثير من الجدل حول هذه القضية ما لم ينقطع حتى الآن ..

ومن هذا الجدل الذى ثار تلك المناقشة التى ظهرت فى الفصلية الاسلامية التى يصدرها المركز الثقافى الاسلامى فى لندن باللغة الانجليزية والتى شئت ان اثبت ردى عليها فى نهاية الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، فأهمية الجدل والرد انهما يربطان الكتاب بواقع القضايا الادبية المثارة هذه الأيام . فالمقال الذى اشير اليه ظهر فى عدد أكتوبر — ديسمبر عام ١٩٧٠ . والرد الذى اكتبه فى نهاية هذه الطبعة كتب ونشر عام ١٩٧٣ اى ان هذه المناقشة قد تدنينا قليلا من قضايا العصر ومناقشاته ، وتربط الكتاب الذى ظهر منذ خمسة عشر عاما بواقعنا الأدبى اليوم .

فاروق خورشيد

١٩٧٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة الأولى

المتتبع لحركة الانتـــاج الفنى فى أدبنا المعاصر يلحظ أن فن الرواية أخذ بحتل تدريجيا مكان الصدارة فى حياتنا الفنية ، وأصبح يشغل القسط الأكبر من اهتمام المنتج والمتلقى والناقد جميعا .. كما اصبح يحظى باهتمـــام الكثيرين من الدارســـين يحاولون أن بضعوا له القواعد والأسس .

والواقع أن هناك ملاحظتين هامتين تستثيران الانتباه فى هذا الحقل .. الأولى هى ان الانتاج الروائى العربى المعاصر بصل الى درجة من الاصالة تجعل من المذهل حقا أن يكون هذا الفن وليد عشرات من السنين فحسب . كما تجعل من المتعذر على التفكير العلمى ان يقبل ما يردده الكثيرون من أن هذا الفن مستحدث فى ادبنا العربى لا جذور له ، نقلناه مع ما نقلنا من صور الحضارة الغربية ، وقلدناه محاكين ما نقلناه ، ثم بدأنا ننتج بعد هـــذا الوانا متفردة من هـــذا الفن الجديد على أدبنا .. اذ ليس من المعقول فى تاريخ اى لون من الوان الأدب أن يصل الى ما وصل اليه فن الرواية عندنا من تقدم فى مثل الوقت الذى يقترح فيه أصحاب هذا الافتراض الذى يعتنقه الكثيرون .. والأدب ليس بدعة تنقل فتحتذى ثم ما تلبث أن تؤصل نفسها عند المقلدين ، انما الأدب جزء من طبيعة الشعب ، وحتى يستطيع لون جديد من الانتاج أن يدخل ويزدهر عند شعب من الشـــعوب لابد أن

يستغرق من الزمن والتطور ما يوائم بين مزاج هذا الشعب وبين الفن الجديد.. بل لعله يستلزم ألوانا من التغيير تطرأ فى حياة هذا الشعب وتقاليده بحيث يقبل على هذا الفن الجديد .. وكلمة تغيير هنا لا تعنى الشكل الخارجى للحياة بقدر ما تعنى التغيير الجذرى الذى يمس الأصول الأولى لمكونات هـذا الشعب .. وليس فى الزمن المقترح — وهو لا يتعدى عشرات السـنين — ما يسمح لنا بأن نتقبل هذا الافتراض مسلمين ، ولابد لنا اذن من البحث عن سبب آخر غير التقليد ، كما لابد لنا أن نبحث عن أصول أخرى غير النقل والترجمة لفننا الروائى العربى الذى أخذ يتكامل هذه الأيام بسرعة مذهلة ..

الملاحظة الثانية هى أن كل دراسة تتناول الرواية انما تعمد فى تسليم مطلق الى البحث عن قواعد وأصول فى اتجاهات الرواية فى الآداب العالمية من حولنا .. وقد أدى هـذا الى نوع من الاضطراب فى القيم والمقاييس .. فليس من شك فى أن وجود أكثر من اتجاه ثقافى عند الدارسين قد أدى الى وجود أكثر من تيار نقدى يتحكم فى تقييم الأعمال التى يتناولونها .. وقد يكون هذا التعدد فى حد ذاته مفيدا لو كان ينبع من أصول عميقة لها علاقة بتراثنا وفننا ، أما وقد استمد هـذا التعدد وجوده من الارتباط بآداب أخرى لا علاقة لها بالمنابع الأولى لفننا ، فمن هنا يؤدى هذا التنوع الى الخلط والاضطراب ... وهذا التعدد فى الاتجاهات عند الدارسين والنقاد قد أدى فى وقت ما الى ما يشبه التوقف فى انتاجنـا الروائى اثر ما أحس به المنتجون من حيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واضطراب أمام تعارض الأحكام النقدية واختلافهـــا .. بل لقد أحس الكثيرون من المنتجين ان الدارســـين والناقدين يريدون أن يفرضوا عليهم اتجاهات بعينها فى الانتـــاج ، واحسوا بعجزهم الفنى حيال هذا الفرض ، ربما لأنه لم يكن يوائم طبيعتهم الفنية ، وربما لأنه كان بعيدا كل البعد عن تصورهم هم للعمل الروائى . وهو فى كل حال اتجاه مفروض منقول لم يستمد جذوره من حياتنا وفننا ..

هاتان الملحوظتان تحتمان دراسة فن الرواية العربية دراسة جديدة تحاول أن تجيب على هذا السؤال : أليست هناك جذور أعمق من النقل والترجمة للرواية العربية ؟ ..

والواقع ان الدارسين المحدثين لفن الرواية والقصة العربية قد استراحوا الى الافتراض الذى يقول ان هذا الفن مستحدث فى ادبنا ، نقلناه نقلا عن الآداب الغربية ضمن ما نقلنا من صور الحضارة والفن فى مطلع حركتنا الفكرية عن طريق الترجمة حينا ، وعن طريق المحاكاة والتقليد بعد ذلك ..

وقد أكد هذا الافتراض فى أذهانهم أن دارسى أدبنا العربى القديم القوا الضوء كله على تراثناالشعرى ، واعتبروه الفن القولى الأول عند العرب ، وشغلوا الأذهان بما أخذوا انفسهم به من منهج يقوم على الشك الشديد والأنكار الجازم الذى ينتهى بهم الى اثبات ما نقلته كتب البلاغة والنقد العربى فى أمر الشعر .. وكأنهم ما أرادوا بهذا المنهج الذى أخـــذوا انفسهم وأخذوا النـــاس به

الا اثارة الانتباه الى أهمية التعرف على هذا اللون من التراث والعناية به ..

وسار التابعون على سنة من سبقوهم فى الطريق ، فركزوا دراساتهم كلها على الشعر فى عصوره ، والشعر فى بيئاته ، والشعر فى أغراضه ، والشعر فى مقاييسه ، والشعر فى تطوره ..

ورغم هذا الحرص الشديد الذى تناول به الدارسون الشعر العربى ، من منهج يقوم على الشك أول الأمر ، ثم على دراسة البيئة بكل مكوناتها ، ثم على دراسة الشاعر نفسه على ضوء عصره وبيئته ثم آخر الأمر على دراسة الشعر على ضوء مفاهيم النقد والبلاغة .. رغم هذا الحرص فى دراسة الشعر ، نحس قصورا ملحوظا فى الاهتمام بأمر الانتاج النثرى ، ونحس تسليما مطلقا بما تناقله البلاغيون القدماء من أن النثر العربى اقتصر على الحكمة وسجع الكهان ، ثم على الخطابة والرسائل بنوعيها .. !

لم يشكوا لحظة كما شكوا فى أمر الشعر .. ولم يعرضوا هذه الحقيقية التى ينقلونها نقلا عن كتب البلاغة على بساط البحث والدراسة .. بل سلموا بها تسليما كاملا ، طالما وجدوا فيما نقلته هذه الكتب اليهم من نماذج الشعر ما يغنيهم ويشغلهم عن غيره من الفنون ..

والعجيب أن هذه الدراسات المحدثة المتتابعة فى الشعر العربى قد خرجت الى نتائج واضحة تؤيد أن مؤرخى الأدب القدماء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبلاغيين الأول قد خدعوا الدارسين المحدثين فى أمر الشعر والشعراء .. !

فقد وجد الدارسون المعاصرون أن الشعراء الذين اعتبروهم — جريا وراء من نقلوا عنهم من بلاغيين — قمما شامخة لم يكونوا الا نماذج لها ما يضارعها ، ان لم يكن لها ما يفوقها ويعلو عليها ..

واكتشف الدارسون المحدثون أن ما عرفوا من شعر ليس ديوان العرب كما حسبوا ، بل ليس الا قطرة ضئيلة فى الانتاج الشعرى الضخم الذى قدمته أمة العرب للتراث الانسانى ..

وعرفوا — متأخرين — أن ما شغلوا أنفسهم وشغلوا الناس به من أمر دراسة الصور البلاغية والمحسنات البديعية ، وما غرقوا فيه واغرقوا الناس معهم فيه من ابحاث فى التشبيه والاستعارة والكناية ، والطباق والجناس ، ليس بحثا فى صميم الشعر ، وانما هو بحث ضائع وجهد بلا فائدة لأنه أقرب الى عمل اصحاب اللغة منه الى عمل اصحاب الفن .

وادركوا أن ما جرهم اليه البلاغيون العرب من تفاصيل قد ابعدهم فى الطريق فراسخ عن البحث فى صميم الشعر وحقيقته وكيانه ..

وبدأت النظرة الى المراجع التى كانت تعتبر مقدسات ، يدخلها شىء من الحذر والتدقيق .. فالبلاغيون القدماء ليسوا الحكم الأول والأخير اذ هم قد تأثروا ولاشك بذوق العصر تأثرا كبيرا ، بل تأثروا بأوضاع اجتماعية كانت تسود مجتمعاتهم وتتدخل فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم على الأشياء ، وفى تقديمها من زاوية بعينها ولتخدم غرضا بذاته ، بل لعل بعض الأغراض الشخصية والعصبيات العنصرية والدعاوى الدينية والفكرية قد دخلت هى الأخرى لتساعد على بلورة احكامهم وآرائهم ، بل لعلها قد دخلت لتحدد الصورة التى ينقلون ويرسمون ، والشعراء الذين يبرزون ويقدمون ..

فهؤلاء البلاغيون قد فضلوا المتقدمين زمنا على المتاخرين ، واخرجوا شعراء لشكهم فى دينهم ، كما اخرجوا آخرين لشكهم فى ولائهم للعرب ، بل لقد فرض شكل الحكم نفسه فى احكامهم على الشعراء الذين يوالون الخليفة او يقفون منه موقف العداء .. وكان يكفى عندهم الخطأ اللغوى أو النحوى ليهبط من قدر الشاعر بصرف النظر عن اى عامل آخر ..

كل هذه الحقائق نبهت الدارسين المحدثين للشعر العربى ، فقامت الدراسات تنهض بالعبء منذ بدايته ، تحقق دواوين الشعراء ، وتعيد النظر فى الأحكام ، وتكتشف كل يوم شاعرا قد اغفل ، أو حكما قد صدر على غير أساس من البحث الفنى الخالص ، وتنظر للتراث الشعرى كله نظرة جديدة ، ترتكز على فهم جديد لرسالة الشعر الانسانية بصرف النظر عن رسالته اللغوية ..

وظهرت الدراسات الجديدة التى ترتكز على الجانب النفسى عند الشاعر ، وعلى العطاء الوجدانى المرتبط بالقيم الانسانية العامة .. محاولة ان ترى صورة الشاعر من خلال شعره بعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان كانت لا تربطـــه الا بموقفه من الأحداث اليوميـــة لعصره ، وكشفت الدراســـات الجديدة عن الحاجة الى تقييم جديد ورؤيا جديدة للشعر العربى القديم لا بحثا عن جمالياته ومهارات أصحابه وقائليه ، وانما بحثا عن العطاء الشعرى الانسانى الذى اضافوه الى تراث الانسانية الشعرى كله . مشاركين به فى مهمة كشف موقف الانسان من الحيـــاة وتطلعه الدائم نحو الكمال والجمال والحب الانسانى العميق والسلام الانسانى الدائم ..

فليس معقولا أن أمة كالأمة العربية سادت حضارتها العالم حقبة زمنية كبيرة ، وضمت ثقافات وتراثات متعددة ، ونقلت الى لغتها كل ما عاش حولها من ثقافات عاصرتها أو سبقتهـــا الى الظهور ، ليس معقولا أن تعبر عن نفســـها بأغراض شـــعرية لا تخرج عن المدح والهجاء ، والوصف والرثاء .. وان كانت هذه الاغراض تخدم أهدافا قبلية أو سياسية أو مذهبية معينة ، فليس من المعقول أنها كانت وحدها الفن الذى يعبر به الشعب العربى عن نفسه ، عن آماله وآلامه .. عن تطوره وصراعه ..

بل وليس معقولا أن دولة كالدولة الأمويـــة نهضت بعبء ضخم فى اقرار الحضارة الاسلامية ، ومد رقعة الفتوحات ، وبدأت تنظيمات وتشريعات جديدة فى حياة العرب بل وفى حياة الحضارة الانسانية كلها ، ليس معقولا أن يكون أبرز ألوان انتاجها الأدبى المعبر عن حضارتها هو ما دار بين جرير والفرزدق والاخطل من نقائض مثلا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل وليس معقولا أن اللخميين فى الحيرة والغسانيين فى الشام وهم الذين عمروا طويلا ، وبلغوا من المدنية شأوا كبيرا اذ عاشوا فى ركاب الدولتين الكبيرتين الفرس والروم ، لا ينتج أبناؤهما شعرا على الاطلاق . !

كل هذا جعل الدارسين المحدثين الذين اهتموا بالشعر كل هذا الأهتمام يحسون أن تسليمهم بما نقلوا عن كتب البلاغة والتاريخ الأدبى يحتاج الى الكثير من الفحص والمناقشة والمراجعة .. ورغم كل هذا فقد ناقشوا وفحصوا ما تعلق بالشعر وبالشعر وحده ..

أما النثر فقد أقبلوا على دراستهم له مسلمين تسليما مطلقا بأن العرب لم يعرفوا فى نثرهم الا هذه الاشكال الساذجة : سجع وأمثال وخطب فى الجاهلية ، ورسائل ديوانية واخوانية الى جوار اتساع فى الخطابة فى العصر الأموى ، فاستمرار للرسائل الديوانية فى العصر العباسى ، فمجموعة من المقامات والرسائل بعد هذا العصر ..

وحتى فى الدراسات العديدة التى قامت لبحث أمر هذه الأشكال النثرية من الانتاج الأدبى اهتم الدارسون برسالة النثر اللغوية بصرف النظر عن رسالته الفنية ، فبحثوا صور الصنعة فى أشكالها المتعددة وتطورها الى التعقيد والاسراف مرة ، أو الى البساطة مرة أخرى تبعا لذوق العصر .. أما أهمية هذا النثر كأداة فنية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى التعبير عن قائليه وعصـــورهم فلم يدخل فى حســـبان هـــدد الدراســـة ..

وهكذا انساق الدارسـون للنثر وراء البلاغيين فى البحث عن القيم الشكلية من صنعة فيها المهارة والحذق ، أو فيها التكلف الشديد والجهد الشاق ، ولكن ليس فيها التعبير الواضح **الذى** نريده من تراث فنى . فكانت أبحاثهـــم أقرب الى الدراســـات الشكلية ، وكأن النثر فن تشكيلى يبحث من حيث دلالات خطوطه وعلاقاتها بعضـــها بالبعض دون النظر حتى فيما ينظر اليه فى البحث فى الفنـــون التشكيليـــة من دلات أعمق لهـــذه الخطوط وعلاقاتها ..

ولست اريد بهذا ان أهاجم احدا ، فلاشك أن هذه الأعمال اخذت من أصحابها جهدا ضخما كبيرا ، ولاشـــك أيضـــا انها كشفت عن جوانب مميزة من تاريخ ادبنا النثرى ، ولكن الذى احب أن انبه اليه هو أن الدارسـين فى الحقـــل النثرى قد تقبلوا أحكام البلاغيين القدماء دون مناقشة ودون أن يسألوا أنفسهم : كيف تقبلوا تراثا فنيا نثريا دون بحث دلالاته الانسانية ؟ .. بل كيف تقبلوا تراثا فنيا يعوزه القصص ؟ وكيف حدث أن الأدب العربى فى صورته هـــذه التى ينقلونها الينا عبر أبحاثهم فقير كل الفقر فى الانتاج الروائى والقصصى ؟ ..

وهناك حقيقتان هامتان ينبغى أن يوضعا فى الاعتبار ..

الحقيقة الأولى أن فن الشعر وان كان أعلى مظاهر التعبر

الفنى ى كل الآداب ، الا انه فى واقع الأمر يمثل طبقة بعينها من الفنانين والمذوقين جميعـا .. وهو ــ عند النظرة المتفحصة العميقه ــ انما يعكس الحياه الفنيه لقطاع معين من الانتاج الفنى ، فهو لغة الطبقة التى بتوفر لها نوع معين من الثقافة والحس وليس لغة جميع المشتغلين بالحياة الفنية انتاجا وتلقيا .. وهذا الذى جاءنا من الشعر العربى انما دخل عنصر آخر فى تحديد الطبقة التى يعبر عنها . ذلك أن الشعر اتخذ فى الحياة العربية للتكسب فكان هو وسـيلة التقرب للسلطان فى شتى صـوره ، واحتضن الخلفاء والوزراء الشعراء يمدحونهم ويعطون .. وحين ارخ المورخون سلطوا أضواءهم على هؤلاء الشعراء الذين تقربوا من السلطان وحظوا باهتمامه .. وفى هـذا تفسير واضح لغلبة المدح على الشـعر العربى .. ولعل هـذا كله يعنى أن معظم الشعر الذى اهتم به الدارسـون القدماء كان ذاك الذى يمثل طبقة بعينها من الشعراء والمتلقين .. فما أحسب أن الناس فى عصر من العصور يكتفون بما يقال فى ملوكهم وخلفائهم من مدح ، ويعتبرونه الفن المعبر عنهم جميعا ..

فالشعر بعامه اذن لغة الفن عند طائفة بذاتها من المثقفين والمنتجين ، وهو فى الشعر العربى الى جوار هذا وفى كثير من الأحوال ، لغة الفن عند مجتمع معين يضم هؤلاء الذين يتحدث اليهم وعنهم ، ويستفيد قائلوه منهم استفادة مادية بما يصل اليهم من عطاء ، واستفادة أدبية بما يحظون من اهتمام عند الناقدين والدارسين والمؤرخين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحقيقة الثانية ان الشعوب انما تعبر عن نفسها بلغتها ، ولغة الناس هى النثر .. النثر فى سهولته فى الأداء : وسهولته فى التلقى ، وسهولته فى التعبير عن حياه الناس الحقيقية . ولكن هذا الذى جاءنا من النثر العربى يكاد يخرج فى مبناه وفى هدفه من دائرة الفن فى حدوده واهدافه .. فهذا الذى نقلوه انما هو تجربة تكاد تقترب — فيما وضع لها من قيود شكلية — من طبيعة الشعر فى حاجته الى استعداد خاص عند المتلقى والمنتج ؛ وليس هو النثر الذى يمكن أن يتداوله الناس تداولهم لفن معبر عن حياتهم تعبيرا حقيقيا .. وهو فى هدفه وغايته يكاد أن يكون أداة فى خدمة طبقة بعينها من المثقفين ومن العاملين فى الحياة السياسية والاجتماعية .. وهو بهذا أيضا يخرج عن دائرة النثر الخالد الذى يمثل روح الشعب وحقيقته ..

واذا كان الدارسون قد استطاعوا أن يدركوا كل الحقائق عن الشعر فيطورون منهج دراستهم بما يتيح لهم أن يقدموا لنا تراثا شعريا حقيقيا لا يرتبط — بقدر الامكان — بما درسه الدارسون القدماء من حقائق ودعاوى كانت تفصل الشعر عن جوهر الناس وتقصره على مجتمعات بعينها .. فان واجب الدارسين فى الحقل النثرى لا يقل فى خطورته واهميته عن هذا الذى قام به دارسو الشعر ، وأحسب أن المسألة تحتاج الى جهد فى البحث عن صور أخرى من التعبير اهملها الدارسون ، كما انها تحتاج الى جهد فى البحث فى الصور المنقولة الينا بمنهج جديد وفهم جديد ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واهم أشكال النثر التى عرفتها آداب العالم لتعبر عن روح الشعب وطبيعته هى الرواية والقصة .. ولم يخل أدب فى العالم من تراث قصصى كبير يغنيه ، ويثرى معرفته بتاريخ شعبه وحضارته .. ويعود السؤال .. وأدبنا العربى ؟ .. أين نبه القصة والرواية ؟ .. وقبله يأتى سؤال .. أكانت حياة العرب بليدة خاملة لا تعرف التعبير عنها الا فى طبقاتها العليا المتصلة بالحكم والحكام ؟ .. أعنى ، هل جمد حس الشعب العربى الا فيما يتعلق بأغراض القبيلة أول الأمر والخليفة بعد ذلك ، فلم يحس بحاجته الى لون من التعبير يعبر عن مجموعه فى مختلف طبقاته . ؟

الحقيقة تقول غير هذا ..

فحياة العرب فى الجاهلية كانت — رغم كل شىء — حياة خصبة بالأحداث ، مليئة بالحركة والنشاط .. وناهيك بشعب يعيش دائما على خطر ، على خطر من الصحراء التى تحيط به دائما وتطبق على حياته من كل جانب ، وهى بعد هذا مجهول مخيف لا يدرى من أمره الا القليل الأقل .. وهو على خطر من اعتداء بعضه على بعض ، يدفعه الى هذا حاجة العيش وقلة الثروة وضعف فرص الحياة الا للأقوياء .. وعلى خطر من اعتداء الآخرين عليه فهو يقف فى طريق اتصال الشعوب ببعضها ، وهو يتحكم فى خط سير التجارة بين أجزاء العالم المعروفة آنذاك ..

وناهيك بحياة هى سلسلة من الانتصارات على قوى الطبيعة

مره ؛ وعلى القوى الخارجية أخرى .. وهى أيضا سلسلة من الهزائم الفاجعة أمام هذه القوى متفرقه مرة ومجتمعة مرات ..

هذه الحيـــاة التى استمرت بما وضعت لنفســـها من قيم وما خلقت من تقاليد ، وهذه الحياة التى نشم فيها رائحة الصراع، ونسمع فيها جلبته .. كيف يمكن أن تخلو من كل صور الرواية أو القصـــة ؟ كما حـــاول القدماء وتبعهم المحـــدثون أن يثبتوا ويقولوا . ؟

وحياة العرب فى الاسلام ليست حياة سهلة ناعمة غبية ، بل هى تتسم منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها دعوة الاسلام بالصراع الذى لا هوادة فيه .. حرب ضد الدعوة الجديدة أول الأمر ، حرب تستمد دافعها من الانتصار للقديم ، والتمسك بالصور التى تملأ أذهانهم عن الحيـــاة والكون والآلهـــة ، وتأخذ وقودها من الحقد والبغضـــاء ، والتنافس فى مضـــمار التفوق والســـيادة والعصبية .. ثم هى حرب مع الدعوة الجديدة لتســـود أرض العرب ، حرب ضد الأهل والأصدقاء والخلان ، حرب ضد العلاقة التى تربط الانسان بأهله ، حرب ضد العصبية والتحيز .. ثم هى صراع مرير من أجل أن تسود هـــذه الدعوة ما جاور بلاد العرب من بلاد ، وما أمكن أن يصـــل اليه العربى فى رحلته من أرض ، وهو صراع مؤمن هذه المرة ، واع لخطواته وأهدافه تمام الوعى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهــــذه الحروب كانت فى كل مراحلها حربا بالسيف وحربا نفسية مريرة ، صراعا واضحا فيه الغالب والمغلوب ، وصراعا خفيا يجيش بالنفوس ويهزها هزا اذ يقاوم فيه العربى ما ورثه من تقاليد وعقائد ، ويقاوم فيه رابطة الدم التى تربطة ببعض من يحارب،ثم هويقاوم فيه ماتحبه النفس الانسانية من سلامة وامن ودعة واتكال .. وهى حياة مليئة بالمثل والأمثلة تضرب كل حين ، مثل الحب والتضحية والايثار ، وأمثلة الكراهية والغدر والأثرة ..

وحياة العرب بعد أن استقر الاسلام تموج بأشياء واشياء . فهناك شعوب جديده تدخل هذه الحياة لتصبح بعد حين جزءا من مكونات هذه الأمة .. وهى تدخل فى حذر أول الأمر ثم ما تلبث أن تدخل سافرة مدلة بتراثها ادلالا يكاد يصل الى مرحلة الصراع السافر ، صراع التقاليد والعادات والأفـــكار ، بعد أن انتهى الصراع الحربى بهزيمـــة هـــذه الشعوب .. ثم ما تلبث هـــذه الشعوب أن تدخل تدريجيا بأفكارها وعاداتها الى الحياة العربية مطورة ما وجدت ، مضيفة الى حيـــاة العرب مفاهيم وعـــادات وأفكار تمتزج بعد حين بالمفاهيم والعادات والأفـــكار العربيـــة لتصبح كلها جزءا من التراث العربى فى مجموعة .. وهناك أيضا صراع مرير على مكان السلطة فى هذا الشعب الكبير بين أبنائه وطوائفه ، يتأثر بهذا الصراع كل جزء من اجزاء هذه الأمة مرة لخيره ومرة بما يأتى بالوبال والنكال عليه .. بل وهناك صراع نحو التطور فى كل مظاهر الحيـــاة يقوم به الرواد وتتبعهم باقى طبقات الشعب فى تمرد حينا وفى ايمان بعد حين .. وتتطور الحياة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتنعقد ، وتأخذ الأفكار السياسية والاجتماعية مكانها من الصراع، ستصارع فيما بينها وينعكس هذا الصراع على حياة الأمة جميعا . .

وهذه الحياة اذن ليست حياة خاملة لشعب بليد ولكنها حياة خصبة نامية ، مليئة بالأحداث ، ومليئة بمظاهر الصراع ، ومليئة بالحركة والحيوية الدافقة . .

حياة هذا شأنها ليس من العجيب أن نسأل . . كيف لم ينم بها الفن القصصى ، وكيف لم يتطور ، ولم يزدهر . ؟

والاجابة على السؤال لا تخرج عن شيئين :

الأول أن هذه الحياة لم تنتج فنا قصصيا لأى سبب من الأسباب . . وهذا فى حقيقة الأمر شىء لا يقبله العقل ولا المنطق ولا طبائع الأشياء . .

والثانى هو أن هذه الحياة أخرجت كغيرها من حيوات الشعوب فنا قصصيا معبرا جديرا بمثل هذه الحياة ، وبمثل هذه الحضارة ، وبمثل هذا الشعب . . ولكنه لم يصل الينا لسبب أو لآخر . .

والواقع أن الدارسين للأدب العربى لو اهتموا بأمر القصة والرواية اهتمامهم بأمر الشعر لاكتشفوا أن هناك خدعة أخرى قد أوقعهم فيها البلاغيون القدماء ومؤرخو الأدب حين قصروا همهم على تناول الشعر ، واكتفوا به عما عداه . . هذه الخدعة هى أن جانبا كبيرا وخطيرا من أدبنا قد أهمل اهمالا ، وترك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للسبان عن عمد فى افتراض ، وعن تقصير وقصر فى النظر ى الافتراض الأحسن ..

والعجيب حقا أن يسلم الدارسون بأن فن الرواية والقصة ، فن مستحدث نقلته الينا الترجمة والاتصال بالآداب الأخرى ، وكان الترجمة والاتصال بالآداب الأخرى أشياء لم يعرفها من العرب الا نحن ، ولم يقم بها من ابناء أمتنا الا جيلنا .. بينما هم يعرفون أن العرب اتصلوا بالآداب الأخرى منذ مطلع تاريخهم ، وأنهم ترجموا عن هذه الآداب التى عاشت من حولهم معظم ما عثروا عليه من تراث ، فكيف أمكن أن نقلد نحن فى عصرنا هذا ، ولم يقلدوا هم فى أى عصر من العصور .. ؟

والواقع أن كل هذه الأسئلة التى اثرناها تحتاج للاجابة عليها الى بحث فى تاريخنا وتراثنا ، علنا نجد من الشواهد ما يشير الى أن أدبنا وتراثنا لم يهمل هذا اللون الحيوى من الانتاج الفنى ، ولم يتخلف عن غيره من الآداب فى الاضافة الى التراث الانسانى بما يغنيه ويثريه ..

وهذا ما سنحاوله فى الفصول القادمة ان شاء الله .

فاروق خورشيد

١٩٥٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدارسون والقصص الجاهلى

الشواهد كلها تشير اشـــارة واضحة الى أن الأدب العربى عرف القصة فى كل عصوره ، بل وعرف منها الوانا وفنونا ، الا ان الشواهد كلها ايضـــا تقول ان هذه الصـــور قد اخرجتها ايدى المؤرخين القدماء ، والدارسين الراصدين للانتاج الفنى من اطار الأدب الا ماسف منها واصبح بلا غنـــاء فى تطور او اشـــباع ، وما انحرف منها عن الهدف الأصلى لكتابة القصة الى اهـــداف اخرى تلائم مفهوم هؤلاء المؤرخين والراصدين للأدب من ارتباط بين سلطات الحكم وبين الانتاج الفنى ، ومن علاقة لابد ان تتحقق بين ما يثبتون من انتاج وبين اشكال الفن التى تخدم سلطة الحكم القائمة ، بل وبين علاقة أصحاب الانتـــاج بأصحاب السلطة فى عصرهم ..

واحسب ان هذا الادعاء سيثير الكثير من السخط والحنق عند كثير من الناس ، ولكنى احسب أيضا ان مراجعـــة صغيرة لأى كتاب من كتب الطبقات او كتب التاريخ والأدب ستثبت صحـــة هذا الزعم وقربه من الصدق والواقع .. واحسب أيضا انه من اليسير ان نفهم أن أصحاب السلطة هنـــا ، يكونون أصحـــاب السلطة الدينية مرة ، واصحاب السلطة فى الحفاظ على التراث العربى مرات .. فمن المعروف أن الأدب العربى لم يدرس فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصور الاسلامية الأولى لنفسه ، وانما هو قد درس من حيث هو وسيلة الى تفسير القرآن والى استنباط الأحكام منه ومن الحديث ..

والقصص ليس دينا بل ربما تعارض مع المفاهيم الدينية . وليس سياسة بل وربما تعارض مع السمات السياسية لعصر من العصور ، فلا عجب أن انصرف هؤلاء المؤرخون عن كل ما لا يخدم اهدافهم الأولى التى وضعوها نصب اعينهم حين شرعوا يؤرخون حياة العرب وفنهم بما يخدم ما حددوا لأنفسهم من أغراض ..

وقد يكون هذا قد أدى الى سقوط عديد من القصص التى عرفت فى العصر الجاهلى ، والتى تناقلتها الأيام تراثا فنيا خالصا معبرا عن روح أبناء الجزيرة العربية قبل الاسلام .. ولكن هذا ايضا قد ابقى الكثير من الوان الفن القصصى التى كانت تخدم اهداف الدارسين .. فالحياة العربية قبل الاسلام كانت مليئة بالخلافات والعصبيات التىتضرب بأصولها فى بطن التاريخ ، والتى تستند فى كثير من الأحيان الى معتقدات طال العهد بمصدرها الأول واساسها الحقيقى ، وقد وجد الاسلام نفسه فى مركز هذا الصراع فكان لابد له أن يعتمد اعتمادا كبيرا على معرفة كاملة بكل التيارات التى تضطرب بها الجزيرة العربية وتموج ، وكان لابد له أيضا من أن يمس أصول هذه الخلافات وجذورها ، ومن هنا كانت الاشارات الكثيرة التى جاءت فى القرآن الى أمم سالفة واحداث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخذت مجراها فى الماضى البعيد ، فالذى لاشك فيه أن العرب كانوا يعرفون من أمر هذه الأمم ، ومن أمر هذه الأحداث ما يجعلهم يتقبلون ما ذكره القرآن عنها فى يسر وسهولة .. ونحن نزعم ان هذه المعرفة كانت على شكل أعمال قصصية ذات منهج ما واسلوب ما دونت فيها هذه الأحداث .وحفظت .. وعرفها العرب وتداولوها ..

وحين جاء المفسرون اضطروا الى البحث عن تفسير كامل لهذه الاشارات التى جاءت فى القرآن ، وهكذا اضطروا الى اثبات الكثير مما جاء فى القصص التى كانت معروفة فى العصر الجاهلى..

والعلماء مجمعون على أن العرب فى الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة ومتعددة ، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التى تدور حول اجدادهم وملوكهم وفرسانهم وشعرائهم ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذى تناقله الناس عن شعرائهم ومجالسهم وملوكهم .. بل ان كتاب الأغانى فى حد ذاته يحتاج الى دراسة واعية بأسلوبه وطريقة كتابته ، ولست أعنى بأسلوبه هنا المميزات اللغوية وتركيب الجمل فهذه الدراسات والحمد لله متوفرة عند الدارسين المعاصرين ونحن منها فى تخمة . ! وانما أعنى بناءه القصصى فيما يحكى عن الشعراء ، فان أبا الفرج يرسم فى كل فصل من فصول كتابه صورة كاملة لمجلس من المجالس ، ويكاد يحدد لك فى براعة ودقة كل ما فى المشهد من جزئيات ثم هو ينقلك خلال قصيدة تغنى بنغم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بحدده لك . ينقلك خلال الشعر الذى يذكره والنغم الذى يحدده ، لسعير معه التاريخ الى صاحب القصيدة نشهد حياته كلها يقصها عليك فى دقه لا تغفل التفاصيل . ولكنها دقة موجهة — ان صح التعبير — فهو يريد من كل ما يذكر لك أن يرسم جانبا معينا فى حياة شاعره ليرتسم فى ذهنك فى صورة واضحة انسانا له خصائص وسمات بعينها ..

احسب ان هذا البحث حول الأغانى سابق لأوانه ؛ وكل الذى يعنينا هنا هو أن الكتاب ملىء بالقصص حول الشعراء الجاهليين وغير الجاهليين مما يؤكد انهم كانوا يعرفون هذا اللون من الانتاج ويتناقلونه . وليس كتاب الأغانى هو المرجع الوحيد فى هذا بل ان المكتبة العربية غنية بأمثال الأمالى وصبح الأعشى والعقد الفريد والشعر والشعراء وكتب التراجم والطبقات مما لا يدع مجالا للشك فى أن التأليف العربى قد تناول الحياة الجاهلية فى كل مظاهرها .. الا أن الدارسين المحدثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا ما فى هذه الكتب من القصص فنا نثريا مميزا له أصوله الجاهلية ؛ واعتمدوا فى هذا على أن كل هذه الكتب انما دونت فى العصر العباسى الذى يبعد بعدا زمنيا كبيرا الى حد ما عن العصر الجاهلى ..

ويقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وما كنا لنتخذ صياغة العباسيين مثالا لصياغة الجاهليين. ومن أجل ذلك كنا لانستطيع أن نعتد — من الوجهة الأدبية — بما يروى فى هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ ، لأن الرواة حرفوا لفظه ، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة الزباء ، ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم فى العصر الجاهلى لاعتددنا بهذا الجانب من نثرهم . ولكنهم لم يكتبوا شيئا » ..

والسؤال الذى احسبك ستسأله معى للدكتور شوقى ضيف هو : والشعر العربى أدون فى العصر الجاهلى ؟

ومعروف ان الشعر العربى لم يدون فى العصر الجاهلى ، بل ومعروف ان حركة التدوين تمت متأخرة واعتمدت اعتمادا كبيرا على الحفظ والرواية . بل ومعروف أن هذا هو احد الأسباب التى اعتمد عليها الدكتور طه حسين فى نظريته عن انتحال الشعر الجاهلى .. ومع هذا فقد درس الدكتور شوقى ضيف بل والدكتور طه حسين نفسه الشعر الجاهلى دراسة تتناول الأسلوب واللغة والتراكيب البلاغية قبل أن تتناول المضمون . والدكتور شوقى هو بعد صاحب مذهب الصنعة والتصنع والتصنيع فى كتابه الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ..

فالدارسون المحدثون اذن لم يعتدوا من الوجهة الأدبية بما جاءهم من قصص جاهلى ولم يعتبروه فنا نثريا جاهليا ، وذكروا حجتهم فى ذلك وهى تأخر التدوين .. ولكنى أحسب أن هناك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسبابا أخرى صرفتهم عن دراســة القصص الجاهلى صرفا ، ليس منها على أى حال بعد عصر التدوين وان احتجوا به .. فهم كما نعلم قد قبلوا الشعر الجاهلى دون كبير عناء ، بل هم قد قبلوا من النثر الجاهلى الخطب وسجع الكهان والأمثــال ، وعنوا بدراسة هذه الألوان من الانتاج النثرى وراحو يخرجون منها بأحكام على نثر الجاهلية دون أن يضطربوا الا قليلا امام الشك فى صحتها .. وانما احسب أن المسألة غير هذا ، أحسب أنهم تخيلوا نقلا عن الدارسين القدماء صورة بعينها للعصر الجاهلى والأدب الجاهلى ، تخيلوا الحياة الجاهلية بداوة وفقرا ، ورحلة لاتنتهى فى قلب الجزيرة والى أطرافها ، وعناء وخشونة ، وجهلا بكل شىء مما يعرفه العالم فى قديمــه وحديثه معا .. وتخيلوا الأدب الجاهلى طنطنة الفاظ ، وعبث فارغين يبدون مهاراتهم من صنوف الرياضــة الذهنية التى تجعل جل اهتمامهم منصبا على وضع اللفظ الى جوار أخيــه فى اتساق نغمى معين .. وراحوا بعد هذا الذى تصوروه لحياة الجاهلية وأدبها يبحثون عما يرضى هذا التصور ، وانت فى الشعر الجاهلى الذى جمعوه تكاد تسمع نفس اللحن يعزفه أكثر من عازف ، كلهم لا يعرفون الا الرحلة والناقة وبعر الآرام ، وكلهم يحيون على حب جنسى أسقم ما فيه العاطفة ، وعلى حقد كريه يولد الهجاء للغير ، وعلى انانية مفرطة تجعل الفن المفضل فيما رووه من شعر الجاهلية هو الفخر ، ثم على ذلة وصــغار يرسمان الشــاعر دائما مادا يده فى ســبيل العطاء ..

وليس من بحثى فى شىء الشك فى أمر هذا الشعر ، فقد يكون صحيحا أو لايكون .. ولكن الذى يعنينى هنا أنه لا يكاد يصور من حياة اهل الجاهلية الا هذه الصورة البغيضة المنفرة التى احسب أنها لا تكاد تمثل — ان مثلت شيئا — الا ما ينخيله هؤلاء الدارسون من قدماء ومحدثين عن شكل الحياة الجاهلية وحقيقتها ..

وغير هذا ما تنقله القصص التى عرفت عن الجاهليين من صور ، ففيها قصص بطولة رائعة ، وحكايات حب انسانية ، وقصص وفاء وغدر ، وصراع فى سبيل الخير وفى سبيل الشر جميعا ، وفيها علاقات لا تنتهى بكل أجناس الأرض الذين عاشوا حول الجزيرة بطباعهم وعاداتهم ، وبثقافاتهم ومعرفتهم ..

والقصص التى جاءتنا عن الجاهلية اذن ترسم صورة تكاد تكون مخالفة تماما لتلك التى أراد الدارسون أن يرسموا ، وتعطى خصبا ونماء فى حياة الجاهليين أحسب أن الدارسين اكتفوا بتكذيبه ونسبته الى الرواة والناحلين حتى لا يشوه الصورة التى اقتنعوا بها اقتناعا ..

والقصص أيضا ليست فيها هذه الرياضة الذهنيه التى أولع بها اصحاب الدراسات ، فلن تجد فيها هذا العبث اللفظى الذى سمى بالصناعة .. بينما الخطب والأمثال وسجع الكهان — تلك الصور التى ارتضوها ، واقتنعوا بها — لا تكاد تحمل من شىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الا هـــذا العبث اللفظى الذى ينبح لهم ان يصـــولوا بحثا عن الصناعة ما شاءوا ..

ومعروف ان من أسباب العناية بتدوين الشعر الجاهلى الرغبة فى معرفـــة معانى بعض الفاظ القرآن ، فاحتجوا على معناهـــا وصحتها معا بورودها فى شعر الجاهليين ، ثم بداوا يروون لنا هذا الشعر الجاهلى بل ورووا لنا صـــور النثر التى نقلوها من خطابة وسجع لنفس السبب والأهداف . وانا ايضا لا أريد البحث حول صحة هذا الشعر وتلك الصـــور النثرية ، أوضعت وضعا لتفسر الفاظ القرآن أم هى صحيحة ، ولكن الذى أريده هو ان اثبت ان هدفا لغويا معينا ــ بصرف النظر عن الهدف الدينى ــ كان هو الحافز على جمع هذا الذى جمعوه من شعر الجاهليين . . وما دام الأصل فى الجمع لغويا ولفظيا فلابد أن يكون الأصـــل فى الدراسة كذلك ..

فالدارسون القدماء ، والدارسون المحدثون كذلك لم يجدوا فى القصص الجاهلى صـــورة ما تخيلوا عن حيـــاة الجاهليين فاسقطوه .. وهم كذلك لم يجدوا فيه ما يفيدهم فى بحثهم عن الصنعة وغريب الألفاظ فاكتفوا بذكر الحجة التى تقول انه حرف فى لفظه بل وفى معناه ، ثم اسقطوه ..

والدارسون قد وضـــعوا فى قلوبهم وأذهانهم أن العرب فى الجاهلية كانوا مشغوفين بالبيان وبالبلاغة ، ودليلهم على هذا هو القرآن الكريم نفسه ، فالقرآن كمعجزة بيانية لابد أنه كان يخاطب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اناسا صناعتهم وهوايتهم البيان والبلاغة ، ولتثبيت هذا المعنى لم يقبلوا من صور الأدب الجاهلى الا ما حفل بالصنعة البلاغية ، وما يقف شاهدا على براعة العرب الجاهليين البيانيـــة .. بل ومعروف كذلك أن الدراسة الأدبية بدأت عند المسلمين على أساس محاولة تفسير اعجاز القرآن البلاغى ..

والواقع اننا لا نستطيع أن نسلم أن شعبا بأسره قد وقف حياته على اللهو بالالفاظ والتجويد فى صـــور صياغتها ، وانما نحسب أن هذا كان عمل طبقة معينـــة من الناس ، كانوا هم المتصدين للحيـــاة الفكرية والقولية عند العرب ، ونحسب أن بلاغة القرآن كانت تقصد الى افحام هؤلاء والزامهم الحجة .. فهى تقارعهم بنفس سلاحهم وهى تنتصر عليهم بما لايدع امامهم مجالا للشك فى صحة الوحى ، وتعذر صـــدور القرآن عن بشر مثلهم .. وهذا لايعنى بالتالى أن الشعب العربى ــ كما قلنا ــ كان كله صاحب بيان وبلاغه ، والا لخلا القرآن الا من الصور البلاغية والبيانية .. ولكن القرآن مضمون ومحتوى .. ومن هذا المضمون والمحتوى اســـتمد اثره على باقى العرب الذين لا يضربون فى البلاغة بسهم ، واستمد اثره كذلك على غير العرب ممن لا يعرفون العربية وما فيها من صور بيانية ..

ولهذا فقد اقتصر بحث الباحثين على ما يثبت ايمانهم ببلاغة العرب وفصاحتهم ، حتى يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى النثر العربى :

« وفى جميع آثارهم من شعر ونثر نجد آثار هذه الرغبة الملحة فى جمال المنطق وحسن التعبير . وما ينساق فى ذلك من حلاوة السنة وطرافة بيان » ..

ومن قبله قال الجاحظ عن الجاهليين فى كتابه البيان والتبيين انهم كانوا « يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة » ..

بهذه الروح اذن فهم الدارسون الأدب الجاهلى على انه أدب صنعة ، ومرجع لغة ، ودليل بلاغة وصناعة ، ولهذا فقد اغفلوا ما لا ينفعهم فى هذا كله ، واعنى القصص ..

الا ان هذا كله لا ينفى ان العرب فى العصر الجاهلى كانوا يعرفون القصص ، وان القصص كانت بابا كبيرا من أبواب أدبهم ، وإن فيها دلالة كبيرة على عقليتهم وحياتهم .. وهم قد عرفوا الوانا متعددة من هذا الفن . عرفوا قصص الأنبياء وقصص الشعوب ، وقصص الأمكنة وقصص الملوك والأبطال ..

ومن أشهر قصصهم أيام العرب التى تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم الكلاب ، أو تلك التى دارت رحاها بينهم وبين ما حولهم من شعوب كيوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس ..

كما كان للعرب أحاديث هوى تتناقل وتروى كقصة المنخل اليشكرى والمتجردة زوجة النعمان وما كان بينهما من علاقة مما ملأ الكثير من صفحات الأغانى ..

وعرف العرب قصصا تتناول بالتفسير المطعم بالبقايا الاسطورية الحياة والخلق . فحكوا الحكايات عن نشأة العالم وعن آدم ونسله وعن نشأة اللغات وتعددها . وعن التاريخ العربى كما تخيلوه حتى الاسلام مما نجده فى كثير من الكتب مثل التيجان لوهب بن منبه الذى يعتبر المرجع للكثير من الروايات العربية التى تلت عصره ..

والاسطورة عند العرب مثل الاسطورة عند سائر شعوب الارض تنشأ مع نشأة التفكير عند الانسان ، ومع نشأة قدرته على الابانة والتعبير فيحاول عن طريقها أن يفسر ما يعجزه فهمه من ظواهر الكون حوله ؛ كما يحاول عن طريقها ان يعلل تعليلا خياليا ما يعجزه فهمه أو ادراك سره ليصبح قادرا على التلاؤم مع الظواهر الكونية التى لايدرك سرها ولا يفهم أسبابها ومكوناتها .. وطبيعى أن يعرف العرب الاساطير بكل أنواعها وان يتداولوها ويتناقلوها كجزء من تراثهم العربى الذى يصاحب عاداتهم الدينية المليئة بالرمز المثقل بالخيال الجامح البدائى . ومن هنا فان الكثير من قصصهم أو ما نقلته كتب الاخبار مما تبقى من هذه القصص مزدحم بآثار هذه الاساطير ملىء باشارات اليها والى رموزها والى ما كانت تقوم به فى مراحل التفكير العربى الأول من دور هام كتعبير فنى وكتفسير وجدانى تقدم به الانسان العربى ليساعده على اعادة التوازن بينه وبين الكون وظواهره واسراره ..

واخذ العرب القصص أيضا عن ما جاورهم من أمم اما نقلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كاملا يذكرون فيه أصل القصة ، واما فيها يشبه ما نسميه اليوم بالاقتباس ، اذ يحورون فى القصة لتلائم ذوقهم وبيئتهم وحياتهم ..

وكذلك اخذوا من أساطير الشعوب التى خالطوها وعرفوا ثقافاتها . وامتزجت هذه الاساطير باساطيرهم فى تفاعل حيوى وتلاحم عضوى ، اتاح لها ان تذوب فى المفاهيم العربيه وان تلتحم مع الاساطير العربية ، ليكون الناتج قصصا يمثل لا المفاهيم العربية وحدها ، ولكن مفاهيم الانسانية وتراثها فى مرحلة من مراحل تطورها فى هذه المنطقة التى اتاحت لها ظروف التجارة والرحلة ان تتعايش وتتعارف ونثرى وجودها بالأخذ والعطاء ..

وقد وصل الكثير من هذا القصص الى أيدى الدارسين المحدثين ولكنهم انصرفوا عنه مزورين وكأنما عن عمد ، ويكفى أن أسوق هنا ما قرره الأستاذ احمد أمين فى كتابه فجر الاسلام فى حديثه عن أيام العرب اذ يقول :

« ترى هذه الأيام وأخبارها مجموعة فى العقد الفريد ، وأمثال الميدانى ، وقد زاد القصاص فى بعضها وشوهوا بعض حقائقها ، كالذى تراه فى أخبارهم التى حكوها فى موت الزباء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا .. فخبر الزباء المروى فى الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبى ، رواية خيالية موضوعة لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندرى هل افسدها العرب فى جاهليتهم ، أو افسدها رواة الأدب فى الاسلام » .

هذا الذى أسوقه هنا من كلام الاستاذ احمد أمين يوضح

الروح التى نظر بها الدارسون المحدثون الى هذه الآثار .. ويتشابه مع الاستاذ أحمد أمين فى النظره الى هذه القصه الدكتور شوقى ضيف الذى يقول عنها انها « لا تتفق فى شىء وحقائق التاريخ الرومانى الصحيحة التى كتبت عن زنوبيا » .

ولم يهتم الاستاذان بهذه القصة الا من ناحيه صدقها التاريخى رغم ما يمكن أن تعطى هذه القصة من دلالة واضحة على وجود التأليف القصصى الذى يستمد مادته من التاريخ ، والواقع انه ليس مطلوبا من كاتبى القصة مراعاة التاريخ والنقل الحرفى .. وربما لو قامت دراسة على احترام نص ابن محمد الكلبى وغيره ، واعتبار أعمالهم لونا من الانتاج الفنى القصصى ، ومحاولة المقارنة بين ما قصوه وبين ما تحكيه الوثائق التاريخية لاستنباط عملهم الفنى وأسلوبهم القصصى ، والزوايا التى وقفوا عندها ، لأمكن أن تكون هذه الدراسة اساسا لتكوين فكره عامة عن الفن القصصى فى العصر الجاهلى .

اما النظرة الى هذه الأعمال وغيرها ؛ بل والى غالبية ما جاءنا من قصص جاهلى على اعتبار انه افساد من اصحابه لحقائق التاريخ فهذا معناه اخراج كل هذه الاعمال من الأدب ، بل ومعناه سقاط الانتاج القصصى العربى بكل ما فيه من قيم ودلالات .

ودارس الأدب ليس من مهمته فى شىء بحث صدق القصة التاريخى ، بقدر ما يدخل فى مهمته بحث أداتها الفنية وشكلها التعبيرى وقالبها الروائى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأصل فى هذا كله يعود الى النظر الى الكتب التى حملت الينا هذه القصص كالاغانى والعقد الفريد والأمالى وغيرها على اعتبار أنها كتب تاريخ تروى الحقائق المجرده ، ويعتمد عليها فى هذه الناحيـــة وحدها ، رغم انها فى حقيقة أمرها لا تخرج عن اعمال تجميعية لبعض القصص المنقول عن العرب ، فهى الى الفن اقرب منها الى التاريخ والعلم ..

بل لقد ذهب كثيرون من الدارسين الى أن كل هذه الروايات كاذبه ولم تنقل عن الجاهليين لأنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة .. والواقع أن هذه النتيجة مبنية على مقدمة خاطئه فان النصوص الكثيرة التى وصلت الينا تدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة ، وانهم كانوا أيضا يستعملونها فى تدوين الآثار الأدبية . وليس معنى عدم وصول النصـــوص المكتوبة الينا انهم يجهلون الكتابة ولا يعرفونها ، وانما قد يكون معناه أن كتبهم ضاعت فى عصور متأخرة ، أو أهملت وأهمل شأنها .

فمن المعروف أن المعلقـــات السبع كانت تدون وتعلق على استار الكعبة ، كما يروى أبو الفرج فى كتابه الأغانى أنه كان فى الحيرة (كتاب) يتعلم فيه الصبية الكتابة .. كما يروى الطبرى عن هشام بن محمد الكلبى أنه رأى فى بيع الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب ..

وفى صفحة ٢٠٨ من الجزء الأول من السيرة النبوية يقول ابن اسحق فى حديثه عن بناء قريش الكعبة : « وحدثت أن قريشا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجدوا فى الركن كتابا بالسريانية ؛ فلم يدروا ما هو حتى قرأها لهم رجل من يهود فاذا هو : أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء . لا تزول حتى تزول أخشباها ، مبارك لأهلها فى الماء واللبن » ..

وقال ابن اسحق : « وحدثت انهم وجدوا فى المقام كتابا فيه : « مكه بيت الله الحرام ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، لا يحلها اول من اهلها » ..

وقال ابن اسحق : « وزعم ليث بن أبى سليم انهم وجدوا حجرا فى الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة . ان كان ما ذكر حقا ، مكتوبا فيه : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات ، وتجزون الحسنات ! أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب » ..

وقد جاء الاسلام وفى مكة سبعة عشر كاتبا وفى المدينة أحد عشر .. ويقول الجاحظ فى كتابه الحيوان : ان العرب كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة (المهارق) .. وقد ورد فى كثير من نصوص الشعر الجاهلى ما يفيد معرفة العرب للكتابة والتدوين .. وقد ذكر الميدانى فى مقدمة كتابه (مجمع الأمثال) انه رجع فى تأليفه الى ما يربو على خمسين كتابا .. بل ان وهب بن منبه يروى فى صدر كتابه التيجان فى ملوك حمير انه قرأ « ثلاثة وتسعين كتابا

مما انزل الله على الأنبياء فوجدت فيها أن الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا » ..

فالكتابة والتدوين اذن لم يكونا مجهولين عند العرب فى العصر الجاهلى ، وليس صحيحا أن الذين دونوا أخبار الجاهليين فى العصر العباسى قد اعتمدوا على ما حفظه الرواة وما تناقلوه ، اذ ليس معقولا على الاطلاق وقد جاء الاسلام يجب كل ما قبله أن يظل الرواة على ترديدهم لتراثات العصر الجاهلى فى حفظ واتقان ، وانما المعقول ان اصحاب كتب تاريخ الأدب التى دونت فى العصر العباسى استعانوا بهذه الكتب اما مباشرة كالميدانى مثلا ، واما عن طريق الرواة الذين احتفظوا عندهم بالمراجع للأدب الجاهلى يرجعون اليها ويروون منها كهشام بن محمد الكلبى مثلا ..

وابن النديم صاحب الفهرست يروى أن محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء قد ابتدأ بتأليف كتاب اسمه « الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم » فأحضر المسامرين وأخذ عنهم ما يحفظون كما اختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما يشاء ..

فالكتب اذن كانت موجودة ومعروفة وليس من داع فى أن نكذب كل من يذكر أن العرب فى الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة وانهم دونوا آثارهم كتابة وانها نقلت الينا عن هذا الطريق الى جوار طريق الرواية والحفظ .. ليس من داع لهذا لأنه التفسير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحيح لما نقل الينا من تراث تصحي كبير . فقد يكون من المعقول ان ينقل الراوى قصيدة شعر . أما أحداث تاريخ وحكاية حياة فهذه تحتاج الى تدوين فى نقلها . .

ودليل اخير نسوقه وهو أن جزءا من معجزة القرآن البلاغية يعود الى نزوله على نبى أمى لا يعرف القراءة والكتابة ؛ فكأن صنعة البلاغة يعرفها القوم القارئون . وكان الكتابة كانت شائعة وسط أصحاب البيان العرب . وكما أن محمدا كان أميا فضرورى اذن ان يكون هناك من يقرأون ويكتبون ؛ وضرورى اذن أن تكون القراءة والكتابة شائعة بحيث يلفت الأنظار ان يحمل أمى مثل هذه الرسالة التى تعتمد على البلاغة والبيان وتأتى بالمعجز من القول . .

وقد دعى الدارسين الى الشك فى وجود الكتاب . انه لم يذكر اسم كتاب جاهلى لمؤلف بعينه ؛ ولكن أحسب أن وجود الكتاب شيء ووجود التأليف المنظم شيء آخر ؛ ومن يدرى لعلهم أيضا عرفوا التأليف والتصنيف . وما دمنا نخبط فى بيداء هديها الوحيد هو الاستنتاج فليس لنا أن نقطع بشيء . ولكن علينا فقط أن نوائم بين مختلف الفروض وبين ما هو أقرب الى طبائع الأشياء . .

الأقرب الى طبائع الأشياء أن العصر العباسى لم يدون كل هذا التراث الجاهلى من الذاكرة فقط ؛ ولكنه لابد قد اعتمد على أصول مكتوبة ؛ وما دام الدليل تحت أيدينا على معرفة العرب فى

جاهليتهم بالكتابة .. فليس ما يمنع من أن يكونوا دونوا قصصهم كما دونوا معلقاتهم فى صحف وصلت عن طريق التوارث الى الرواة الذين نقلوها الى العباسيين فأخذوا منها ، وهذا لايمنع بحال أنهم أضافوا أو زادوا ، ولكنه يؤكد أن رفض كل التراث القصصى الجاهلى لمجرد أنه دون فى مصنفات متأخره زمنيا خطأ يحتاج الى مراجعة .. ويؤكد أيضا أن الاعتماد فقط على الخطب وسجع الكهان والصور المليئه بالأشكال البيانية وحدها ؛ تعسف يفسد صورة الأدب الجاهلى كله .. وليس ما يمنع ما دمنا قد ارتضينا بعضا من انتاج عصر أن نرتضى غيره ، وخاصة والمصنف الذى ينقلها الينا واحد .. أما ان نقبل بعضه لأنه يلائم الصورة التى رسمناها فى أذهاننا للأدب الجاهلى ، ونرفض بعضه لأنه يرسم صورة أخرى أكثر اشراقا وحيوية ، واقل صنعة وتكلفا فهذا ما لا نستطيع أن نفهمه على الاطلاق ..

والحياة الجاهلية بعد مليئة بالشواهد على وجود القصة وأهميتها فى حياتهم وأدبهم .. وأحسب اننا سنحاول أن نضع أيدينا على بعض الشواهد الأخرى التى لم نوردها حتى الآن ؛ وان كانت أكثر دلالة وأصدق ابانة فيما يلى من فصول ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعر والنثر في الجاهلية

لخص الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه (فى الأدب الجاهلى) فى جملة واحده اختتم بها الكتاب فقال :

« نحن ننظر الى الأدب الجاهلى كما ينظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ ويتخذ لدرسه الوسائل التى تتخذ لدرس ما قبل التاريخ . فأما تاريخ الأدب حقا ، التاريخ الذى يمكن أن يدرس فى ثقة واطمئنان ، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول فانما يبتدىء بالقرآن » .

والدكتور طه حسين انما أراد بهذا أن يرفض كل ما أورده المؤرخون القدماء من نصوص الأدب الجاهلى سواء فى هذا شعره ونثره . بل لعله عنى برفض الشعر عناية كبيرة جعلت حديثه عن النثر تكرارا لما قال فى أمر الشعر دون زيادة . فالعرب عنده « لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها بل انصرفوا عنها طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها الا بعد فترة من الدهر وبعد أن عبث النسيان والزمان بما كان قد حفظ من شعر العرب فى غير كتابة ولا تدوين » وهو اذ يطبق هذا المنهج على نثر الجاهليين بعرى العصر الجاهلى تماما من كل ما يمت الى الفن القولى بصلة، ويبدأ من عند القرآن بداية الواثق المطمئن قائلا « ولسنا نخشى على هذا القرآن من هذا النوع من هذا الشك والهدم بأسا . نحن نخالف اشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حاجة الى الشعر الجاهلى لنصح عربيته وتثبت الفاظه . نخالفهم فى ذلك أشد الخلاف لأن أحدا لم ينكر عربية النبى فيما نعرف ، ولأن أحدا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . واذ لم ينكر أحد أن النبى عربى واذ لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه فأى خوف على عربية القرآن من أن يبطل هـذا الشعر الجاهلى وهـذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين » .

واذا كانت هذه النظرية التى ساقها الدكتور طه حسين قد فشلت فى هدم الشعر الجاهلى هدما كاملا اذ ظل ما نقلته كتب المؤرخين من شعرهم موضع اعتراف الدارسين وعنايتهم ، وان بدأوا يأخذونها بكثير من الحرص والعناية والفحص ، الا أنها ساعدت فى القضاء على الاهتمام بالنثر الجاهلى واهمال أمره . فان احتـاج المفسرون لألفاظ القرآن الى الاستشهاد بالشـعر العربى واحسوا بضرورة الحرص على روايته فهم لم يحسوا بهذه الحاجة حيال النثر . وحتى هذا النثر الذى شاءوا أن يعترفوا به رفضه الدكتور طه حسين حين طبق نظرية الانتحال رفضا قاطعا . وتابعه كثيرون كما رأينا فانسدل ستار كثيف على نثر الجاهليين الا ما ندر من خطب سقيمة ، ومجموعة مما أسموه بسجع الكهان .

ومن هـذه النقطـة بالذات نبدأ ، فالقرآن باعتراف كل الدارسين نص ثابت لاشك فيه ، وحتى الباحث الذى شك فى كل شيء لم يشأ أن يسحب شكه هذا على القرآن فاعترف به نصا

صحيحا عربيا لا تقربه معاول الهدم بحال . والقرآن بهذا وبما يمثل من ثروة فكرية وبلاغية وفنية ضخمة هائلة يهدم كل محاولة لهدم الأدب الجاهلى هدما كاملا . والا فكيف يمكن أن نعتبر القرآن بداية أدبية لأمة من الأمم .. كيف يمكن أن يستقيم مع العقل والمنطق بل ومع طبائع الأشياء أن يظهر هذا الكتاب فجاة متكاملا فنيا وفكريا دون أن تكون له جذور يقوم عليها ويستمد منها قوته وتاثيره ..

كيف احس العرب بقيمة القرآن وهو — اذا صح افتراض الدارسين — بداية لا اصل لها عندهم ؛ ولا شاهد يسبقه ويعروه القصور ليشير بقصوره الى كمال القرآن واهميته .

الطبيعى والمنطقى كذلك أن العرب عرفوا من صور التعبير الأدبى ما جعل القرآن اليفا اليهم واضحا عندهم . ثم دليلا بلاغيا ضخما على الوحى والرسالة .

ولسنا بهذا نريد أن نناقش نظرية الانتحال فهى ليست من موضوعنا فى شيء ؛ ولكننا فى واقع الأمر نريد أن نناقش قضية أعمق واخطر واكثر ثبوتا فى أذهان جمهرة الدارسين : وهى أن القرآن بداية وما سبقه ليس بشيء .

وقد خلص الدارسون من هــذا الحرج عندما قالوا : ليس القرآن شعرا وليس نثرا وانما هو قرآن .. متتبعين فى هــذا الباقلانى صاحب أعجاز القرآن وعلماء عصره العباسيين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكأنما هم أرادوا أن يقولوا ان القرآن ليس وليد تطور فنى عرفه العرب وانما هو شيء فريد جديد تماما .. وهــذا صحيح من الوجهة الدينية . ولكنه لا ينهض دليلا على شيء من الوجهة الفنية ، فاذا سلمنا ان القرآن صورة تعبيرية جديدة لم يكتب مثلها العرب قبله ، فلا نستطيع بحال أن نسلم بأنه كان بعيـدا عن الفهم وتذوقهم ، والا كيف نفهم تذوقهم له ذلك التذوق الذى جعلـه معجزة قائمة بذاتها .

الطبيعى اذن ان العرب عرفوا من ألوان التعبير الفنى ماجعلهم يستطيعون تذوق بلاغة القرآن وادراك قيمته ورفعه الى القدر الذى أحلوه فيه . والطبيعى أيضـا أن القرآن لم يوقف حركة الانتـاج الفنى بحيث نستطيع أن نسمى العصر الجاهلى عصر ما قبل القرآن ، ونسمى العصر الاسلامى عصر ما بعد القرآن .. بل لابد أن الحياة ظلت سائرة ، وأن أذواق الناس أخذت تتبلور تدريجيا ، ولكنها لم تخلق من جديد خلقا .. وقد كان ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء منطقيا مع نفسه حينما ضم شعراء عصر صدر الاسلام الى شعراء العصر الجاهلى لغلبة الصبغة الجاهلية على شعرهم .. ولم يظهر — بكل أسف — للنثر من يفعل فيه فعل ابن سلام فى الشعر . ولعل هذا يرجع الى حد كبير الى أن صـورة النثر التى كانت أمام الدارسين عن العصر الاسلامى كانت تختلف فى حقيقتها كل الاختلاف عما تخيلوه من صورة له فى العصر الجـاهلى . فالجاحظ يقول فى (البيان والتبيين) : « لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل

وزنا ولا اجمل مذهبا ولا أكرم مطلعا ولا أحسن موقعا ولا اسهل مخرجا ولا افصح عن معناه ، ولا ابين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم » .. فالصورة التى يطالعها الدارسون للنثر بعد القرآن صوره مشرقة تدل على عناية بالمعنى وابانه عن قصد وليست كلاما ممروضا فيه عبث لفظى كذلك الذى نقلوه عن العصر الجاهلى ، ولا يمكن أن يتم هذا التغيير بين يوم وليلة ، وانما الطبيعى انه تم على مراحل وانه على أى حال امتداد لتراث سبقه واسهم فى تطوره ووضع بذرته الأولى . والسؤال هو : اين هذا النثر اذن ؟

القرآن نفسه يجيبنا على هذا السؤال ..

يقول ابن هشام فى السيرة ان الوليد بن المغيرة وهو من الد خصوم الاسلام قال عن القرآن « والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الأنس والجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق » .

فالمسالة من الوجهه الفنية كانت معركة بلاغية بين القرآن وبين صور التعبير المختلفة التى عرفها العرب ، انتهت بانتصار القرآن انتصارا انتزع من عدوه هذا الاعتراف بالغلبة الساحقة .

فما هو كلام الأنس وما هو كلام الجن .. ؟

اما كلام الجن فالمقصود به سجع الكهان اذ يقول الجاحظ فى البيان والتبيين ان العرب فى الجاهلية كان فيها طائفة تدعى التكهن وانها تطلع على الغيب وكان كل كاهن منها يزعم انه سخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له (رئى) من الجن يسترق له السمع فيعرف عن طريقة ما كتب
للناس فى الواح الغد . وقد عرف منهم سطيح الذئبى وشق
ابن معصب الأنمارى وسلمة الخزاعى وغيرهم ممن تجد حديثنا
عنهم فى الأغانى كما نجد نماذج من سجعهم واغرابهم .

وقد اكتفى القرآن بالقضاء على عبثهم بما أورده من صور
بلاغية رائعة جعلت ما يأتون به ضحلا باهتا يقف عاجزا امام
روعة بلاغة القرآن وسبكه . كذلك نهى الرسول عن سجع الكهان
كما جاء فى اعجاز القرآن للباقلانى . والواقع اننا نحس أن هذا
اللون من الكتابة انما كان يقصد به التأثير على عقول السذج
من الناس ، واقناعهم — وراء طنطنة الالفاظ وغرابتها وما يعطى
لها السجع من موسيقى — بصحة ما يدجل به هؤلاء الكهان ؛ وقد
كان يكفى أن يؤمن الناس بدين صحيح وأن ترفع من على أعينهم
غشاوة الجهل والكفر ليسقط الكهان وسجعهم من كل حساب .

أما كلام الانس فنحن نعرفه شعرا ونثرا .

وتزعم أن القرآن وهو يخوض معركة البلاغة مع العرب لم
يزعجه أمر الشعراء فى شىء ، فقد اكتفى بأن وصمهم بأنهم
الغاوون ؛ ولم يحتج الى جهد كبير ليصرف الناس عنهم . وما هو
الا أمر القى فنفذ .. وربما كان الأمر أن الشعراء يمثلون طبقة
معينة من التفكير وبالتالى قطاعا معينا من المجتمع ، جاء الاسلام
ليقضى على جبروته وسطوته ، وعلى ما يتمتع به من حقوق موروثة
جعلته يستبد بالحياة والناس جميعا .. فالشعراء كانوا يتكسبون من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدح المترفين من أبنـــاء الجزيرة وقد جاء الاســــلام ليسوى بين الناس فبار ســــوق الشعر ، وأصبحت تجارته خاسرة فى عصر ينادى بالمساواة ، ويصرف جهد الناس وقدراتهم الى نشر الــدين والدفاع عن قضية الحق .. وربما كان الأمر أن الشعر كانت له مواسمه وجلساته ولم يكن هو الحديث المتداول اليومى الذى يشكل خطرا على الحديث الجديد . بل ربما كان الأمر ان الشعر كان يحمل قيما زائفة من فخر وعصبية واثارة للشر والفساد ، ومناداة بأحساب وأنساب كان يريد الاســــلام أن يقضى عليها ، وكان يكفى أن يحل فى قلوب الناس السلام ليبتعدوا وحدهم عن دعوى الحقد والبغضاء والتعصب ، وربما كان الأمر أن ما قرره الاسلام فى أمر الشعراء كان المجتمع العربى نفسه قد فرغ من تقريره بالفعل .. ربما كان الأمر هذا كله أو غيره ، الا أن الذى لاشك فيه أن القرآن ـــ وهو المعجزة البلاغية الأولى ـــ لم يقارع الشعر ولم يحسب له حسابا .

وربما كان الأمر أيضا فى كلام الوليد بن المغيرة ان الشعر ايضا من كلام الجن فقد كان الشعراء يعتبرون الشعر الهاما من قوى خفية هى الجن ، اذ كان لكل شــاعر شيطانا يلهمـــه ما يقول ، فيكون الشعر بهذا أيضا من كلام الجن .

بقى أمر النثر ، ونزعم أن المعركة البلاغيـــة الحقيقية التى خاضها القرآن انما كانت ضـــد النثر . ولست أعنى بالنثر هنا هذه الخطب المنتشرة فى بعض الكتب مثل الطبرى والأغانى والعقد الفريد والأمالى كنماذج من خطب الجاهلية ، وانما أعنى نوعا من النثر حفل بالمضمون والشـــكل معا ، نوعا خطيرا ملأ قلوب الناس وعقولهم ، نوعا يمتد تأثيره لا على فئة أصحاب البلاغة المزوقين المزينين وحدهم ، وانما يبعد أثره ليمتد الى كل فئات الناس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينقلونه ويتناقلونه فى اعجاب حقيقى وايمان كبير .. هـذا النوع خطره ليس فى لفظه وانما خطره فى مضمونه ، فالقرآن ككتاب دين لم تكن من مهمته أن يتفوق على أصحاب البلاغة فى ميدانهم وحسب ، وانما كانت مهمته أن يتغلغل فى قلوب الناس وعقولهم ليحمل لهم مفهومات جديدة يدخلها الى نفوسهم مكان مفهومات أخرى خاطئة احتلت هذه النفوس زمنا ..

جاء الاسلام ليقاوم عقائد فاسدة ، وليقاوم مبادىء فاسدة ، وليقاوم مثلا للحياة فاسدة .. وهذه العقائد والمبادىء والمثل انما تتمثل فى تراث كبير يملأ عقول الناس وقلوبهم فكان على الاسلام أن ينزع هذه العقائد نزعا ، وأن يزيلها ليحل محلها ما يشاء .. فكيف حارب القرآن هذه العقائد والمثل الخاطئة .. لقد لجأ القرآن الى القصص يستخرج منها العبر ويرسم بها المثلويشرح بها الخير والشر .

ولجوء القرآن الى القصص دليل واضح على أنه كان يعرف أنها الطريق الذى ينفذ به الى عقول الناس وقلوبهم ، فليس معقولا أن يخاطب الكتاب الكريم الناس بأداة جديدة عليهم وأسلوب لم يعهدوه من قبل ، بل الطبيعى ان القرآن الكريم فى اتجاهه نحو القصص انما كان يسد حاجة فنية عند العرب ، ويحل تدريجا محل فن قديم لديهم قارعه بنفس سلاحه وانتصر عليه .. وقد قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم الى مجالسكم ؟ قال : « كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا » فأخبار الجاهلية اذن كانت شيئا غير الشعر ، فما هى هذه الأخبار ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول الهمدانى فى كتابه (الوشى المرقوم) : « لم يصل الى احد خبر من اخبار العرب والعجم الا من العرب ، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العارية وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس . وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعا لأنه كان فى ظل الملوك السيارة » .

هذه أخبار الجاهلية اذن ، لا يقتصر أمرها على احداث الجزيرة وتاريخها وانما تمتد لتشمل ما حولها من ثقافات تؤثر فى عقلية العربى ويحفظها فى قلبه .. وهو يأخذ منها كلها ما يستحق الرواية ، أى ما يستهويه ويستهوى غيره ، وتنتقل هذه الاخبار بين العرب تروى فى مجالسهم ويتسامرون بها ..

اكاد أزعم أن هذا اللون النثرى هو الذى عرف القرآن خطره على العقول والقلوب معا فشاء أن يقضى عليه بما قص من قصص . ويؤكد هذا ما يرويه ابن هشام من « ان النضر ابن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجلسا فذكر بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه .... ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار . ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟ .. ويقول ابن‌هشام: وهو الذى قال فيما بلغنى : سأنزل مثل ما انزل الله » .

فالمسألة اذن كانت شبه معركة تعتمد على القصة كفن يستهوى النـــاس ، وهو فى الوقت نفسه يترك أثرا لا يمحى فى النفس اذ يثبت مضمونه بشكل غير واضـــح ولا مباشر .. والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو ، هل هذه القصص التى ذكرها القرآن الكريم جديدة كل الجده على العرب ، أم أن فيها اشارات الى قصص سبق أن عرفوا بأمرها وتناقلوها وحملت لهم من الدلالات ما شاء القرآن أن يمحوه ويحل محله دلالات اخرى ؟ .

الأقرب الى العقل والمنطق أن هذه القصص كان يعرفهـــا العرب ، فهم قد عرفوا ولا شك قصة موسى وقومه وقصـــة عيسى وقومه من هؤلاء الذين تنصروا منهم وهادوا . وهم لاشك أيضا قد عرفوا قصة ابراهيم عليه السلام مما تناقلوه جيلا بعد جيل وبذلك الشاهد الخالد القائم فى أرضهم وأعنى به الكعبة الشريفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقصص القرآن انما رويت لاستخراج العبرة والعظة ، ولم يقصد منها التاريخ .. فهى والحالة هذه تريد أن تستعمل الفن القصصى فى املاء مثل بعينها .. وقريب الى المنطق أن القصص المستعملة فى هــذه الحالة ليست جديدة على العرب وانما هم قد الفوا أصحاب الأسماء التى وردت فيها ، والفوا الأمكنة التى جاء ذكرها والفوا القوالب الفنية التى استعملها القرآن ..

والقرآن حكى عن أمم سالفة كعــاد وثمود ، وحكى عن الأنبياء كموسى وعيسى ونوح وهود ويوسف ، وحكى عن مدن طغت حين اختل نظامها الاجتماعى ففسدت وهلكت ، وحكى عن أمكنة لها دورها فى تاريخ البشرية ، وهذا معناه أن العرب كانوا يعرفون قصص الأمم السالفة وقصص الأنبيــاء وقصص المدن وقصص الأمكنة .

بل ان فى قصص القرآن ما جاء على السنة الحيوان ومن ذلك قوله تعــالى : « حتى اذا اتوا على وادى النمل ، قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشــكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضــاه وأدخلنى برحمتك فى عبــادك الصالحين » صدق الله العظيم .. فليس غريبا اذن ان ترد فى القصص المروية لتفسير بعض أمثال العرب حكايات على السنة الحيوان ، وقد يكونون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد عرفوها عن طريق صلاتهم ببلاد الهند والفرس وقد يكونون قد عرفوها من تراثهم هم ، وانما يأتى استعمال القرآن لهـا ليدل على أنهم عرفوها على أية حال ..

ومن المعروف أن القصاص كانوا يجلسون الى النـاس بالمسجد أيام الخلفاء الراشدين يحكون لهم أحاديث الأمم الاخرى والاساطير ونحو ذلك .. ويذهب الأستاذ احمد أمين فى كتابه فجر الاسلام الى أن هذه القصص قد استحدثت فى صدرالاسلام ويقول « روى عن ابن شهاب ان أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليـه وسلم تميم الدارى استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة فكان تميم يفعل ذلك .. وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سـئل متى احداث القصص ؟ قال فى خلافة عثمان فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الدارى » .

والواقع أن وجود هذه الظاهرة فى صدر الاسلام انما يعنى انها امتداد وليست شيئا جديدا على الاطلاق لاننـا نسأل .. وماذا كان هؤلاء يقصون ؟ الذى لا شك فيه أنهم كانوا يحكون شيئا قديما تعود الناس أن يسمعوه منهم ، ولو أنهم لا شك أيضا قد بدأوا يقومون باختيار ما يخدم الدعوة الجديدة ويؤكد رسالتها .. ولم يكونوا يقصون شيئا جديدا كل الجدة . ودليل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا ما يذكرونه عن النبى صلى الله عليه وسلم من انه استمع من تميم هذا الى قصة الجساسة والدجال ..

والغريب ان ما بقى لدينا فى كتب المؤرخين ممـــا كان يرويه تميم يكاد لا يكون شيئا على الاطلاق ، وهكذا يقف تميم هذا دليلا على وجود القصة ، ويقف ضياع ما كان يرويه دليلا على ضياع قصص العرب التى كانوا يعرفون ويقصون .

ومعروف أن هناك منبعينكبيرين هما أقدمالمنابع الاسلامية فى القصة ، أعنى بهما وهب بن منبه وكعب الأحبار . وكعب الأحبار اسلم فى خلافة أبى بكر او عمر وقد أخذ عن ابن عباس وابى هريرة .. وروى له الثعلبى والكسائى الكثير منالقصص. ولم يكن كعب الأحبار هذا بحال حجة فيما يتعلق بالاسلاميات وانما كان بلا شك حجة فيما عرف العرب من قصص . وشأنه فى هذا شأن وهب بن منبه الذى ذكرته لك من قبل والذى توفى فى صنعاء فى عام ١١٠ هـ وهو صاحب كتاب هام هو التيجان لعله المنبع الاول لمـــا عرف العرب من أساطير حول نشأة الكون وقصص مبدأ العالم وظهور اللغات ونشأة اللغـــة العربية ، يقصها عليك فى أسلوب اقل ما يوصف به انه اسلوب قصصى. والكتاب تحت أيدينا واحسب اننى سأحدثك عنه بعد حديثـــا مفصلا لما له من اهمية خاصة فى موضوعنا ..



فالقصص اذن كان معروفا فى صدر الاسلام ، وقصاص صدر الاسلام نعرفهم ونعرف أسماءهم ، ومنهم من ضاعت قصصه مع ما ضاع ، ومنهم من بقيت بعض اعماله كوهب بن منبه ، ومنهم من تناثرت أخباره بين الكتب وعلى السنة الرواة ككعب الأخبار ..

والقرآن كما قلنا هو سيد الأدلة ، فما دام القرآن قد استعمل القصة واعتمد عليها ، كما أن من الثابت أنه فى صدر الاسلام عرف العرب القصاص وتناقلوا عنهم ، فلا شك اذن أن الجاهليين كان لديهم تراث كبير ضخم من هذا القصص .. وكما استطعنا من تتبع موضوعات القرآن أن نعرف موضوعات قصص العرب فنستطيع كذلك أن ننظر نظرة سريعة فى قصص القرآن من ناحية السرد .

والقرآن يلجأ الى الاسلوب التصويرى فى قصصه ، فهو يصور الحدث ويجسمه ويدفع فيه بالحياة ، وهو يرسم المكان ويصوره ويشركه فى الحدث ، وهذا يعنى ببساطة أن اسلوب القصة العربية كان يعرف التصوير والتجسيد ويلجأ اليهما .

وقد لجأ القرآن الى الحوار يجريه على لسان شخوص قصصه يتجادلون ويتناقشون ، بل لقد لجأ الى اسلوب الحوار فى خطابه للمشركين وتردد فيه كلمة (قالوا) كثيرا ، كما تردد كلمة (قل) للرد على أقوال المشركين .. وهذا بالتالى يعنى

أن العرب قد عرفوا هذا الاسلوب ـــ أسلوب الحوار ـــ فيما رووا من قصص وما عرفوا من اساطير وحكايات .

الشاهد الذى اعتمدنا عليه فى هذا الفصل من بحثنا هو القرآن الكريم . وقد وقف الدارسون المعاصرون والقدماء معا كما قلنا فى مستهل كلامنا عنده مسلمين بصحته ، ولكنهم لم يحاولوا أن يأخذوا منه الدلالة الفنية القوية التى تشير اشارة واضحة الى هذا اللون من النثر الذى لا شك أر العرب عرفوه منذ عرفوا التعبير باللغة ، فليسوا اقل فى هذا من غيرهم من الامم .. والعرب كانوا يعرفون الدين قبل الاسلام ، ولكنه كان دينا وثنيا ، والدين الوثنى لابد أن يرتبط كما تقرر تواريخ الاديان بمجموعة من الاساطير تتعلق بالوثن المعبود ، كما لابد أن يرتبط بمجموعة أخرى من الاساطير تتعلق بالطقوس التى يتبعونها فى العبادة والتقرب الى أوثانهم .. وقد امتلأت الجزيرة العربية بالأوثان والأصنام من كل نوع ومن كل صنف ، بل لقد امتلأت الكعبة نفسها بالكثير من الأصنام لكل منها اسمه ودلالته .. وقد ارتبط العرب بطقوس معينة تغلغلت حتى اصبحت جزء من حياتهم ، فحملوا فى رحلتهم حجرا يعبدونه ما بعدوا عن صنمهم الاصلى ، بل لقد تقربوا بكل اصنامهم واحجارهم زلفى الى الله فضلوا الطريق اليه .. وعرفوا التشاؤم والتفاؤل وغدت حوله حركات وتصرفات اشبه بالطقوس . ولست احسب أن كل هذا القى اليهم القاء فحفظوه ورددوه وآمنوا به خبط عشواء ، وانما أحسب أنه تغلغل الى قلوبهم عن طريق الاساطير ، وأحسب

انه ارتبط فى نفوسهم بأفعال معينة وطقوس بذاتها تخلفت لهم عن طريق الاساطير ، واحسب آخر الامر أن القرآن حاول محو كل هذه الاساطير محوا كاملا ، وحاول بما أورد من قصص أن يستغل هذا الفن الذى أولعوا به فى سبيل هدايتهم لا ضلالهم ، ورشدهم لا غيهم .. بهذا يستقيم الامر ولا يلتوى على احد .

والواقع اننى لا أريد أن ازعم انه كانت هنـــاك قصص وحسب ، بل أريد أن اصل من هذا الزعم الى قضية أكبر بأن أؤكد أن هذه القصص كانت بالمكان الاول من الحياة الادبية ، وانها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى ، بينما حفلت أقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة .. وربما اعتبرها المسلمون بعد هذا من خرافات الجاهلية فأهملوها خوفا على دينهم وعقائدهم، وحرصا على ما وضعه فيهم الاسلام من مبادىء ومثل ، وربما استطاع القرآن أن يقضى عليها فى معركته البلاغية الظافرة بما قدم لعقول الناس وقلوبهم من أعمال تفوقها روعة وجمالا فاكتفى الناس بما فيه من قصص لاشباع حاجاتهم الفنية ..

الا أن بعض الشواهد قد بقيت محفوظة فى أذهان الرواة فنقلوها لمصنفى الكتب عندما تقـــادم العصر ، فدونوا ما تعلق منها بمن يعرفون من أهل الجاهلية محاذرين قلقين واعتبروها اخبارا لا فنا ، وعلما لا رواية .. ثم أتى المحدثون من بعـــدهم فوقفوا النثر الجاهلى على سجع الكهان والخطابة واغفلوا الفن القصصى اغفالا ما أحسبه خلا من ظنه اهمال وغفلة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التيار الشكلى

احسب أن الذى اضر بدراسة القصة العربية بل بدراسة النثر العربى كله هو ذلك الفهم الذى واجه به الدارسون تراثنا النثرى .. وهو فهم يقوم على أساس البحث عن صورة معينة من النثر تكثر فيها الصنعة ، وتظهر فيها مجالات التلاعب البلاغى والقدرة على الرصف والتنميق الشكلى .. وكان من نتيجة هذه النظرة أن انصرف جهد الباحثين الى التنقيب عن بغيتهم فوجدوها فى الجاهلية فى السجع والخطابة ، ووجدوها فى صدر الاسلام فى الخطابة والرسائل .. ورفض الباحثون جميعا غير هذا من الصور النثرية .. ولكنهم احسوا أن هذا الذى ارتضوه يكاد يبدأ بدايته الحقيقية منذ العصر الاموى ، وأن الصور الاخرى التى جاءتهم عما سبقه من عصور لا تكفى بل تكاد لا تثبت صحتها للناقد الخبير ، فشاءوا أن يخرجوا من المعركة كلها حين أعلنوا ان النثر الجاهلى ضاع ، وأن ما جاء عن عصر صدر الاسلام فيه شك كبير وأن الكتابة بدأت بعبد الحميد ..

وهذا الذى نقلوه عن عبد الحميد يمثل ما ارتضوه من صور النثر ، بل ويمثل فهمهم للنثر الفنى ومهمته ، فعبد الحميد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى (الفن ومذاهبه فىالنثر العربى) « كان بليغا وقد ضربت ببلاغنه الامثال » فاذا بحثت عن سر بلاغتـــه وجدتها الترسل والترادف والحال .. وكلها كما ترى خصائص شكلية اعجبوا بهـــا لسبب أو لآخر فحملوها وحملوا الناس عليها حملا ..

ونحن نريد أن نبحث عن السر فى هذا التيار الشكلى الذى املى على دارسى فن العرب القولى اتجاههم ونظرتهم ..

التاريخ يقول ان الموالى قفزوا الى الصفـــوف الاولى فى الحياة الثقافية منذ الدولة الاموية فما نكاد نصـــل الى عصر هشام بن عبد الملك حتى نرى على راس ديوانه سالما مولاه ، ويأتى بعده تلميـــذه عبد الحميد وهو مولى أيضـــا ، وعلى يد هؤلاء وايدى غيرهم من غير ابناء العربية الاول بدأ عصر الشكل والاهتمام به .. وطبيعى لانسان يتعلم لغة جديدة ان يلجأ الى الزينة والحلية اما لاظهار تفوقه على أهل اللغة الاصليين واثبات علمه بأسرار لغتهم ، أو لعدم احساس حقيقى بالروح الكامنة فى اللفظ فى حد ذاته من حيث كونه شحنة دلالات متـــوارثة ، يغنى حين يورده الكاتب عن كل محاولات الصنعة الاسلوبية فى الابانة عن معناه ودلالته النفسية . بل انك حين تتعمق درس هذه الصور البلاغية التى اتوا بها تحس فيها أن للفظ دلالته الموسيقية والنغمية كما له دلالتـــه القاموسية ، ولـــكنه وسط الرصف والحيل البيانية يكاد يفقـــد دلالته النفسية المتوارثة ،

ويكاد يحل كل لفظ محل اخيه ما دام مساويا له فى المعنى دون ما اهتمام بشحنته العاطفية .. وقد كان من سمات عبد الحميد الترادف ، ومعنى الترادف ببســـاطة أن الكلمة تخلى من كل شحناتها المتوارثة لتغدو قالب طوب يرص الى جوار غيره من القوالب ويساويها ليخرج بناء هندسيا جميلا فى شكله ، فقيرا الفقر كله فى الدلالات النفسية ..

واللغة العربية تـــكاد تقف وحدها فى كثرة ما فيهـــا من مترادفات ، والدراسات الادبية المحدثة تحاول أن تنفى هـــذه الظاهرة التى تقضى على قيمة اللغة الأدبية من حيث قيمتها فى الاستعمال فى الابانة عن نفسية قائلها وأحاسيسه ..

وسجع الكهان الذى عرف فى الجاهلية ضرب من الشعوذة اللفظية كما قلنا من قبل ، وهو ليس فنا وليس أدبا ، وانما هو عبث يعتمد على الجرس اللفظى . واحسب ان هذا هو السر فيمـــا تنقله الينا كتب السيرة والاخبار من أن النبى صـــلى الله عليه وسلم نهى عنه ، وان صحابته امتنعوا عنه بل ورفضوه رفضا قاطعا .. وليس هذا الا لأنه تزوير عقلى ، ولهـــد بلا دلالة حقيقية .. ولكن السجع يعود بصورة خطيرة فى العصور التالية ، وتعود معه قيود شكلية جديدة .. ونجـــد الدارسين القدماء والمعاصرين جميعا يقبلون كل هذا فى رضاء ، ويقيمون ابحاثهم على أساس دراسة المهارة الشكلية عند الكتاب ، بل ويرفعون بعضهم درجة ويخفضون غيرهم درجات بحسب مقدار

ما يظهر فى اعمالهم من مهارات حرفية .. بل يقــول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه السالف متسائلا « ولــكن هل وجدت الكتابة الفنية التى يعتمد فيها الكاتب على التحبير والتنميق ، وأن يذيعها فى الناس كما يذيع الموسيقار أو المصور أثره الفنى ؟ أما ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نلمح فيه أثرا من هذا الجهد الفنى الذى يريده الفنانون لآثارهم » .

واحسب أن هذه العبارة كافية للدلالة على ما نريد .. والدكتور شوقى يتبعها بعدة نصوص من كتابات النبى ليثبت أنها لا تعرف ما اسماه بالتنميق والتحبير .. وهذا فى حد ذاته دليل على ما نقول من ان هذا الجهد اللغوى لا ينبعث عن فطرة سليمة وقدرة حقيقية وانما هو وليد رغبة فى اظهار المهــارة العقلية وسعة الاطلاع اللغــوى مما لم يكن العرب — وأولهم النبى — فى حاجة الى اثباته ، انما الذين احتــاجوا اليــه هم الاغراب الذين دخلوا حياة العرب واستعملوا لغتهم ..

والكتاب النــابهون عند الدراسين تجــدهم جميعا كتابا رسميين يعملون فى الدواوين ويؤجرون على ما يكتبون ، بل ان ما يكتبون انما يلقى اليهم من الخليفة أو الوزير القاء ، وعليهم أن يصــوغوه مثل هــذه الصياغات التى اســماها الدارسون بالبلاغة .. وما كانوا يستطيعون أن يلوا مناصبهم ويصبحوا موظفينفالديوان الا اذا أظهروا تفننا وابتكارا (وبلاغة وبيانا)..

فهؤلاء اذن هم خالقو هذا اللون من الكتابة الذى شغل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دارسى النثر حتى صرفهم عن غيره .. والذى جعل من الصورة التى ينقلونها الينا للنثر العربى صورة شوهاء بلا دلالة انسانية ولا غناء فنى حقيقى ..

التـــــدوين

ولسنا حين نرفض هذه الصورة كلها مغالين أو متجنين بل نحن نسير مع منطق التـــاريخ والحضارة . فليس العرب كأمة وكشعب اقل من غيرهم من الامم والشعوب حاجة فى الابانة عن نفوسهم بلون من الوان الفن .. وخاصة اذا كان هذا الفن موجودا بالفعل عرفوه فى جاهليتهم وفى اسلامهم بصورة واضحة جلية وان أهملها الدارسون ..

فالدكتور شوقى ضيف يقرر فى موضع من كتابه أن الكتابة التاريخية قد فقد أكثرها الا ما بقى من روايات فى الطبرى وابن هشام وابن اسحق ، وان من يرجع الى هذه الكتابة يلاحظ أنها كانت بادئة وانها لم تتطور بالسرعة التى تطورت بهـــا الكتابة السياسية .. وهو يعنى أنها لم تنحرف كما انحرفت غيرها من صور الكتابة .. ويقرر الأستاذ أحمد أمين فى فجر الاسلام أن القصص قد نما فى العصر الأموى بسرعة لأنـــه يتفق مع ميول العامة .. والعامة هنا تعنى بطبيعة الحال غير الملوك والوزراء وكتاب الدواوين ، أى كل الناس ..

* * *

فى نفس العصر الذى ظهرت فيه الكتابة الديوانية وتطورت الى ان تصل الى صورتها المتكاملة عند عبدالحميد واستاذه سالم نجد حركة أخرى قد سبقتها الى الظهور ، تلك هى حركة التاليف القصصى الروائى أو اذا ما أسميناها بالاسم الذى عرفت به فهى حركة التـــدوين التاريخى . ولو أن حركة التدوين قد اشتدت فى العصر العبـــاسى الا أن بدايات لهـــا قد ظهرت فى العصر الاموى . فابن النديم فى الفهرست يذكر أن زياد بن أبيه المتوفى عام ٥٣ هـ قد الف كتابا فى مثـــالب العرب ، وذكر المؤرخون كتابا لدغفل النسابة البكرى المتوفى فى عام ٦٠ هـ اسمه التظافر والتناصر ، كما يذكر ابن سعد فى طبقاته أن عبد الله بن عباس المتوفى عام ٦٨ هـ كانت له مدونات كثيرة تظهر لنا صورة منها فى الكتب المتاخرة ككتاب التيجان لوهب بن منبه الذى ينقل عنه روايات حول ذى القرنين .. ولعبيد بن شرية الجرهمى المتوفى عام ٧٠ هـ تقريبا كتاب فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها .. يقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه « نشأة التدوين التاريخى عند العرب » « هو ملحمة من اجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين ويلعب فيها الخيال دورا كبيرا ؛ ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية ـــ اى المعتنى بها ـــ والقصص الاسرائيلية المأخوذة من التوراة واخبار الاسرائيليين ؛ ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الاسلامية المتاخرة من امثال عنترة والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهمة . ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها ، وفصاحته العربية . ولعلنا لا نشتط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية التى تتناول تاريخ الفرس منذ اقدم العصور حتى الفتح الاسلامى ، ويؤسفنا كل الاسف ضياع الجزء الاخير منها » .

فاذا ما تقدمنا قليلا الى عصر عبدالحميد وسالم وجدنا من اصحاب المؤلفات أبان بن عثمان المتوفى عام ١٠٥ هـ مؤلفا فى المغازى ، وعروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ مؤلفا فى التاريخ، ووهب بن منبه المتوفى عام ١١٠ هـ مؤلفا فى سير ملوك اليمن ، ويقول عنه الدكتور حسين نصار فى كتابه السالف الذكر « ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض فهما يطلقان لخيالهما العنان فىتصوير الوقائع. ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها الى حد الخيال والاسطورة . كما يدخلان فى تاريخها الكثير من الحوادث التى لا أصل لها ولذلك يصدق عليهما اسم القصصى التاريخى اكثر من أى نعت آخر . ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية » .

الذوق العربى

هذه الحركة لم تظهر فجاة ولا نتيجة لحاجة الدولة الرسمية وانما هى بلا شك استمرار لحركة سبقتها فى الجاهلية عنيت بالقصص وحكايات التاريخ والأبطال وحفلت بالموروثمنالأساطير العديدة واستمرت أثناء الاسلام ، ثم احتاجها المسلمون حين اتسعت رقعة الدولة وتشابكت صور الحياة وتعقدت ودخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حياتهم انباء أجناس اخرى يحملون ثروات أخرى ضخمة من التراث القصصى واحتاجها المسلمون لتثبيت المعانى الدينية وتدوين أحداث الرسالة وسيرة الرسول ولتفسير اشارات القرآن الكريم الى احداث التاريخ فيما اورد من قصص ..

ويروى المسعودى عن معاوية انه « كان يستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وايامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والآثار وانواع السياسات » .

وهذا النص نريد ان نخرج منه بنتيجتين : الاولى ان الذوق العربى كان يميل الى هذا اللون من الانتاج ، اعنى القصص .. ومعاوية بعد عربى يمثل الذوق العربى الاصيل الذى كان يعنى عناية كبيرة بأحاديث من مضى .. وكتاب دغفل النسابة عبارة عن مجالس واسمار دارت فى بلاط الخليفة معاوية ... اما كتاب اخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية فيقول عن معاوية «وكانت افضل لذاته فى آخر عمره المسامرة واحاديث من مضى ، فقال له عمرو بن العاص لو بعثت الى الجرهمى الذى بالرقة من بقايا من مضى فانه ادرك ملوك الجاهلية وهو اعلم من بقى اليوم

فى حديث العرب وانسابها ، وأوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر . فبعث اليه معاوية فأتى فى محمل بعد أيام كثيرة وشدة شوق من معاوية اليه ، فدخل عليه شيخ كبير السن صحيح البدن ثابت العقل منتبه ذرب اللسان كأنه الجذع فسلم على معاوية بالخلافة فرحب به معاوية وقال له انى أردت اتخاذك مؤدبا لى وسميرا ومقوما ، وانا باعث الى اهلك وانقلهم الى جوارى وكن لى سميرا فى ليلى ووزيرا فى أمرى » .

ثم يمضى الكتاب يذكر أن الليالى مرت على معاوية وعبيد فى سمر متصل ، وعبيد يروى واهل ديوان معاوية وكتابه يدونون ومعاوية نفسه يسأل ويستزيد ويناقش ..

ومن قبل ذكرت لك أمر تميم الدارى الذى قص فى مسجد الرسول فى خلافة عمر وخلافة عثمان وهو الذى ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال .. ويروون عن على بن ابى طالب أنه طرد القصاص من المسجد باستثناء الحسن البصرى ..

وفى كتاب القضاة للكندى أن كثيرا من القضاة كانوا يعينون قصاصا الى جوار عملهم الاصلى ، فيقول ان أول من قص بمصر سليم بن عتر التجيبى فى سنة ٣٨ هـ وجمع له القضاء الى القصص ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص .. ومفهوم أن القصاص هنا يجمعون بين رواية الحكايات المأثورة وبين الوعظ الدينى .

والذى أريد أن أخرج به من هذا كله أن الذوق العربى كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يميل الى هذا اللون من الانتاج ويقبل عليه اقبـــالا شديدا دعا معـــاوية الى تعيين قاص بالمسجد يقص على الناس ما اسماه المقريزى فى خططه بقصص الخاصة تفرقة منه بينه وبين قصص العامة التى كان يجتمع فيها النفر من الناس حول قاص يسمعون اليـــه ..

ووجود هذا اللون من النثر فى عصور الاسلام ا لمبـــكرة ، واعتراف الخلفاء الراشدين به ، وسماحهم بتداوله فى مسجد رسول الله ، الى جوار ما نراه من تذوق معاوية له تذوقا يدفعه الى استقدام القصاص وتدوين ما يقولون واضاعة اكثر الليـــل فى الاستماع اليهم ، كل هذا يدل على أن القصة كانت شيئا فى طبيعة العربى منذ قديم لم يجد ولاة أمره بعد الاسلام الا الاعتراف به واقراره ، ثم العمل علىتوجيهه بما يخدم دعوة الدينالجديد ، او الدعاوى السياسية المختلفة كما سنرى فيما بعد ..

والنتيجة الثانية التى نريد أن نخرج بها من نص المسعودى عن معاوية أن نشأة التدوين لم تتأخر حتى العصر العباسى ، بل نحن نرى معـــاوية فى مطلع العصر الاموى يقرأ له غلمانه دفاتر فيها سير الملوك واخبارها ، كما نرى فى كتـــاب عبيد أن معاوية كان يأمر اهل ديوانه بتدوين ما يقول .. وهذه الدفاتر لم تكن بدعا فى هـــذا العصر فلا شك انه كان قبل الاسلام تدوين . وقد جاء فى سيرة بن هشام أن سويد بن صامت قدم مكة حاجا أو معتمرا ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده

وشرفه ونسبه .. فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك به ، قال : « مجلة لقمان .. » اى الصحيفة التى فيها حكم لقمان ..

وكان الرسول عليه السلام يتخذ منصحابته كتبه للوحى.. ويروى ابن النديم فى الفهرست انه كان بمدينة (الحديثة) رجل يقال له محمد بن الحسين جماعة للكتب .. « له خزانة لم ار لاحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية والكتب القديمة»، ويمضى ابنالنديم يذكر انه راى كتب هذا الرجل فراى فيها مصحفا بخط خالد بن ابى الهياج صاحب على كما راى فيها بخط الامامين الحسن والحسين ..

فالتدوين اذن لم يتاخر كل هذا التاخير الذى حسب مؤرخو النثر وانما هو معروف قبل الاسلام ، وعما دون قبل الاسلام من اخبار وقصص نقل القاصون بعد هذا ، بل ونقل المؤرخون والرواة الى من دونوا .. ويروى ابن خلكان والزبيدى فىطبقاته وكذا الجاحظ فى البيان والتبيين « ان ابا عمرو بن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ، ثم انه تقرأ اى تنسك فاخرجها او احرقها كلها ، فلما رجع الى علمه الاول لم يكن عندهالا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة اخباره عن اعراب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد ادركوا الجاهلية » .. ويقول ابن هشام فى الجزء الثانى من السيرة: «وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبا عندهم. فكلما مات رئيس عندهم فأفضت الرياسة الى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتما مع الخواتم التى كانت قبله ولم يكسرها » .

والذى نريد ان نقوله أن التدوين لم يكن بدعة تحتاج الى دخول الفرس الى الاسلام ليتعلمها العرب ، وانما هم قد عرفوها قبل ان يدخل الفرس الاسلام،بل قبل أن يعرف العرب الاسلام. الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ،ولن يكون
الذى جاءنا شاهدا على وجود ما حفظه من الزوال ولن يكون
هذا الذى حفظه الا الكتابة . بل لعلنا نكتفى بقسم القرآن الكريم (ن . والقلم وما يسطرون) لنريح ونستريح ..

والاغانى يروى لنا صورة جميلة عن العصر الاموى اذ يذكر أن عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى — وهو اموى — قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادا فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به ..

والى هذا الحد من انتشار الكتب والكتابة بلغ الامر ، فهذه صورة لناد عماده الكتب والقراءة ، ولعله اقرب الى المكتبة العامة منه الى النادى بشكله الذى نعرفه ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأستاذ أحمد أمين يذهب فى فجر الاسلام هذا المذهب الذى نذهبه ، فيقرر أن العرب عرفوا التدوين من العصر الاموى أو قبله بكثير ..

والحاحنـــا على هذه النقطة بالذات له سببه ، فأنت ترى معى أن النقاد التفتوا الى النثر الذى عنى بالشكل والزخرفة واخذوا يدرســـونه ويؤرخون لكاتبيه ، بينما هم اهملوا اهمالا كتابا آخرين ونثرا آخر يعاصر هذا النثر الذى نقلوه بل يسبقه بكثير ، أعنى القصص المدونة والمنقولة عن الرواة فى كتب التاريخ والأخبار والطبقات .. وقد حاول الدارسون أن يبرروا هـــذا السلوك بادعاء ان هذا الذى جاءنا منه انما روى بالمعنى لعدم معرفة العرب بالقراءة والتدوين ولهذا فهم يرفضونه . وقد رددنا على هذا بأن اثبتنا بما لا يدع مجالا للشك أن العرب لم يعرفوا الكتابة والتدوين وحسب ، وانما هم قد دونوا بالفعل ومنذ زمن مبكر جدا أساطير وقصص الامم السالفة واخبار ملوك العرب وشعرائهم .. واكثر من هذا أنهم حافظوا على هـــذا التراث واحلوه المحل الاول من اعتبارهم قبل أن تنشأ دواوين الرسائل واصحابها من ذوى الصنعة الشكلية ..

بل أريد أن أذهب الى أكثر من هـــذا فأقرر أن القصص هى التى حفظت لنا الشعر الجاهلى بصوره المتعددة . ونظرة الى كتاب عبيد بن شرية فى أخبار ملوك اليمن ترينا أن معاوية كان لا يرضى من عبيد قصة الا وهى محلاة بالشعر .. فيذكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبيد قصته ويذكر على لسان أبطالها الشعر الذى قالوه ، فاذا اغفل عبيد أمر الشعر اسرع معاوية يقول له « سألتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد الا ذكرته » وكأنما القصة لا تصح عنده الا بالشعر يرد على السنة من يدور عنهم الحديث فيقول له « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ، ولو ثلاثة أبيات » ونفس ما نجده عند عبيد نجده عند وهب بن منبه الذى يذكر لك كل قصة مشفوعة بأبيات حتى ولو كان يتحدث عن آدم فهو يورد على لسانه شعرا ! .

وبعض هذا الشعر كما لاحظ الدكتور حسين نصار بحق شعر موضوع على من نسب اليهم لارضاء السامعين ، وكجزء من منهج تأليف القصص عند العرب . والثانى شعر جاء على السنة شعراء حقيقيين قد تجده فى دواوينهم.. والواقع ان ظاهرة ورود الشعر على السنة أبطال هذه الروايات التاريخية انما تؤكد انها وضعت للقصص وليست للتاريخ .. فهذا المنهج نجده واضحا بعد ذلك فى الف ليلة وليلة وسيرة عنترة وسيف بن ذى يزن وغيرها . ففى هذه القصص لا يستقيم موقف له قيمته من مواقفها الا ويروى فيه شىء من الشعر ، بل وتلتزم بعض السير كسيرة سيف بن ذى يزن بنظم الأحداث شعرا بعد كل مرحلة من مراحل السيرة المروية نثرا .. وقد دعت هذه الظاهرة الدكتور طه حسين فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) الى الشك فى كل ما جاء بالكتب التى اعتمدت على هذه المصادر الاولى من شعر .. والذى نحب أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نؤكده ان أصحاب هذه الكتب كانوا لا يؤرخون تأريخا حقيقيا : وانما هم كانوا يقدمون قصصا فنيا يقصد منه الامتاع الفنى لا الحقيقة العلميةالخالصة فحلوه بالشعركلما وجدوه،والا وضعوا الشعر ان أعجزهم ما جاء على السنة العرب . فهم ان وجدوا شعرا ذكروه ، وبهذا حققوا دون قصد حفظ صور من الشعر الجاهلى . والامر كان يحتاج بعد الى شىء من التحقيق حول ما أوردوه لاخراج ما الفوا ووضعوا ، واستخراج الشعر العربى الحقيقى مما ذكروه ..

واكاد ازعم لك بعد هذا كله ان هذه الكتب وهذه الروايات المنتشرة فى الكتب هى أقرب الاشياء الى صورة النثر الجاهلى ونثر صدر الاسلام ، من كل ما أوردوا من خطب وسجع ورسائل . . فنحن نفهم أن النثر الفنى هو أداة التعبير عن الحياة ، هو اداة ترجمة مشاعر الامة واحلامها وامانيها .. ولا يهمنا فى بحثنا هذا ما دمنا نقيمه على هذا الاساس ، توفر الصنعة الفنية أو عدم توفرها .. ولن نفعل كأصحابنا هؤلاء الذين اخذوا من هذه الاعمال ما فيها من شعر فدرسوه ، واستخرجوا ما جاء بها من خطب وسجع وأمثال فحفظوه ، وراحوا يستنبطون منه صورا زائفة للنثر ، وهم قد تركوا العمل الاصلى نفسه دون دراسة أو بحث ..

والواقع أن دراستنا لهذا اللون من النثر ينبغى أن تبدأ عند هذه الكتب التى دونت فى صدر الدولة الاسلامية فهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلا شك صورة للنثر الجاهلى أو هى امتداد طبيعى له .. وهذه الكتب تعتمد كلها على القصة بل هى تقوم أصلا على انها رواية احداث وسير واخبار ، فلسنا مبالغين اذن ان قلنا ان الفن النثرى الجاهلى الاول كان هو القصة والرواية .. أما ما عدا هذا من صور كالخطابة والسجع فلا تعـــدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة ، ودرسها أقرب الى درس اللغة منه الى درس الادب .. والدارسون القدماء حين اعتمدوا على الخطابة فى درس النثر انما كانوا يتناقضون مع أنفسهم ومع دراساتهم كل التناقض . فالخطابة عمل سياسى والرسائل بعد هذا عمل حكومى ديوانى ، وليس من الادب فى شىء كتابة لا تعبر عن نفس صاحبها او نفس الامة التى ينتسب اليهـــا . والخطابة والكتابة الديوانية أعمال وليست فنـــا ، أو بتعبير أدق حرفة وصناعة قد تدل على المهارة والحذق ، وقد نلمح فيهـــا الذكاء والابتكار ولكننا لن نكتشف منهـــا جوهر صاحبها وقلبه وعقله جميعا .. وانما هـــذه الامور لا يكشفها الا النثر الطليق الذى خرج من ضمير الشعب ليعبر عنه ، والذى عاش فى وجدان كاتبه احلاما وخيالات واساطير ، ليخرج الى الناس صورة ممتعة لما يحسون ، واستجابة طبيعية لموقفهم من الحياة والمجتمع والكون جميعـــا ..

وليس من عذر بعـــد هذا يقف دون دراسة هذا التراث القصصى الذى تبقى لنا فى هذه الكتب ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ٢ —

مراحل دراسة الرواية العربية

الواقع أننا نستطيع أن نقسم دراسة الرواية العربية الى عدة مراحل ، فهى تبدأ أولا بمرحلة كتب الاخبار التى ظهرت فى العصر الاموى واستمرت الى العصر العباسى .. وهذه تدل على خصائصها وتبين ملامحها كتب وهب بن منبه وعبيد بن شرية من خلال ابن هشام. وتأتى بعد هذا مرحلة التأليف المعاصر فى أواخر العصر الاموى واوائل العصر العباسى فى مثل كليلة ودمنة وسيرة ابن اسحاق التى يقدمها للادب العربى ابن هشام . ثم يظهر القصص الشعبى المجمع فى أمثال كتاب الف ليلة وليلة . ونلمح آخر الأمر صورة من الرواية العربية فى سيرة عنترة ، وذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، وحمزه البهلوان . ولعلنا نستطيع فى بحثنا هذا أن نتنـاول المرحلة الاولى كشاهد للقضية التى قدمناها .. على أن نحاول ان كان فى الجهد متسع أن نقدم دراسة فى المرحلتين التاليتين .

* * *

والسؤال الذى يجابهنا فى بحث المرحلة الاولى وهى مرحلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدء التـــدوين ، أو مرحلة التجميع كما يجب أن نسميها هو ، هل تستحق هذه المرحلة عناء الدرس والبحث ؟ والاجابة على هذا السؤال لا تتضح الا بعـــد الاطلاع على ما جاء فى هذه الكتب ..

ان الصورة التى ينقلها وهب بن منبه وعبيد بن شرية صور خالدةبمعنى الخلود الكامل ، صور انسانية صادقة تعبر بحق عن حيرة الانسان وقلقه وترسم فى وضوح صراعه مع القدر وصراعه مع الطبيعة وصراعه مع الحياة .. بل هى فى كثير من فصولها ترسم صورا للصراع ضد الغرائز ومحاولة التغلب عليها ، كما هى بعد هذا تنقل لنا صورة حقيقية لطبيعة الحياة العربية هى بلا شك اكثر صـــدقا وابانة من الصورة التى ينقلها الشـــعر أو تنقلها الخطابة وما شابهها .. ولسنا نريد أن نختم كلامنـــا هنا دون أن نشير الى ما نحسه من أسف اذ نلمح هذا العمر الطويل الذى مضى على ابحاثنا المعاصرة وهى تلوك حديثا حول السجع والترسل والترادف واشباه هذا العبث دون أن نلتفت الى هذه القيم الفنية الحقيقية التى يزخر بها تراثنا الادبى النثرى والمتمثل فى هذا التراث القصصى الضخم المتفرق فى كتب الاخبار والادب حينا ، والموجود بشكل مستقل فى كتب القصص والليالى والسير ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حركة التجميع القصصى

يقول السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان فى حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن :

« وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والامم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الاشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص » .

فحركة التاريخ والقصص كانت واحدة من الحركات الفنية والعلمية التى نبعت كضرورة حتمية لمحاولة فهم القرآن وشرح آياته والتعرف على احكامه .. ولهذا لم يكن غريبا أن تبدأ هذه الحركة منذ عصر الخلفاء الراشدين ، ويلاحظ الاستاذ أحمدأمين فى فجر الاسلام ان ما عرف فى صدر الاسلام من أخبار الامم الماضية والاجيال الغابرة كان الاساس الذى بنيت عليه المؤلفات التى ألفت بعد هذا . ككتب ابن اسحق وابن جرير الطبرى وامثالهما ..

ويقول : « ويدل على ذلك انك لو تتبعت فى ابن جرير الطبرى — مثلا — سلسلة رواته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الاربعة الذين يتصلون بحياته كانوا فى العصر العباسى ، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا فى عهد الامويين أو الخلفاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الراشدين ، اعنى بذلك ان هذه الحوادث كانت معروفة فى ذلك العصر ، وابن اسحق وامثاله انما دونوا ما كان معروفا وجمعوه » .

فحركة التجميع اذن لم تتأخر الى عصر التدوين فى أيام العباسيين ، وانما بدأ التجميع منذ الخلفاء الراشدين ، ونحن نزعم لبدئه اسبابا هى :

١ ـ الحاجة الى تفهم سور القرآن والتعرف على دلالات ما تحكى من قصص ، فكان لابد اذن من رواية هذه القصص بتفاصيلها ووقائعها . والذين يعرفون ما يتعلق بهذه القصص هم اصحاب العلم من اهل الكتاب من يهود ومسيحيين ، وهم اهل الاخبار الذين يحملون الاقاصيص عن الملوك الغابرين .. وقد تتبع الاستاذ احمد امين فى تفسير ابن جرير تفسير الآيات التى وردت عن اليهود فاذ بها تروى عن وهب بن منبه وهو من يهود اليمن واسلم ، كما تتبع فى الطبرى تفسير ما جاء عن النصارى فاذ به يروى عن ابن جريج وهو رومى من اصل نصرانى ..

فالمسلمون اذن لجأوا الى من يعرفون ليقصوا عليهم ماتعلق بأنباء أهل الكتاب الذين حكى عنهم القرآن .. وقد راعى هؤلاء فى رواياتهم ان لا تختلف فى شىء عما جاء بالقرآن .. واذا تتبعت كتاب التيجان لوهب بن منبه تلمح هذه الظاهرة جلية واضحة ، فهو اذا تعرض لذكر قصة مما كان بالقرآن تجده يستند الى آيات

القرآن فيذكرها فى خلال روايته للقصة ، بل تبدو قصته فى أحيان كثيرة وكأنما هى تفسير قصصى للآيات التى يذكرها ..

وخلال هذا التفسير يحكى التفاصيل ويورد الأسماء والوقائع مفصلا كل شىء ، بل ومجريا الحوار بين أبطال القصة .. وسواء حورهؤلاء القصاصون ما كانوا يعرفون ليلائم ما جاء بالقرآن ، أو أعملوا خيالهم وما لديهم من معلومات مستمدة مما حفظوا من أخبار وقرأوا من كتب ليقدموا التفسير القصصى الروائى ، فقد أدى عملهم هذا على أية حال الى تجميع أكبر عدد ممكن من القصص التى عرفها العرب سواء من تراثهم أو من أصحاب الكتاب ..

٢ ـ يذهب ابن خلدون فى مقدمته الى « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم » وانما غلبت عليهم البداوة والامية ، واذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخلقية وأسرار الوجود ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم » ..

والذى نريد أن نذهب اليه هو أن هذا التطلع الى المعرفة لم يأت بعد الاسلام ، وانما هو بدأ عند العرب قبل الاسلام بكثير وانهم عرفوا عن طريق هذه الرغبة الملحة فى المعرفة الكثير من الاساطير والحكايات تناقلوها واستمعوا اليها قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام استمروا فى شغفهم هذا بالقصص

والاساطير وقد وجدوا فى قصص القرآن ما يسد حاجتهم الى الكثير من المعرفة ، وما يجعلهم يستزيدون من هذه القصص ..

والعرب فى تطلعهم هذا انما كانوا يستمدون معارفهم لا من أهل الكتاب وحسب وانما من العارفين بحكايات الجزيرة العربية وأمثالها ومن الملمين بأيام العرب وحروبهم .. ونزعم أن هذه الرغبـــة فى المعرفة هى التى فرضت الذوق العربى على طريقة سرد القصة ، وهى تعتمد اعتمادا كبيرا علىتدوين القصة محملة بالشعر ونماذج الخطابة .

٣ ـــ وهناك دافع نفسى لا يقل خطرا واهمية عنالدافعين السابقين ، ذلك ان جزيرة العرب كانت لها فى هذه الاساطير التى عرفتها منذ جاهليتها ، أبطالها ومثلها . وجاء الاسلام بأحداث خطيرة أسهم فيهـــا كل المسلمين من عرب وغير عرب ، ومن الطبيعى أن تتطلع النفوس الى خلق القصص والاساطير حول الابطال الجدد كما كانت تخلقها وتحكيها عن الابطال القدامى ..

ومن هنا كان الاهتمام بأخبار الغزوات والمعارك، فنجد أن أوائل الكتب التى نعرفها عن صدر الاسلام كتب المغازى،وأول من اشتهر فى تاليف المغازى أبان بن عثمان بن عفان.. وتتناول رسائل عروة بن الزبير وقائع كثيرة وهامة فى تاريخ صدرالاسلام كهجرة الحبشة وموقعـــة بدر وفتح مكة .. ومن الواضح أن هدف القاصين هنا كان يسير مع نفس أهداف القاصين من قبل، فما كان التاريخ الا وسيلة لسرد الاحداث الروائية والقصصية

التى تحمل المثل وتخلق الابطال .. وقد روى أن وهب بن منبه الف كتابا فى المغازى وما أحسبك تتخيل انه قد غير منهجه الذى اتبعه فى ذكر ملوك حمير فيه ، ففهمه كقصاص لأحداث المغازى لن يختلف فى شىء عن فهمه لأحداث التاريخ .

٤ ــ دخل الاسلام كثير من أبنـاء الشـعوب الاخرى ، ولهؤلاء أساطيرهم وقصصهم ، بل لهؤلاء تاريخهم وأبطالهم ، ومن الطبيعى أن يدخل هؤلاء الوافدون تاريخهم وأساطيرهم وقصصهم الى الحياة الجديدة التى دخلوها .. والتاريخ والأساطير والقصص هى أول الوان المعارف تداولا ثم تأتى بعـد هذا مرحلة ترجمة العلوم ونقل الفلسفات ..

٥ ــ اتخذ القصص أداة من أدوات النضال بين الشيع والاحزاب ، أى استغل استغلالا سياسيا للترويج للاشخاص والمبادىء ، وقد روى عن يزيد بن حبيب أن عليا رضى الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب يدعو له ولاهل الشام .. وقد جاء فى المقريزى عن الليث بن سعد أن معاوية ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى صلى الله عليـه وسلم ، ودعا للخليفة ولاهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة ..

فالتنافس والخصومة القائمة بين على وأبى بكر ثم بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على معاوية،وبين عبدالله بن الزبير وعبد الملك، ثم بين الأمويين والعباسيين ، كانت لا شك حافزا ضخما يخوض فيه القصاصون يرفعون شأن من يوالونهم ويخفضون من قيمة من يعادون .. وقد دخلت هذه العداوة فى وضع الحديث فيقول ابن ابى الحديد فى شرح نهج البلاغة « واعلم أن اصل الكذب فى حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فانهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة فى صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم » ، والذى حدث فى الحديث وهو ما هو عليه من الخطورة والاهمية ؛ لا شك انه حدث فى القصص على صورة أوسع وارحب ..

بل ان ما عرف عن العرب من تنازع الرياسة والفخر والشرف كان ولا شك أحد أسباب رواج القصص التى تزعم الفضل لقبيلة وتذل لها أعناق باقى القبائل . وحين يتقدم العصر سنجد فى سيرة عنترة بن شداد حديثا عن بنى عبس يضعهم فوق العرب أجمعين .. وحين تتتبع وهب بن منبه فى كتابه التيجان ستحس ما يحاول أن يثبته اثباتا من فضل اليمنيين على غيرهم ، بل ومن تنبؤهم بالرسالة والرسول ، وايمان ملوكهم الاقدمين بمحمد ورسالته ..

واضيف الى هذا كله ذلك الصراع بين العرب والعجم والروم ، ومن تعصب كل الى جنسه وطائفته ، وما سجلته القصص العربية من صراع مرير بين العرب وغيرهم ، وما قررته

من تفضيل للعرب وسيادة لهم على كل جنس .. ومن هنا كانت العناية بكتب الانساب والايام . وقد روى ابن النديم فى الفهرست ان زياد بن أبيه ألف كتابا فى مثالب العرب ، ويذهب الدكتور حسين نصار فى كتابه (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) الى انه كتاب فى الأنساب ألفه زياد بعد استلحاق معاوية اياه وتعيير الناس له ، فأراد أن يزود نفسه بسلاح يخيف به المتعرضين له. ويرجع الدكتور حسين نصار أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين اخذت عنه .. وكتاب عبيد بن شرية الذى جمعت فيه اسماره مع معاوية اسمه : أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن واشعارها وانسابها ..

٦ ــ وهناك سبب أخير لعله كان من أسباب الوضع والتأليف لا فى القصص وحسب وانما فى الحديث كذلك ، ذلك هو حاجة المسلمين فى تفسير آيات القرآن الى معرفة أسباب نزولها ومكان نزولها ، والحادثة التى تشير اليها .. كما أنه من المعروف أن النبى (ص) قد اقر الكثير من الأحكام الاجتماعية التى كان العرب يعرفونها ، كما انكر الكثير منها وعدل بعضها . فاحتاج المفسرون بلا شك الى معرفة كل ما يمكن أن يعرفوه عن عصر النبى (ص) وسيرته ، كما احتاجوا الى ما يمكن أن يفسر لهم الكثير من الأحكام من حكايات العرب قبل الاسلام وتقاليدهم وحياتهم وعاداتهم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد أورد السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان قول الامام احمد بن حنبل ، « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » .

والامام احمد يعنى انهـا اقرب الى القصص منهـا الى الحقائق التاريخية المتواضع على صحتها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنواع القصاص

هذه اذن هى الأسباب التى خلقت حركة التجميع خلقا ، ناهيك بطبيعة العربى التى تحب هـذا اللون من الفن والتى تستريح اليه وتفضله .. وهى التى دفعت معاوية الى تعيين القصاص الرسميين يقصون على الناس فى المساجد ، بل هى التى جعلتنا نشهد تميما الدارى يقص فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم منذ أيام عمر ..

والصورة العـامة التى نلمحها من كتب الأدب عن هـذا العصر هى صورة متشابكة ، فهناك قصاص رسميون يقعدون الى الناس فى المساجد ، وهناك حلقات غير رسمية أسماها المقريزى فى خططه نقلا عن الليث بن سعد بقصص العامة ، وحكم عليها بأنها مكروهة لمن فعلها أو استمع الى ما فيها من قصص .. وهناك قصص فى بلاط الخلفية نفسه كتلك الصورة التى ينقلها الينا كتاب عبيد بن شرية من مجالس معاوية . بل ان كتاب المعمرين للسجستانى ينقل لنا أكثر من صورة لمجالس معاوية التى تروى فيها القصص والروايات .. وهناك فى كل مدينة اسلامية قصاصون، فيروى الجاحظ فى البيان والتبيين أن جعفر بن الحسن كان أول من قص فى مسـجد البصرة ، وفى

المدينة كان من كبار القصاص مسلم بن جندب الهذلى وكان قاص مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ..

والواقع أن هذه الصورة تحتاج الى جلاء ، ونستطيع أن نقسم القاصين الى أنواع ثلاثة مع تداخل بين هذه الأنواع يجعل الفصل اعتباريا لا حقيقيا :

١ ـ فهناك القصاصون الكبار ، من أمثال عبيد بن شرية ووهب بن منبه ممن كان يأخذ عنهم غيرهم ، وممن ذكروا تاريخهم وقصصهم منذ بدء الخليقة وتتبعوا أخبار الملوك وتاريخ العرب وأساطيرهم ، ويعد هؤلاء فى الواقع مركز حركة التجميع القصصى وفى أعمالهم اشارات الى أساطير خالدة سنعرض لها لبيان أهميتها فى عالم القصة ودلالات ما تحكيه على حضارة وعراقة ، وعلى دوافع انسانية لا تتأخر بالاسطورة العربية والقصة العربية عن مثيلاتها فى الآداب العالمية .. وعن هؤلاء اخذ كتاب الرواية المتأخرون ، كما أخذت الكثير من القصص الشعبية والملاحم ..

٢ ـ وهناك هؤلاء القصاصون غير الرسميين وما أحسبهم الا مؤلفين للكثير من الحكايات ، يتطوعون تطوعا بتأليفها من خيالهم دون أصول من علم قديم ليتمكنوا من نفوس العامة المجتمعة حولهم ، وربما كان هذا سر النهى عن الاتصال بهم والتنفير من عملهم كما فعل الغزالى فى كتابه الاحياء فقد عد عملهم من المنكرات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ـ النوع الثالث هم القصاصون الرسميون من أمثال الحسن البصرى ، الا أن اطلاق كلمة قاص على هذا الفريق فيه الكثير من التجوز فما أحسبهم اكثر من وعاظ يعتمدون على التذكير بالآخرة والترهيب من النار .. ومن قصص الحسن البصرى التى تراها كثيرا فى كتب الادب قوله مثلا: «يا ابن آدم لم تكن فكونت وسالت فأعطيت ، وسئلت فمنعت . فبئس ما صنعت ! » وهذا كما ترى اقرب الى الوعظ والارشاد منه الى القصص .. ولعل منه ما كان يفعله تميم الدارى وواصل ابن عطاء وغيرهما .. وقد أسمى الدكتور شوقى ضيف هذا القصص بحق الخطابة الدينية ، وهكذا أخرجها من هذا الميدان القصصى ، والدكتور شوقى محق فى هذا فان الوعظ وان استعان بالقصص ، الا انه ليس عملا قصصيا فى حد ذاته ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب التيجان

نحن لن نركز اهتمامنا فى عصر التجميع هذا الا على قصاص النوع الاول ، أعنى هؤلاء الذين جمعوا فى قصصهم كل ما وقفوا عليه من حكايات العرب وأخبار ملوكهم والأساطير التى تحكى عن أبطالهم ، فهؤلاء يمثلون بحق بداية عصر القصة العربية فى ظل الاسلام ، والامتداد الطبيعى للقصة العربية فى الجاهلية ، ونظرة الى ما رووا تحدد لنا بالفعل قيمة القصص الجاهلى وأهميته .. وسأبدأ الحديث عن كتاب وهب بن منبه (التيجان فى ملوك حمير) وقد رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام ، عن اسد بن موسى عن أبى ادريس بن سنان عن جده لامه وهب ابن منبه . فالكتاب لم يكتبه وهب اذن وانما رواه عنه ابن هشام ؛ وقد أدى هذا الى تدخل ابن هشام فى اثناء التدوين لبضيف من الأحداث المتاخرة ما يعد استطرادا لحكايات وهب عن الأحداث المتقدمة ، الا أن دراسة الكتاب لم يأت وقتها بعد؛ وانما أنا أريد أولا أن أعرض لك صورا مما فى الكتاب من قصص وأساطير تحولت الى أعمال قصصية ، ثم نعود معا لندرس الكتاب وطريقة تأليفه ومنهج الرواية فيه ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مضاض ومى

الحارث بن مضـــاض الجرهمى أسطورة عاشت ثلاثمئة عام ، مائة منها ملكا على مكة وباقى عمره تائها ضائعا يجول هنا وهناك بلا هدف فيما يشبه أسطورة اليهودى التـــائه . ولن أحدثك عنه هنا وانما انا أريد أن أحدثك عن قصة حكاها هو لأياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وحكاها أياد ليقص قصة الثروة التى جاءت اليه .. والقصة طويلة تبدأ حين يلتقى أياد بالجرهمى التائه ويظلان فى جولاتهم ، والجرهمى يقص له قصة كل مكان يصلان اليه ويحكى له حكايته ولماذا سمى بما يحمل من اسم .. وهو فى خلال هذا يورد مجموعة من أجمل الأساطير وارقها واكثرها شاعرية وجمالا ، بل ومن اكثرها دلالة على عقلية الشعب العربى وفهمه للحياة والمثل والسلوك .. الى أن يصلا فى رحلتهما الى مكان اسمه موطن الموت ، وهنا يسأل الجرهمى صاحبه أيدرى سر تسمية هذا الموضع بموطن الموت فيقول صاحبه : لا .. فيبدأ الجرهمى حكاية جديدة أحب أن أوردها لك محتفظا بلغة راويها وهب بن منبه مختصرا منهــا بعض الشىء ، وهى بعد فى صفحة ١٨٨ من طبعة حيدر أباد لكتاب التيجان ..



قال الجرهمى : نعم يا بنى انه لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك ، لم يكن بمكة ولا ما والاها اجمل منه .. وكان من بنات عمه من بيت الملك جارية تسمى (ميا) بنت مهليل بن عامر ، وكانت معه فى نسق واحد ، وكانت أجمـل من راته العيون .. ففتن بها وفتنت به ، وشب معها وشبت معه فى حى واحد ، وصان مئزره عنها .. فلما بلغ بهما الهوى مبلغه وحذرا من الفضيحة أو السقم أو الموت بعثا الى فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما الى بعض ، فأرسلت الى مهليل واعلمته ما كان منهما .. فقال لى : ايها الملك انت وليهما افعل بهما برأيك وزوجها منه ..

قال الجرهمى: وقد هجم علينا الشهر الاصم (رجب) وكنا لا نحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ ، قلت له يا مهليل : ينصرف رجب وافعل ..

واعتمر مضاض وطاف . وبلغ ذلك (ميا) فأقبلت تعتمر وتطوف متنكرة غيرة على مضاض ، ومضاض لا يعلم بمكانها .. وكان قبيس بن سراج من رهط حقير فى جرهم قد راى (ميا) فهويها وهى لا تعلم ، ومضاض لا يعلم ، وكان قبيس يراعى احوال مى ، فلما بلغه انها اعتمرت خرج الى الطواف ليقضى لبانته من النظر اليها .. فكانت مى تطوف وتراعى احوال مضاض ومضاض لا يعلم بذلك ، وكان قبيس يطوف فى اثر مى ومى لا تعلم بذلك ..

وكانت رقية بنت البهلول الجرهمى تطوف واليوم قائظ ، فعطشت عطشا خافت منه على نفسها الموت ، واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم .. فلما ابصرت مضاضا نادت به لشبيبته ، فقالت يا مضاض اسقنى جرعة من ماء فانى اخشى أن أموت ظمأ . فناولها ، فرآنه مى حين ناول رقية الماء ، فاشتعل قلبها غيرة فسقطت مغشيا عليها وجعلت ترعد لا تدرى ما هى فيه ، ونظر اليهـــا الحجيج فقيـــل لهم عرضت ..

ثم أدركت ميا نفسها فقامت فلم تستطع الطواف وولت الى منزلها .. وكان منزل ابيها مهليل فى سفح جبل مكة فاتت اباهافقال لها : ما الحجج يا بنية افترق..فقالت له : نم يفترق الحجيج يا ابه ، ولكن الموت لا بكتم واليك شكواى واسمعانتى لأنك عمـــادى ورجائى .. قال : فما لك يا بنية .. قالت : انصدع قلبى صدعا لن يلتئم بعدها صدعة .. قالت : يا أبه ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما اجابه قذف الهوى خلف النوى .. قالت له : رأيتـــه يلاحظ رقية بنت البهلول ، وسقاها ماء ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمرى ، ورأيت انه بدل حسبا بحسب ، وخطرا بخطر، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر ، ولا رقيـــة بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر .. قال لها ابوها : صدقت ، لا ورب الكعبة ما يكون ذلك .. قالت له : يا ابه لن والله اقيم بموضع يكون فيـــه مضاض بن عمرو ابدا ، وانى راحلة الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخوالى جسر بن قين .. فقال لها : لك ذلك يا بنية ، وانشأت تقـــول :

مضاض غدرت الحب والحب صـــادق
وللحب ســـلطان يعز اقتـــداره
غدرت ولم اغــدر وللعهــد موثق
وليس فــتى من لا يقــر قــراره
ابيت اقاسى النجم والليل دامس
وللنـــجم قطب لا يدور مـــداره
اذا غاب لم اشــهد وكان محله
محلى ودارى حيثمـــا كان داره
اذا هاج ما عنــدى لأول غيرة
علاه اشتعال ما يطاق اســـتعاره

قال فجرهمى : واتاها قبيس بن سراج وانشأ يبس لها اخبارا ليفرق بينها وبين مضاض .. وقال لها : يامى رايت عجبا .. قالت : ما هو ؟ قال لها : رايت مضاضا واضعا كفيه على قرون رقية بنت البهلول فى الطواف ، وهو يدافع عنها اهل الطواف سانحا وبارحا ، ثم استسقته ماء فناولها بيده فشربت وناولته ، فأنشأ مضاض يقــول .. قالت : وما الـــذى قال يا قبيس ؟ قال لها :

رقيـــة قلبى قد تبــاين صـــدعة .
وللحب منى شـــاهد ودليـــل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأيت الهوى يهـــوى وللوصول واصل
فهـــل لك أن يلقى الخليل خليـــل

قال : فأجابته رقية فقالت :

اصـــون الهـــوى والطـــرف منى كاتم
ولا يعلمون الناس اذ ذاك ما دائى
ســـوى اننى قـــد فزت منـــك بنظرة
تجرعت عذب الحب منـــه مع الماء

فالتمستها حمية قول قبيس وجعلت تقبل بين خيام الحى مرة وتدبر اخرى وهى لا تعلم ما هى فيه .. ثم قالت لابيها : نذرت لله نذرا يا أبه لنرحلن غدا .. قال لها أبوها : نعم ..

قال الجرهمى : وان رجلا من أهل الحى بلغ مضاضا فأعلمه بما قال قبيس وبما قالت مى ، فركب فرسه واخذ سيفه وخرج يريد قتل قبيس .. وأنذر قبيس فخرج هاربا فى البيداء ، فما أدرى اى أرض انطوت عليه الى يومنا هذا ..

فلما لم يجد مضاض منقبيس اثرا واعجزه هربا رجع الى مى واصاب أهل الحى يحتملون ، واصاب ميا راكبة على نجيب فى هودجها فقصدها وقال : يا مى اعيذك باللهان تغدرى من لم يغدرك ، وهذا موقفى بين يديك فجودى لمن لم يجترم جرما :

يعشى عن الناس لحظ طرفى   وعنـــك يامى غير عاشى
اتهـــجرينى بغـــير ذنب   وتقتـــلينى بقـــول واشى

فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعا ، وتجهمته وزحفت غضبى ونمادى الحى للرحلة ، وافترق الحى من سفح الجبل ..

قال الجرهمى : فمضى حتى أتى مكة فغلب عليه الهوى ، ورجا منها عطفا ، فتعرض لها قائلا :

علام قبست النار يا أم غالب
بنار قبيس حين هاجتك ناره
على كبد حرى وانت عليمة
بغيب رفيق لا يبين ضماره
سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى
عليه وهجرانا وحبك جاره
فان لم يكن وصل فلفظ مكانه
اليه والا موطن الموت داره

فولت عنه وتجهمته وقالت له : والله لا القاك بها أبدا .. فولى الى صاحبيه وهما ابناء عمه وقال : والله لا أشرب بعدها ماء أبدا .. وولى وانف أن يدخل مكة ، ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه العطش ، وانصدع قلبه فى صدره لما خامره اليأس ، حتى بلغ هذا الموضع فغشيه الموت ، فأناخ ناقته وأخذ ابن عمه رأسه وجعله فى حجرة وقال له : قصفك الدهر يا مضاض .. ففتح عينيه وقال : قصفنى قبيس ..

قال الجرهمى : ثم مات ، وقفلت أنا من غزواتى فأصبته ميتا ، فحفرت له ضريحا فى هذه الصخرة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما مى فقد لقيت رقية بنت البهلول ، فقالت لها رقية : يا مى ، ما كان من شأنك ومضاض .. ؟ فأعلمتها ، فقالت لها : ظهلنيه يا مى ، بالله ما كان بينى وبينه قط سبب ، ولا كلمته غير استسقائى منه الماء ، ثم ما رأيته بعدها الى يومى هذا .. قالت لها مى : فهل كان منك اليه شعر ، ومنه اليك شعر ؟ قالت لها : والله ما كان بينى وبينه كلمة غير استسقائى الماء اليه .. واتاها من علم أمر قبيس وما دس بينهما فندمت وبعثت اليه فلم تجده ، وتعاظم شوقها لما علمت من كلفه بها وبراءته..

فبينما هى تسأل من لقيه اذ نعى اليها فتوارت عن الحى ، وتبعتها جارية من بنات عمها كانت مؤانسة لها مطلعة على أسرارها ، فوجدتها ساكتة تنظر يمينا وشمالا كأنها جنت .. قالت لها : يا مى أراك هبلاء وقد مات مضاض .. قالت لها : قسوة أدركتنى منعتنى الدمع ، وفى الدمع راحة لو اصبت اليه سبيلا .. فلما سمعت نساء الحى ينتحبن وعلت أصواتهن اجابها الدمع . فبكت وانشأت تقول :

أيا موطن الموت الذى فيه قبره
سقتك الغوادى الساريات الهوامع
ويا ساكنا بالدوحتين مغيبا
لان طرت عن الف فالفك تابع

قال الجرهمى : وآلت على نفسها أن لا تشرب ماء ، فاقامت يومين وليلتين ، فلما كان اليوم الثالث ولا أحد يعلم بها غير سلمى غشيها الموت مع الليل ، فولت الى الربوة واتبعتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلمى ، فلما بلغت أعلى الربوة سقطت .. قالت سلمى : فوضعت يدى على فمها فوجدته كالحجر الصالد ، فرفعت راسها الى بلسان غليظ ، وصوت خفى ، فقالت بكلام ضعيف لا اكاد ابينه : (قولى لابى يدفننى بالدوحتين بجوار مضاض) ..

***

احسب أن قصة (مضاض ومى) التى نقلتها اليك من كتاب وهب بن منبه تقف كالسؤال الحائر أمام الذين زعموا أن العربى لم يعرف من صور الحب الا حب المادة المجسدة ، وانه لم يعرف من المرأة الا مواضع الاثارة الجنسية فيها دون ماتعلق بالمرأة كروح ملهم ، ولا بها كرمز جميل عفيف ..

واحسب أن الذين اخذوا من الشعر الجاهلى ، او بمعنى اصح ما جاءهم من هذا الشعر ، صورة المرأة فى الجاهلية يحتاجون الى قليل من النظر فى هذه القصة وأمثالها ليدركوا ان ثمة صورة خادعة لا تمثل الحقيقة قد رسبت فى أذهانهم ..

واحسب انهم لو قرنوا هذه القصة التى تأتى من عصر جاهلى سحيق بقصص متأخرة كقيس وليلى ، وقيس ولبنى ، بل لو قرنوها بقصص جاءت بعدها فى الزمن حتى دخلت فى قلب العصر الأموى كقصة جميل وقصة كثير ، لأدركوا أن مايعرفونه عن حب العربى للمرأة لا يمثل الا جانبا واحدا من جوانب عاطفة العربى ، ولأحسوا أن الجاهلى الذى نظروا اليه نظرتهم الى بدوى جاهل خشن أقرب الى التوحش ، هو وحده لا يمثل الا جانبا واحدامن حياة العصر ، وأن هناك جانبا آخر اهملوه حتى

وهم يرون صوره واضحة جلية فى تلك المثل الرائعة من الحب العفيف والهوى الخلاق الذى يصل الى درجة من الرفعة والسمو قل ان نجد نظيرها فى غير اكثـــر الامم عراقة واصالة فى دنيا الابداع الفنى والخلق الادبى ..

وقصة (مضاض ومى) بعد هذا كله ، صـــورة انسانية نابضة بالحياة فى معظم الآداب العالمية فأنت تراها فى (روميو وجولييت) وانت تراها فى (بول وفرجينى) .. أعنى انك ترى الخصائص العـــامة المشتركة موجودة فى كل الآداب العالمية ، ولكنك هنا لن تخطىء الخصائص العربية تتحكم فى أسلوب القصة وشخصيات ابطالها وطريقة سير الاحداث فيها .. فالأمور فى هذه القصة تسير فى وضح النهار ، فى شجاعة وقوة لا تـكاد تجدها فى مثيلاتها .. فحينما يبلغ الهوى بالحبيبين مبلغه يذهبان من فورهما الى الملك حيث يقصان عليه قصة هواهما فى صراحة وجراة .. والملك يرسل الى أبى الفتاة يسأله رايه ، ويستقر الراى عند الجميع على زواج الحبيبين كحل ســـعيد سليم .. فليس ثمة خفاء ولا استتار ، وليس ثمـــة خوف أو ظلام وانما وضوح تبرره عفة الحب وعذريته ..

وحينما تدخل المصادفة لتلعب دورها فى القصة لتحول من مجراها ، تنبنى هذه المصـــادفة على أسس من ظروف المجتمع العربى ومعتقداته ومثله . فشهر رجب أو الشهر الاصم يقبل ، والعرب لا يعرفون فيه غير العمرة والطواف .. وهكذا يتأجل

الزواج أولا ، ثم تحدث القطيعة ثانيا .. فلا مجال لمى كى ترى حبيبها الا أن تراه وهو يطوف ، وتخرج اليه فى الطواف ترقبه من بعيد ، وتقبل فتاة أخرى تطوف فتعطش وتطلب منه أن يسقيها ، وتغار مى ويغشى عليها .. فالمصادفة اذن ليست عفوية وانما هى مصادفة تتحكم فيها ارادة أخرى ، لعلها ارادة الآلهة الذين جعلوا من رجب شهرا أصم ، ولعلها ارادة القدر أو القوة الكبرى التى تدخلت لحظة اتفقت ارادة البشر على اسعاد الحبيبين .. فحين اتفق الجميع على نهاية سعيدة لقصة الحب يحل فجاة شهر رجب كالقدر ليمنع هذا الزواج شهرا كاملا ، يترك فيه الحبيبين تحت رحمته تماما ، وتحت رحمة قوى الشر تفرق بينهما ..

وليس من عجب اثناء الطواف أن تعطش (رقية) ، ثم ليس من عجب لعربية من اسرة أسياد مكة أن تحتشم أن تقف الأهل السقاية وسدنة البيت ، ثم ليس من عجب حين ترى (مضاضا) يطوف أن تسأله جرعة ماء ، فهو صغير وهو من بيت كبير ، ثم هو آخر الامر أحد أفراد هذه الاسرة السيدة . وقد يمر كل هذا فى سهولة ويسر دون أن يخلف أثره عند (مى) لولا انك تعلم من كثير من القصص ، بل ومن بعض الشعر ، أن الطواف كان عند الكثيرين من شباب الجاهلية مجال لقيا المحبين ومناجاتهم من بعيد ، فلا عجب اذن أن تغار (مى) وأن تسقط مغشيا عليها وقد أصاب قلبها سهم الغيرة .. فالمصادفة هنا ليست عفوية وانما هى تكاد تنبنى على أسس سليمة من واقع حياتهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومعتقداتهم ، والارادة التى تدخلت هنا لتبدأ عهد القطيعة بين الحبيبين وترسم الفاجعة التى ستنهى قصتهما لها ارتباط كبير بآلهة العرب وتقاليدهم الدينيـــة .. وكما تدخلت هذه التقاليد العربية فى رسم اطار الفاجعـــة فهى تتدخل كذلك فى دوافعها وتطورها ، فغيرة (مى) ليست غيرة محبة على حبيبها وحسب، وانما هى غيرة عربية من عربية مثلها ، غيرة لها علاقة بالاحساب والانساب .. واسمعها تحكى لأبيها القصة فتقول له (يا ابه ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه فلمـــا اجابه قذف الهوى خلف النوى ، رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق روحى جســـمى بأسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمرى . ورأيت انه بدل حسبا بحسب وخطرا بخطر ، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر ، ولا رقية بنت البهلول سيا بنت مهليل بن عامر ..)

فالمسألة لا تقتصر على حب وغيرة ، وانما هى تتعداها الى مفاضلة بين الانساب .. ومى حين تغار تســـتدعى فى الحال عصبيتها الجاهلية ، وتعقد المقـــارنة بين مكانها ومكان رقية ، وبين مكان أبيها ومكان ابى رقية .. وبهذا تصبح غضبتها غضبة محبة مهجورة ، وغضبة عربية تتعصب لحسبها ، وتحسب أن مكانها فى المجتمع العربى قد اهين حين فضل حبيبها عليها فتاة اخرى تعدلها حسبا ونسبا ..

وهكذا تتجمع العوامل ،بعضها ينبعث من طبيعتها كانسانة تحب وتغار ، وبعضـــها ينبعث من طبيعتها كعربيـــة تثـــور

لكرامتها وتغضب لمكانها وخطرها .. ثم يأتى العامل الثالث الذى يذكى النار ويصل بالفاجعة الى قمتهـــا ، ذلك هو الحقد الذى ينفث سمومه ، فطبيعى أن فتاة كمى لها اكثر من عاشق يحبها دون أمل ، ومن الطبيعى ايضا أن يكون أحد هؤلاء العشـــاق (قبيسا) الذى هو من رهط حقير فى جرهم يتسلل وراء (مى) فى الطواف يسعى عـــله يراها ، فرأى ما حدث كله ، واستغل حقده وضعته لينسج قصة وهمية يدخلها على (مى) لتزيد من نار الغيرة ، وتشعل لهيب الغضب .. فهو يدس عليها حكاية حب موهوم ، بل هـــو يدس عليها شـــعرا غزلا يتبادله حبيبها (مضاض) مع (رقية) هذه التى سقاها فى الطواف .. وكانت (مى) كما رأينا فى حالة نفسية تساعدها على تقبل كل ما يقال لها .. وهكذا يصل الأمر الى نهايته ، وتغضب الغضبة الكبرى التى تعزم بعدها على الرحيل بعيدا عن مكة وعن جوار مضاض، وهكذا أيضا يغضب لها أبوها فيحزم الرحال مغادرا المكان الذى اهينت فيه ابنته ..

وحين يبلغ الأمر حبيبها مضاض يركب فرسه ويأخذ سيفه يريد قتل قبيس ولكن قبيس يهرب فما يبين . والقصة لا تلحق به عقابا ، فهو واحد من أدوات ، وليس أخطر الادوات التى استعملها القدر ليفرق بين الحبيبين .. وهما ــ على أى حال ــ لا يواجهان هذه القوة التى تحيك حولهما المأساة بقوة مادية ، وانما هى أشياء تتعلق بنفسيهما وما انطوتا عليه من حب ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلقى (مضاض) (ميا) ويحاول أن يفهم الحكاية ، وأن يفسر موقفه ، ولكنها لا تسمع .. بل « زحفت غضبى وتمادى الحى للرحلة ومضوا وافترق الحى من سفح الجبل » .. وهنا نشهد صورة عربية نلمحها تتردد فى الشعر الجاهلى بصفة خاصة ، فمضاض يغير زيه ويركب ناقته فيتبعه خليلان من بنى عمه ركبا فى اثره حتى لحقاه فقالا له « يا مضاض خلعت تاج الملك لطلاب الهوى » ، قال لهما غلب الهلع التجلد والجزع الصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه » فسارا وراءه يستمعان شعره معا ، ويرقبانه وهو يلحق بركب (مى) ، ويتعرض لركبها محاولا أن يثنيها عن رحلتها فيفشل مرة اخرى .. والخليلان هنا صورة من صور المجتمع العربى ، أو هما صورة من صور شباب هذا المجتمع . ونحن نلمح وجودهما فى مطلع معظم القصائد الجاهلية اذ يخاطبهما الشاعر دائما يشكو لهما الهوى والبين والفراق . وربما نبعث فكرة الخليلين هذه من هذه الأسطورة بالذات ، وربما كانت شيئا طبيعيا فى حياة الشباب العربى كلما قلنا .. على اية حال يرافقه خليلاه هذان وهو يقسم ان لا يشرب بعدها ماء ابدا ثم يرقبان موته ويأخذ أحدهما راسه فى حجرة حين يموت ، وهما بعد ينقلان ما قال من شعر ، وما همس به ساعة مات ..

ونقف وقفة طويلة عند هذه الوسيلة التى اختارها للموت اعنى العطش .. واختيار هذه الوسيلة اولا يتفق معطبيعة البيئة العربية الصحراوية اتفاقا تاما ، ويكاد يبلغ الصدق الفنى فى هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكرامتها وتغضب لمكانها وخطرها .. ثم يأتى العامل الثالث الذى يذكى النار ويصل بالفاجعة الى قمتهـا ، ذلك هو الحقد الذى ينفث سمومه ، فطبيعى أن فتاة كمى لها اكثر من عاشق يحبها دون أمل ، ومن الطبيعى ايضا أن يكون أحد هؤلاء العشـاق (قبيسا) الذى هو من رهط حقير فى جرهم يتسلل وراء (مى) فى الطواف يسعى عـله يراها ، فرأى ما حدث كله ، واستغل حقده وضعته لينسج قصة وهمية يدخلها على (مى) لتزيد من نار الغيرة ، وتشعل لهيب الغضب .. فهو يدس عليها حكاية حب موهوم ، بل هـو يدس عليها شـعرا غزلا يتبادله حبيبها (مضاض) مع (رقية) هذه التى سقاها فى الطواف .. وكانت (مى) كما رأينا فى حالة نفسية تساعدها على تقبل كل ما يقال لها .. وهكذا يصل الأمر الى نهايته ، وتغضب الغضبة الكبرى التى تعزم بعدها على الرحيل بعيدا عن مكة وعن جوار مضاض، وهكذا ايضا يغضب لها ابوها فيحزم الرحال مغادرا المكان الذى اهينت فيه ابنته ..

وحين يبلغ الأمر حبيبها مضاض يركب فرسه ويأخذ سيفه يريد قتل قبيس ولكن قبيس يهرب فما يبين . والقصة لا تلحق به عقابا ، فهو واحد من ادوات ، وليس اخطر الادوات التى استعملها القدر ليفرق بين الحبيبين .. وهما ـــ على اى حال ـــ لا يواجهان هذه القوة التى تحيك حولهما المأساة بقوة مادية ، وانما هى اشياء تتعلق بنفسيهما وما انطوتا عليه من حب ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلقى (مضاض) (ميا) ويحاول أن يفهم الحكاية ، وأن يفسر موقفه ، ولكنها لا تسمع .. بل « زحفت غضبى وتمادى الحى للرحلة ومضوا وافترق الحى من سفح الجبل » .. وهنا نشهد صورة عربية نلمحها تتردد فى الشعر الجاهلى بصفة خاصة ، فمضاض يغير زيه ويركب ناقته فيتبعه خليلان من بنى عمه ركبا فى اثره حتى لحقاه فقالا له « يا مضاض خلعت تاج الملك لطلاب الهوى » ، قال لهما غلب الهلع التجلد والجزع الصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه » فسارا وراءه يستمعان شعره معا ، ويرقبانه وهو يلحق بركب (مى) ، ويتعرض لركبها محاولا أن يثنيها عن رحلتها فيفشل مرة اخرى .. والخليلان هنا صورة من صور المجتمع العربى ، أو هما صورة من صور شباب هذا المجتمع . ونحن نلمح وجودهما فى مطلع معظم القصائد الجاهلية اذ يخاطبهما الشاعر دائما يشكو لهما الهوى والبين والفراق . وربما نبعث فكرة الخليلين هذه من هذه الأسطورة بالذات ، وربما كانت شيئا طبيعيا فى حياة الشباب العربى كلما قلنا .. على اية حال يرافقه خليلاه هذان وهو يقسم أن لا يشرب بعدها ماء ابدا ثم يرقبان موته ويأخذ أحدهما رأسه فى حجرة حين يموت ، وهما بعد ينقلان ما قال من شعر ، وما همس به ساعة مات ..

ونقف وقفة طويلة عند هذه الوسيلة التى اختارها للموت أعنى العطش .. واختيار هذه الوسيلة أولا يتفق معطبيعة البيئة العربية الصحراوية اتفاقا تاما ، ويكاد يبلغ الصدق الفنى فى هذه

القصة ذروته عندما يجعل العطش المحور الرئيسى فى الفاجعة .. فالعطش هو الذى جعل (رقيـــة) تطلب المـــاء من (مضاض) فتراهما (مى) ، والعطش هو العقاب الذى فرضه (مضاض) على نفسه ، وحين تعود (مى) وتعرف أنها كانت واهمة فيما بلغها عن (مضاض) وانها تجنت عليه وظلمته فهى لا تختار الا (العطش) لتموت نفس ميتته ، وتدفن فى نفس مكانه ..

والماء يلعب فى حياة العربى دوره الحقيقى ودوره الرمزى.. فهو حقيقة ملموسة تعيد اليه الحياة حين تطول به الرحلة وينضب ما معه من ماء ، ثم يوشك على الهلاك وسط الصحراء القائظة الجرداء . وهو رمز للأمان وبلوغ الهدف حين تنتهى به الرحلة الى واحة ، أو قرية ، أو مضرب خيام ، يجد عنده حاجته من الماء ، ويجد عنده حاجته من الامان ، ويحقق عنـــده هدفه من رحلته .. بل ان حياة العربى البدوى كلها رحلة من اجل الماء ، يعيش هو عليه ، ويجد عنده الكلأ لماشيته ترعاه .. وهو حين يحده يستقر به المطاف ويحط عنده الرحل ، الى أن ينضب ، فهو يقوض خيامه ويقود أغنامه بحثا عن ماء جديد .. فالماء عنـــد العربى رمز لأشياء كثيرة . وهو فى هـــذه القصـــة بالذات رمز الأمل الذى تحطمت عند صخرته حياة حبيبين ، صنع لهما القدر وطبيعة الحياة العربية وتقاليدها هذه النهاية الفاجعة . وحين يموت مضاض عطشا انما يرمز الى ما أخفق فيه من بلوغ لأمله وهدفه ، وحين تموت (مى) عطشا انما تشير الى ما ملأ حياتها من جدب وخيبة واخفاق .

فالقــدر العربى الذى جعــل من رجب شهرا أصم بدأ الفــاجعة ، والطبيعة العربية التى جعلت من العطش فاجعة تحطم حياة العربى انهت القصة .. وبينهما يقف الانسان العربى شهيدا لا يملك الا الحب والوفاء .. ومأساة العربى هنا فى بحثه عن الامان ، وبحثه عن الاستقرار ، وبحثه عن الحب تتضح فى جلاء لا تحجبه التفاصـيل ، ولا يخفيه ما يدور على السنة ابطال هذه المأساة من شعر او حوار ..

اما شخصيات القصة فنماذج بشرية تلعب بها يد القدر ، ولكنها ايضا نماذج عربية لها سماتها الخاصة وتقاليدها التى تتحكم فى حياتها .. (فمى) الفتاة التى تحب فى عفة ، وتواجه حبها فى شـجاعة وصراحة يصل بها الحب الى حد أن تخرج فى الطواف ترقب حبيبها من بعيد ، تمتع برؤيته عينيها وقلبها ، فترسم بذلك صـورة من الحب الجارف العنيف الذى لا يعرف الصبر والاناة . ولكنها حين تصطدم بوهم الخيانة ، فتاة عزيزة لا تعرف أمام عزتها شيئا حتى ولا الحب ، يغشى عليها وسط الحجيج ، ثم هى راحلة لا شك عن المكان الذى أهينت فيـه كرامتها ، ثم هى معرضة عن توسلات حبيبها وشعره وافكاره؛ هى قوية كل القوة حين تحس أن كرامتها فى الميزان ، وكرامته عنـدها ترجح كل شىء حتى الحب .. ثم تنزاح الغشاوة عن عينيها فاذا هى ضعيفة كل الضعف أمام حبها ، اذا هى تسعى الى مكة ، فما تسمع خبر وفاة حبيبها حتى تهرب الدموع من

عينيها اثر الصدمة القاسية .. ثم هى أمام حبها تضحىبكلشىء حتى بحياتها ، وهناك الى جوار قبر حبيبها تموت عطشى ، كما مات فى عزة واصرار ووفاء ..

هذه الصورة لمى كما ترى تختلط فيها عواطف المرأةبتقاليد العربية اختلاطا كبيرا يحقق لها أصالة وبقـــاء ، وصدقا فنيــا حقيقيا .. وما قلناه عن (مى) نقوله عن (مضاض) فهو محب عفيف يصـــون مئزره عن حبيبته ويسرع بخبر حبه الى الملك ، ثم هو يخضع لتقاليد العرب فينتظر انصرام شهر رجب ، فاذا ما علم بأمر قبيس اخذ سيفه ليقتله فى عزم العربى وغضبته ، وفى فتوة وفروسية صادقة ، ولكنه أمام مى محب متخـــاذل ، يتبعها باكيا نائحا ، يحكى لهـــا قصة وفائه ، وتأبى أن تسمع اليه ، فيأبى عليه شرفه وتأبى عليه انفته ، الا ان يثبت لهـــا صدقه ، والثمن هو حياته نفسها ..

ومن هذه القصة تستطيع اذن أن تخرج بصـــورة متكاملة للخلق العربى والتقاليد العربية لعلها تختلف الى حد كبير عما اصر عليه الدارسون من صورة مشوهة باهتة ..

ونظرة الى حوار القصة وما جاء فيها من شعر تبرهنلك ب وضوح ان لغة الجاهليين لم تكن سجعا وقعقعة واغرابا .. ستقول ان هـــذه القصة دونت فى عصر متـــأخر عن حـــدوثها المفروض ، واقول لك انها دونت فى العصر الاموى على أرجح المفروض ، فكاتبها نفسه قد مات فى عام ١١٠ هـ كما تعلم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعصر التدوين قريب جـــدا من العصر الجاهلى ، ولغتـــه تكاد تكون أقرب الى اللغة الجاهلية من لغة المتأخرين الذين رووا الشعر الجاهلى والخطابة الجاهلية .. ولست ازعم ان هـــذه اللغة هى لغة العرب فى الجاهلية ، وانما ازعم انه كانت هناك لغتان ، احداهما عرفها محتـــرفوا الـــكتابة من اصحاب السجع والغريب ، والثانية هى هذه اللغة السهلة العذبة الشعرية التى عرفها اصحاب القصة .. وازعم ان هذه اللغة هى اللغة الأقرب الى ان تكون هى لغة الاستعمال المتداولة ، اما هـــذه الصورة اللغوية الغريبة التى ينقلها الينا الشعر او تنقلها الينـــا الخطب وسجع الكهان ، فأحسب انها لغـــة مصنوعة متـــكلفة يتعمدها اصحابها تعمدا ، ويقصدون اليها قصدا ، فغدت علما علىمجالات استعمالها . وان كانت ولا شك ليست لغة الحياة العادية . كما انها ليست بالتالى المظهر الفنى لهذه اللغة ، لأن هذا المظهـــر الفنى يتضح فى هذه القصة وغيرها . وانما هى اقرب الى أن تسمى بالمظهر الصناعى المجبر لهذه اللغـــة ، وفرق بين الفن والصناعة ..

وبعد فاحسب أن قصة مضاض ومى لم تنقل الينا فى كتاب التيجان كاملة ، بل احسب انها اختصرت اختصارا ، فأنت تلمح فيها مواضع كثيرة للحوار تروى رواية ، بينما ترى من سرده أنه استعمل الحوار فى اكثر من موضع ، وساعود بك الى جـــزء من رواية وهب للقصة فهو يقول :

(قال أبوها : فمالك يا بنية ؟ قالت له : انصدع قلبى صدعة لن يلتئم بعدها صدعة ، قالت يا أبة ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما اجابه تذف الهوى خلف النوى ، قالت له رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ، ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين) .

فأنت تراه هنا يذكر نصف الحوار دون أن يورد نصفه الآخر ، ولا ريب أن القصة الكاملة يتكامل فيها الحوار ، وتحكى ردود أبيها عليها كاملة .. ولعلك تعلم انه لم يقصد الى ايراد هذه القصة قصدا،وانما هو حكاها وسط حكايته عن الحارث بن مضاض الجرهمى وغربته الطويلة .. والواقع أن جزء كبيرا من حبكة هذه القصة الفنية يعود الى الراوى نفسه ، فالراوى روح هائمة فى الجزيرة تسير فى طريقها الى الموت بعد غربة ثلاثمئة عام .. فالجو العام الذى تسرد فيه القصة كله قتام يوحى بهذه النهاية الفاجعة ، بل كله يرمز الى هذا الذى حاولنا أن نستخرجه من مصرع العاشقين بالعطش ، يرمز الى الضياع .. فكأنما قصة مضاض ومى تكملة طبيعية لقصة الحارث الذى ضاع فى عمره الطويل بين جبال الجزيرة وفلواتها الى أن يلتقى باياد بن نزار وهو يعود بابله الى مكة فيحمله فى رحلة النهاية ، رحلته الى القبر الذى سيدخله باختياره ، لأن اجله قد حان ، ثم يموت .. وفى الطريق يمر على جبل أبى قبيس وموطن الموت ، فيشرح لاياد قصة هذه الأسماء التى أطلقت على هذه المواضع فتكون قصة مضاض ومى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحارث بن مضاض

والحارث بن مضاض هذا هو آخر ملوك جرهم المتوجين ولضياعه هكذا قصة يرويها كتاب التيجان على لسانه وارويها لك بقليل من الاختصار والتصرف ، يقول موجها حديثه لدليله الى مكة اياد بن نزار :

كنت ملك مكة وما والاها من الحجاز والتهائم الى هجر والأنعمين وحضر العالمين الى مدائن ثمود ، وكان الملك قبلى أخى عمرو بن مضاض ، وكنا أهل تيجان ، وكنا نعلق التاج يوما على رؤوسنا ويوما على الرتاج بالبيت العتيق .. واتى رجل من بنى اسرائيل ، بدر وياقوت ، تاجرا الى مكة .. واشترى أخى ما اتى به من الدر والياقوت .. ونقض أخى التاج وزاد فيه العقيان والدر والياقوت وجعله كالمجن .. وغيب الاسرائيلى احسن ما كان معه من الدر الياقوت ثم عرضه على بعض الناس .. فاتى خبر ذلك الى الملك فارسل الى الاسرائيلى واتى به (وقال له) لم غيبت عنى عتيق ما معك وبعت لى نفايته ، الم ابلغك أملك فى درك وياقوتك ؟ (قال) نعم أيها الملك .. (قال) فما حملك على ما فعلت ؟ (قال له) الاسرائيلى : هو مالى أيها الملك ، أبيع منه ما أحببت واحبس منه ما احببت .. فغضب عليه

الملك وامر به فنزع عنه ما معه من در وياقوت، وكان يسيرا ..
ورصد الاسرائيلى الرجل الذى يحمل التاج الى البيت يوما ليعلقه على رتاج البيت العتيق ، فعمد اليه الاسرائيلى فقتله وأخذ التاج، وركب نجيبا وهرب .. واصبح الناس فلم يدروا من ذهب بالتاج، واشتبه عليهم الأمر حتى اتى الخبر اليقين من بيت المقدس ..
فأرسل الملك عمرو الى بنى اسرائيل يأمر ملكهم فاران بن يعقوب برد التاج ، ويأخذ منه كفاف حقه ويطل له الدم الذى اصاب ، واعتراف الملك بالزلة وندمه عليها .. فأبى عليه فاران ، فأرسل اليه عمرو أن التاج يعلق على البيت العتيق بمكة ، ولم نجعل فى ذلك التاج غصبا قط ولا غلولا .. فأرسل اليه فاران انه يعلقه على بيت المقدس ، فبعث اليه عمرو يقول ان الله هو الغنى ، فهل تسلب بيتا لبيت ؟ فقال فاران نحن أهل كتاب اعلم بالله منك.
فأرسل اليه عمرو يقول ، اعلم الناس بالله من أطاعه ولم يعصه ، ولم ار بيتا يسلب بيتا ولكن ملكا يسلب ملكا .

قال الجرهمى : فخرجنا اليهم فى مائتى الف ، جرهم فى مائة الف ، وعملاق فى ستة الف ، ونصرنا الأحوض بن عمرو المعبددوى فى خمسين الفا .. واستنصر فاران بن يعقوب بقومه من الروم .
وكان صاحب امر الروم شنيف بن هرقل ، فنصره فى مائة الف من الروم ، وخرج بنو اسرائيل فى مائة الف ، ونصرهم اهل الشام فى مائة الف .

قال الجرهمى : والتقى الجمعان عند هذا الجبل .. فنادى اخى عمرو على بنى اسرائيل وطلب منهم أن يبرز له ملكهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيتبارزا فأيهما قتل صاحبه كان له الأمر على ما يملك .. وبرز اليه شنيف بن هرقل فاختلفت بينهما طعنتان ، فطعنه عمرو فقتله .. ثم أرسل عمرو الى فاران أن أعطنى ما تعاهدت عليــــه مع شنيف ، فأرسل اليه فاران يقول أعطيكه بمكة من أموال أهلها اذا غلبت عليها.. فأرسل اليه عمــــرو يقول ما اشـــبه أول ظلمك بآخره ، وقد اوعدتك القتال غدا .

قال الجرهمى : وفى الغد نهض اليهم عمرو ، فتضاربنا طويلا فحطمناهم بالسيوف حطما ، ثم كانت لنا عليهم الدائرة فقتلناهم قتلا ذريعا ، وادرك الملك عمرو ، فاران بن يعقوب على تل فقتله.. ثم مضى فى اثرهم الى بيت المقدس فاذعنوا له بالطاعة وأتوه بتاج الملك فأخذه . وكانت فيهم امرأة جميلة يقال لها برة بنت شمعون لم يكن مثلها فى وقتها من سبط يوسف بن يعقوب ، فأرسلوها اليه تكلمه فى أمر نزل بها وقد لبست حليها وحللها ، فلما رآها عمــــرو الملك فتن بها فتزوجها . وكان ذلك مكرا منهم له ، فلما خلا بها (قالت له) : الآن وقـــد رضيت فارضنى ، (قال لها) : لك رضاك . (قالت له) ارحل عن قومى ولا تضرهم فقد تشفعوا اليك بى . (قال لها) لك ذلك .. ثم رفع عنهم .. فسار حتى بلغ مكة ، وكان قد سار معه مائة رجل من اكابر بنى اسرائيـــل رهينة بالولد والعيال ، على السمع والطاعة من قومهم .. ثم نزل بموضع يقال له (أجياد) فعمدت برة بنت شمعون امرأته الى حسكة من حديد فسمتها ثم القتها فى فراشه عند منامه بالليل ،

واعدت نجبا ورجالا يردونها الى بيت المقدس .. فلما القى عمرو الملك نفسه فى فراشه،شجته الحسكة ودخله السمفمات، وهربت، وهرب معها المائة الرجل الرهائن .

قال الجرهمى : فاخذت فرسان جرهم وعملاق وبلغت تل فاران انتظرهم. فلما اتوا اخذتهم، واخذتها ، ورجعتبهم وبها الى مكة .. فاصبت عمرو وقد تناثرت مفاصله من السم فحفرت له ضريحا وواريته ، ثم أمرت بالمائة الرجل فقدموا الى السيف ، ثم اخذت برة الى السيف فقالت : خدعت فى مجلس الملك ، ودخل اليه نقيب بنى اسرائيل ففعل ما رايت ولا اعلم بذلك ، وكيف افعل ذلك وانا مثقلة منه .. فامرت القوابل فاصابوا الحمل بينا، وكان عمرو قد منع الولد غير بنتين .. فلما عرفت أنها تحمل منه ، غلبت على الشفقة ، فأدخلتها داخل القصر وجعلت عليها حرسا حتى وضعت حملها . فاتت بغلام سمته مضاضا على اسم أبى وجده . فشب فلم يكن فى وقته اجمل منه وجها . ودبرت أمرى فى قتل بره ، فقلت اقتلها لا آمن على نفسى ولدها ، ولكن اترك أمر امه فى ابيه اليـــه .

ومضاض الصـــغير هذا الذى قتلت أمه أباه ، هو صاحب قصتنا التى حكيت لك .

قال الجرهمى : ثم وليت الملك بمكة وتوجت ، ورجعت الى بنى اسرائيل والروم واهل الشام فخرجت اليهم فى مائة الف من جرهم ومائة الف من عملاق ، فقاتلتهم فهزمتهم وكانوا زحفوا

الى تابوت داود الذى فيه السكينة والزبور .. فألقوه فأخذته جرهم وعملاق ودفنوه فى مزبلة من مزابل مدينة مكة فنهيتهم عن ذلك فعصونى ، ونهاهم عن ذلك هميسع بن نبت بن اسماعيل ابن ابراهيم صلى الله عليه وسلم فعصوه ، فعمدت الى التابوت ليلا فأخرجته وجعلت لهم مكانه تابوتا ودفعته الى هميسع .

ويمضى كتاب التيجان فى هذه الأسطورة الغريبة فيقول : وكان التابوت عند هميسع وكان عنده يتوارثونه وارث عن وارث الى زمان عيسى بن مريم عليه السلام ، فانه أخذه من كعب ابن لؤى بن غالب.. فلما هلكت جرم وعملاق غما ، وفنوا جميعا ولم يبق من عملاق الا عشرون رجلا فكانوا مؤمنين على دعوة اسماعيل مع هميسع ، وثمانية رجال من جرهم مع الحارث بن مضاض الجرهمى . فلما رأى الحارث قومه هلكوا ، ترك ابنه عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى عند الهميسع وخرج هاربا يجول فى الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه .. وتغرب الحارث بن مضاض ثلاث مئة عام .

* * *

حكاية الحارث الجرهمى التى حكيتها لها أهمية كبيرة فى تاريخ القصة العربية .. فالحادث الذى تغرب ثلاثمائة عام انما يرمز فى وضوح الى عجز الانسان وقصوره أمام قوة القدر الغالبة القاهرة ، بل لعله يرمز الى ذلك الضياع المخيف الذى يستشعره الانسان أمام سطوة القوى التى تحطم صراعه وتنهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محاولاته للتغلب على طبيعته البشرية من أجل الكمال .. وهى فى ذات الوقت تعليل أسطورى لفناء جرهم وعملاق ، تعليل يبرز العقاب الذى لا يرحم ، العقاب الرهيب القاسى الذى لا يبقى الا يذر ، فهى لعنه اصابت هؤلاء القوم فأفنتهم . لعنة مجهولة المصدر اسمها الفناء ، وامام هذه القوّة المدمرة يخرج الحارث الملك الجرهمى الذى قاد معركة قومه الظافرة ضد بنى اسرائيل، والذى حمى بسيفه وسيف اخيه وسيوف قومه كرامة الكعبة وهيبتها ، يخرج الحارث مهزوما عاجزا بلا امل ، يدور فى الجزيرة العربية يحمل فى قلبه المرارة والهزيمة واليأس ، ينتظر نهايته التى تتأخر مائتين من الأعوام ، تظل فيها روحه تحمل آلام أمة وعذاب شعب ، وترمز الى اللعنة التى تصم قومه .. وحين يريد القدر أن يريحه من هذا العذاب المقيم يقصد الى مكة حيث يدخل قبره بقدميه لينام اخيرا فى راحة ، وقد ادى فرض العقاب المجهول خير اداء ..

وقصة الضياع هذه نرى صورا منها فى الأداب العالمية كقصة اليهودى التائه وقصة الهولاندى الطائر وغيرها ، بل اننا لنرى منها صورا فى الرواية العربية نفسها .. وهى فى الرواية العربية تأتى بأكثر من دلالة .. فسليمان النبى الذى دان له الانس والجن والطير والوحش تخرج له الخيل الخضر من البحر فتعجبه ويفتن بها ويظل يتأملها ويربت على أعناقها وسوقها حتى تنسيه التسبيح والتهليل ، فلما ذكر الصلاة والتسبيح أمر بالخيل الخضر فعقرت ، ثم سارت به الريح حتى بلغ تدمر ، وكان لخاتمه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نور يقوم بين السماء والأرض فيزدحم عليه الطير فى الهواء على رأس سليمان . ثم أن خاتم سليمان سقط من يده فذهبت الطير وسكنت الريح ، لما أراد الله ان يرى سليمان ومن معه من المؤمنين أن الدنيا وما فيها الى زوال ، ثم سلب الله سليمان ملكه ليبتليه ، فلما سلب ملكه علم أنه لما نسى من ذكر الله ، فخرج هاربا يجول فى الفيافى ويتضرع الى الله ..

فقصة سليمان هنا تدور حول الضياع أيضا ولكنها تحمل فى طياتها دلالة الابتلاء ، فهى تشير الى قدرة الله التى ليست فوقها قدرة ، وعظمته التى لا تعلوها عظمة ، فسليمان رغم كل ما سخر له من مخلوقات الدنيا لا يستطيع لنفسه نفعا ولا ضرا .. والقصة التى نقلتها لك من كتاب التيجان تشير الى أن شيطانا ساحرا قد احتل مكان سليمان وخدع وزيره وأهل بيته، وظل يحكم مكانه الى أن رد الله الى سليمان ملكه، فقتل الشيطان الساحر وعاد الى مكانه .. فهى اذن تجسيد قصصى لقدرة الله على المنح والعطاء ، ثم على الأخذ والحرمان ، ثم على اعادة ما أخذ وقتما يشاء .. وهى ابتلاء للاختبار ، اختبار قوة ايمان سليمان ، واختبار أثر هذه النعمة الكبرى التى منحه الله اياها ، وهل أنسته ايمانه وألهته عن عبادة ربه . ؟ ولكنها ما تزال رغم هذا كله ، ورغم المضمون الدينى الذى تحمله ، ما تزال ترمز الى مأساة الانسان العاجز القاصر أمام قوى أكبر منه وأكثر خطورة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الا مأساة سليمان لا تكتمل ، فسرعان ما تعيد اليه القدرة ما سلبت . فهى اذن محنة مؤقتة ، وهى بالتالى لا تحمل ما فى قصةالحارث الجرهمى من معنى الضياع والعجز الكامل، الا بمقدار ما تثبت قضية معينة . أما فى قصة الحارث فليست هناك مثل هذه القضية التى تحتاج الى اثبات ، انما هى فى حد ذاتها قضية كاملة .. قضية الانسان أمام القدر ..

وشبيه بقصة الحارث هذه قصة قيس بن زهير ، أو قيس الرأى فى رواية عنترة بن شداد التى تأتى بعد هذه القصة بأكثر من قرن .. اذ نرى قيسا وقد أحاط العرب به ، وبقبيلته من بنى عبس،تريد العرب ان تأخذ بثاراتها من بنى عبس على مافعل بهم عنترة قبل موته . وقيس وقبيلته يذودون عن أنفسهم الى أن يفنوا . فيهرب قيس ومعه نفر قليل كل الى جهة ، أما قيس فيظل تائها فى الجزيرة أعواما طوالا ، الى أن يعود لبنى عبس عزهم بقوة أولاد عنترة . وحين يحاول قيس العودة الى قبيلته يموت مجهولا فى الصحراء على أيدى بعض قبائل العرب .. فهى اذن قصة تحمل فى طياتها أيضا معنى الضياع ، ولكنه ليس ضياعا أمام سطوة قوة مجهولة غير ملموسة ، وانما هو ضياع ولدته الهزيمة أمام قوى بشرية معروفة . وتم بعد معركة طاحنة أبلى فيها قيس بن زهير ما وسعه الصمود ، ثم هرب بحياته ليظل هاربا حذر الموت، وحذر الثارات التى تتعقبه . فهى اذن ليست لعنة مجهولة المصدر ، مجهولة السلاح ، ولكنها لعنة معروفة الأسباب،واضحة فى سلاحها ونتائجها ، ولو أنها آخر الأمر تتشابه فى دلالتها مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة الحارث الجرهمى من حيث تصوير الضياع اليائس العاجز .. ونستطيع أن نرد ما بينهما فى فروق الى اختلاف عصر وجود كل قصة منها .. فقصة عنترة كما نعرف من القصص العربى المتأخر زمنا ، والذى كتب بعد أن ضرب العرب فى الحياة من حولهم بأكثر من سهم .. فكان من الطبيعى أن يبحث القاص عن العلل ، وأن يجسد الأسباب ، وأن يمنطق الأحداث ويقربها الى الالف والواقع ما أمكنه..اما قصة الحارث فهى قديمة قدم ما عرف العرب فى صدر الاسلام من اساطير ، فلا عجب أن انبعثت فيها القوى الغيبية بلا تجسيد ولا تبرير ..

وقصة الضياع فى حياة العربى ليست ظاهرة غريبة ولا شاذة ، فحياة العربى القاسية أمام قوى الطبيعة المجهولة كفيلة بأن تجسد له ضعفه وتفاهته وحقارة قوته ، أمام جبروت هذه القوى التى لا تقاوم .. والعربى الوحيد وسط رمال الصحراء يتلمس طريقه بما يعرف من معالم قد تشوهها يد الأحداث ، فيفقد طريقه ليغدو شيئا صغيرا وسط الخضم الزاخر حوله من قوى الطبيعة ، لا شك اقدر الناس على الاحساس بهذا المعنى من غيره .. بل ان العربى الآمن حول نبع ماء يشرب منه ويسقى غنماته فى صراع مرليحيا وتحيا غنماته ، سرعان ما تفجأه قوى الطبيعة باختفاء هذا الماء وانتهائه ، ويشد رحله فى يأس بحثا عن ماء جديد ليستقر حوله من جديد .. وما أحسب الا أن رحلته الدائمة هذه بحثا عن الكلأ والمرعى نوع من الضياع فى جوف الصحراء الضخم الذى يبتلعه ويبتلع معه ما له من آمال وامانى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتقلبات القدر فى حياة العربى كثيرة ومتعددة .. فهـو معرض للغزو يحيل الأحرار من أهله عبيدا ،والمحصنات من نسائه اماء .. ثم هو معرض للجفاف يحيل غناه فقرا ، وراحته وأمنه قلقا واضطرابا .. وهو معرض للحيوان المفترس فى كل خطوة يخطوها ، بل هو معرض للطبيعة المفترسة فى كل خطوة أيضا .. واختفاء المدن والحضارات ؛ واختفاء القبـــائل وانقراضها شىء كثير الورود فى أساطير العرب ، فقد باد عادوثمود ، وباد طسم وجديس ، وبادت ارم ذات العمـــاد .. وبادت أمم تلتهم كجرهم وعملاق .. والأسباب كلها مجهولة ، يقولها العربى فى كلمتين ، عاديات الزمن ..

فالزمن أو القدر قوة مخيفة تلاحق العربى فى كل حياته ، وهو دائما فى صراع ضدها .. تارة يترضاها بعبادة مظاهرها وتقديم القرابين لها ؛ وتارة يخضع لها تماما ويلجأ الى سؤالها واستشارتها فى حياته ، يحاول أن يتلمس مصيره من خـــلال أى مظهر من مظاهرها . فعرفت عنه الطيرة ، والتشاؤم والتفاؤل ، والضرب بالقداح .

وكان من الطبيعى ان ياخذ موقف العربى من هذه القوى مظهر الاستسلام دائما ، فهو أبدا لا يجد من سطوتها فـــكاكا ، ولا يستطيع حتى فى أحلامه وأساطيره ان يتمرد عليها اى لون من الوان التمرد . انما هو يستطيع فى أحلامه وأساطيره أن يجسد من هذه القوى الغيبية قوى أخرى خيرة تساعده فى التغلب على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القوى التى تهدم حياته ، فظهر الجن المؤمن والجن الكافر .. كما يستطيع فى أحلامه وأساطيره أن يزعم لنفسه نوعا من القـــدرة على توجيه هذه القوى نوعا من التوجيه بقوى غيبية اخــرى مجهولة ، فظهرت فى اســـاطيره حكايات الســـحر والسحرة ، والحكمة والحكماء ، والطلاسم والارصاد .. ثم ماذا بعد هذا كله . ؟ لا شىء .. مازال يدور فى دائرة لا فــكاك منها ، اسم هذه الدائرة الاستسلام الصاغر بلا جدوى مهما حاول أو تمرد..

من هنا كان من الطبيعى أن تحتل قصة الضياع أمام القوى الخارقة وارادتها ، وخضـــوعه لها ، مكانا هاما فى الأســـاطير العربية . ولعل أكثر هذه الأساطير تجسيدا لهذه الفكرة وابانة عنها هى أسطورة الحارث الجرهمى التائه فى الجزيرة هذه الفترة الطويلة من الأعوام .. فان ضياع الحارث مرتبط ارتباطا كبيرا بضياع جرهم كلها .. والتعليل الأسطورى يكاد يحاول تفسير سر اختفاء جرهم وعملاق محاولا أن يتهمهم هم ، لا القدر . ثم محاولا أن يتملس أسبابا غير ظاهرة لمشكلة يلمحها هو ظاهرة أمام عينيه . وكانت هذه الأسباب فى تعليـــله الأسطورى هى الخطيئـــة التى أحلت عليهم اللعنة .. فحين يتحـــارب مضاض الجرهمى مع بنى اسرائيل بسبب التاج الـــذى سرقه اسرائيلى من الكعبة ثم نقله الى بيت المقدس ، يحمل الاسرائيليون أمامهم تابوتا به صحف (الزبور) .. وكانوا قد تعودوا أن يحملوا هذا التابوت أمامهم فى كل معركة ، فتحمله الملائكة وتهزم أعداءهم .. الا أنهم فى هذه المرة كانوا قد عصـــوا ربهم ونســـوا كتابهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وادخلوا على صحفهم ما شاءوا من كلام ، فلما حملوا تابوتهم امامهم لم يغنهم فتيلا ، فانهزموا أمام جرهم التىادارت فيهم السيف .. واستولى الحارث الجرهمى على التابوت ، الا أن جرهم فى نشوة نصرهم يلقون بالتابوت فى مزبلة بمكة .. وتحل اللعنة ، ويحاول الحارث أن يقنع قومه انيرفعوا التابوت ،ولكنهميصرون، ويتقدم الحارث ذات ليلالى مكانالتابوت، فيرفعه فى خفية ويضع مكانه تابوتا مزيفا .. ولكن اللعنة كانت قد حلت وانتهى الأمر .. وبدأت ابادة جرهم فلم يبق منهم الا القليل ، أما الحارث نفسه فيخرج هاربا الى صحراء الجزيرة ليتوه بين رمالها .. فكان المسألة هى محاولة ايجاد مبرر لما حل بجرهم ، وهو تبرير يلقى الضوء على عجز حقيقى أمام لعنة القدر .. فرغم محاولات الحارث لابعاد التابوت فما زالت اللعنة قائمة ، ورغم أن بنى اسرائيل انفسهم لم يحدث لهم سوى الهزيمة فى معركة كانوا هم السبب فى قيامها ، بل كانوا يستحقون بالفعل الهزيمة والعقاب لما حاولوا من التعدى على الكعبة وسرقة التاج الذى يعلق فى رتاجها .. رغم كل هذا فاللعنة قائمة ولا شىء يبرر زوالها . وينطلق الانسان العاجز بلا أهل ولا ولد ، بلا ماض باق ولا مستقبل مأمول ، ينطلق يجول ويجول ، عملاقا طويلا ضخما ضريرا ، ينتقل من مكان الى مكان يحكى حكايات جرهم . وقصة عجزها أمام القدر ، فيحكى حكاية (مضاض ومى) التى نقلتها اليك منذ حين نرسم بنهايتها اليائسة خطه النفسى الذى يعيش فى حدوده ، اليأس المر .. والاحساس المطلق بالعجز والضياع ..

ولست احب أن أترك قصة الحارث دون أن أشــير الى
ما جاء فيها عن أخيه عمرو بن مضاض وزوجته الاسرائيلية ، وكيف قتلته مسموما بعد أن دسها قومها عليه ، وما فى هـذه القصة من شبه بمولد سيف بن ذى يزن فى الرواية الطويلة التى ظهرت بعد ذلك بقرون .. كما أود أن اشير الى ما بين غربة الحارث بن مضاض وبين غربة قيس بن زهير فى قصة عنترة بن شداد .. لعل الباحثين يجدون فى هذه القصة مصدرا لكثير مما جاء فى القصص المتأخرة من اشارات لها دلالتها الأسطورية .

وهذه القصة المتداخلة المتشابكة انما تعطينا صورة واضحة عن فهم العرب للقصة وما يجب أن تحمل من مدلول ، وهى الى جوار هذا تفسر لنا حسهم الدرامى الناضج وتبلور موقفهم من الحياة والقدر .. الا أن هذه القصة تأخذ مكانها فى الجزء الشمالى من الجزيرة ، كما تتناول أبطالها من أهل الشمال سكان مكة وما جاورها . وهؤلاء كما تعلم ليس لهم تاريخ موغل فى القـدم يمدهم بالكثير من المنابع الأسطورية ،وأحب ان انتقل معك الى الجنوب، الى اليمن ، حيث عاشت حضارة زاهرة اكسبت أهلها من التجارب ومن الخبرات ما يسرت لهم تاريخا كبـيرا ضخما لعبت فيـه الحكاية ما شاء لها خيال كاتبيها فى انطلاق ويسر .. فالمـادة متوافرة والأحداث كثيرة ، وانا أريد فى هـذه الحولة ايضا أن نكشف معا السمات العامة التى اختارها اصحاب هده المرحلة التى نتحدث عنها ، أعنى مرحلة التجميع ..

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة ذى القرنين

والقصة التى اقف عندها من قصص اهل الجنوب واحدة مما كتب وهب بن منبه فى كتابه التيجان ، وهى **قصة ذى القرنين** .. وذو القرنين تقدم كثير من المفسرين ليؤكدوا انه الاسكندر المقدونى أو الرومى كما يسمونه ، فيفصلونه بهذا فصلا عن دائرة الأسطورة العربية .. أما وهب فيقدم اسطورة متكاملة عن ذى القرنين* الذى هو الصعب بن الحارث الرائش الحميرى ، ويسارع وهب مقدما بين يدى قصته حديثا عن على بن أبى طالب انه قال (حدثوا عن حمير فان فى أحاديثها عبرا) .. ولعله يشير بهذا الى ما فى القصة التى يحكيها عن ذى القرنين من مضامين ودلالات ، وربما كان يريد ان يؤكد ان ذا القرنين هو هذا الملك الحميرى لا سواه .. على أية حال فالأسطورة كما قلنا متكاملة وتسير الى مدلول درامى له اهميته .. وسأحكى لك القصة متوخيا قدر الامكان أسلوب وهب مع قليل من الحذف والتصرف .

قال وهب : وولى الملك الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش وتجبر تجبرا لم يكن فى التبابعة متجبر مثله ، ولا اعظم سلطانا ولا اشد سطوة ، وكان له عرش من ذهب صامت مرصع بالدر والياقوت والزمرد والزبرجد ، وكان يلبس ثيابا منسوجة من الذهب منظومة درا وياقوتا ، فبينما هو فى ذلك المكان

اذ راى رؤيا كأن آتيا أتاه فأخذ بيده وسار به جبلا عظيما مخيفا لا يسلك فيه سائر من هول ما راى اذ اشرف على جهنم وهى تحته تزفر وأمواجها تلتطم وفيها قوم سود تتخطفهم النيران من كل جانب .. (فقال له الصعب) : من هؤلاء ؟ (قال) الجبابرة ، فاخلع يا صعب رداء الكبر وتواضع لله يعطك عــزا أعظم من عزك ، وهيبة أجل من هيبة الكبر . فاختر لنفسك اى المقامين احب اليك .

قال وهب : فلما أصبح برز للناس بعد الحجابة ، ونواضع وانبسط بعد العز والقسوة ، وجلس بين الناس ودخل فى قلبه وحشه خوفا من الله .. ثم أمر بعرشه فأخرج ثم (قال) : ايها الناس اهتكوا ولكل يد ما تأخذ .. فهتك العرش وانتهبه الناس، ثم رمى بثوبه فتخطفه الناس (وقال) : أيها الناس ان الله الجبار يبغض الجبارين ، قهر بالموت من ادعى انه نده ، واذل بالملك من ادعى أنه ضده ، واستأثر بالبقاء بعد ذهاب الأملاء .

وقال وهب : ثم انه راى فى الليلة الثانية كانه نصب له سلم الى السماء ورقى عليه ، فلم يزل يرقى حتى بلغ الى السماء ، فسل سيفه ثم علقه مصلتا الى الثريا ، ثم اخـــذ بيـــده اليمنى الشمس ، واخذ بيده اليسرى القمر .. ثم سار بهما ، وتبعتـــه الدرارى والنجوم . ثم نزل بهما الى الأرض وهو يمشى والنجوم تتبعه .. ولما افاق خرج الى الناس هائما لا يدرى ما هو فيـــه فاستنكر الناس أمره .

قال وهب : ولما كانت الليلة الثالثة راى كأنه جاع جوعا شديدا ،وظهر الى الأرض فصارت لهغذاء ،فأقبل عليها يأكلها جبلا جبلا ،وأرضا أرضا ،حتى اتىعليها كلها ، ثم عطش فأقبل على البحار يشربها بحرا بحرا حتى اتى على السبعة أبحر ، ثم اقبل على المحيط يشربه ، فلما أمعن فيه اذا هو بطين وحماة سوداء لم تسغ له ، فتركه .. ثم أفاق من نومه ، فلما اصبح هام وحار فيما رأى ، وغاب عن الناس لما به .. فقال الناس : يوما يظهر ويوما يحتجب !!

قال وهب : فلما نام فى الليلة الرابعة راى كأن الانس والجن أتوه من الأرض كلها حتى جلسوا بين يديه ، ثم اقبلت الوحوش من الأرض كلها حتى جلست بين يديه ، ثم اقبلت الطير كلها حتى اظلته ، واقبلت الهوام من جميع الأرض كلها حتى حفت به ، ثم أقبلت الرياح حتى استدارت فوقه ، فأرسل أمما من الانس والجن مع ريح الشمال فهبت بهم الى يمين الأرض ، فلما ذهبت امر البهائم والانعام فذهبت بهم الرياح فذهبوا فى سبل الانس والجن ، ثم أمر الطير ، فذهبت بها الرياح فى الوجوه الأربع .. ثم أمر الرياح ، فذهبت بالوحوش ، وحبس سباعها تحت قدميه .. ثم أمر الرياح فذهبت بالهوام فى سبل من مضى من جميع من أرسل . فلما اصبح غلب عليه هول ما رأى فى الرؤيا الأولى والثانية والثالثة والرابعة ، فأرسل فى وزرائه واهل مشورته ووجوه قومه فجمعهم ، ثم قص عليهم ما راى وطلب منهم تفسيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويمضى وهب يحكى حيرة القوم ودهشتهم وجهلهم بتفسير هذهالرؤى الغريبة، الى أنيقوم له شيخ له عقلودين، وقد جرب الأمور وحنكته الدهور،فيقول له أن ليس على الأرض من يفسر ما راى الا نبى ببيت المقدس من ولد اسحاق بن ابراهيم الخليل .. ويعزم الصعب على الذهاب الى هذا النبى بحثا عن تفسير ما راى ، فيحشد جيشا زاخرا لجبا ، ثم مضى فى طريقه مارا بمكة البلد الحرام ، فمشى فى الحرم راجلا حافيا ،وطاف بالبيت وحلق ونحر ، ثم ركب وسار الى بيت المقدس ، فلما نزل به سأل عن النبى الذى ذكر له حتى ظهر له ،وهو موسىالخضر (قال له): ايوحى اليك يا موسى ؟ قال نعم ياذا القرنين ، (قال له الصعب): وما هذا الاسم الذى دعوتنى به ؟ (قال له) أنت صاحب قرنى الشـــمس ..

قال وهب : ثم قص عليه ما راى فى نومه (فقال له) : ان الله مكن لك فى الأرض ، واعطاك من كل شىء سببا . فأما جهنم فقد انذرت ، فانتبه . فأما طلوعك الى السماء فهو علم من عند الله تدركه . وأما الشمس والقمر والدرارى والنجوم ، فانه لايبقى معك فى الأرض ملك الا خلعته ، ولا رأس الا اتبعك . وأمـــا الأرض التى اكلتها الى غايتها فلم تبق منها شيئا ، فانك تملك الأرض ومن عليها .. والسبعة بحار التى شربتها فانك تركب السبعة ابحر وتملك جزائرها .. وأما البحر المحيط فانك تركبه وتبلغ منه غاية حتى يأتيك عكر لا تســـتطيع أن تعبره ، فترجع دونه .. وأما الأنس والجن ، فانك تنقلهم فى الأرض من مكان

الى مكان ، نحول اهل المغرب الى المشرق . وأهل المشرق الى المغرب . واهل يمين الأرض الى شمالها . وأهل شمال الأرض الى يمينها .. وأما الأنعام والبهائم ، فانها تسخر لك .. وأما الوحوش والطير والهوام ، فانها نسخر لك لا تضر شيئا فى زمانك ، وحيث ما شئت عقدتها فبيدك زمامها . وأما الرياح ، فانك تملك عقدها ، تصرف ضرها عن اى بلد شئت . وأما رؤياك انك طفت بالشمس والقمر فى الأرض ، فانك ستجاوز مغرب الشمس وتصير فى ظلمة لا تهتدى الا بما فى يديك من العلم .. فانهض بأمر الله واعمل بطاعة الله ، فان الله يغنيك ويسددك ويوفقك ..

ثم يمضى وهب يحكى رحلة ذى القرنين الى مغرب الشمس ومعه الخضر وهو يطأ الأرض بالجنود ، يقتل ويسبى وينقل الناس من ارض الى أرض ، ثم تمضى به الرحلة الى ارض الحبشة ، ثم الى ارض السودان ، ويرى فى رحلته قوما بكما لا ينطقون ، وقوما زرق الأعين . ثم مر بقوم آذانهم كآذان الجمال . واستمرت به رحلته الى قوم آذانهم كبار من أعلى راس احدهم الى ذقنه .وهو عند كل قوم يقتل من كفر ويعفو عمن آمن .. ويستمر فى رحلته الى أن يبلغ الأندلس . ورام ركوب البحر المحيط ، فزفر عليه البحر وصار كالجبال الشم فبنى منارة وجعل عليها صنما من نحاس عقد بها عاصفات الريح ، ثم سكن البحر فلان ، فركبه وسار بجميع جموعة ، ثم طغى عليه البحر فبنى منارة اخرى ، ومضى فى سيره ، حتى انتهى الى عين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشمس ، فوجدها تغرب فى عين حمئة فى البحر المحيط ، ووجد من دونها جزائر فيها أمم لا يفقهون ما يقولون ولا ما يقال لهم.. وسار حتى بلغ وادى الرمل ، واقبلت الشمس حتى سقطت فى العين الحمئة ، فكاد يهلك ويهلك جميع من معه من حر الشمس .. فلما اتى وادى الرمل ، وجده يسيل بالرمل كالجبال الرواسى ، فرام أن يعبره فلم يطق .. واخذ يرسل بأصحابه يكشفون له الطريق واحدا اثر الآخر وهم جميعا لا يرجعون .. فقال له الخضر : يكفيك يا ذا القرنين .

وتمضى الرحلة بذى القرنين حتى يبلغ الظلمة فصار ليله ونهاره واحدا ، وعين الشمس تسقط خلفه . ثم سار فى واد تزلق فيه الخيل والجمال ، وهو وادى الياقوت ، من اخذ منه ندم على انه لم يأخذ زيادة عما اخذ ، ومن لم يأخذ ندم على انه لم يأخذ من ياقوته مايغنيه. .ثم انتهى الى الصخرة البيضاء حيث مات رسول ابراهيم عليه السلام الى هؤلاء القوم من قبل ..

يقول وهب : ثم دنا ذو القرنين من الصخرة ليرقى عليها فانتفضت وارتعدت وتقعقعت ، فرجع عنها فسكتت . ثم حاول العودة، وهو فى كل مرة يلقى منها هذا الصوت وتلك الحركة.. ثم دنا منها الخضر فسكتت فرقى عليها ، فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر اليه ، والخضر يطلع الى السماء حتى غاب عنه . فناداه مناد من السماء أن امض أمامك فاشرب فانها عين الحياة وتطهر فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ، ويموت اهل السماوات والأرض فتموت حتما مقضيا .. فمضى حتى انتهى

الى راس الصخرة ، فأصاب عينا ينزل فيها ماء من ماء السماء فشرب منه وتطهر .. فلما رجع الخضر الى ذى القرنين قال له : يا ذا القرنين انى شربت من ماء الحياة وتطهرت منه ، واعطيت الحياة الى يوم النفخ فى الصور ثم أموت ، ومنعت انت ذلك ، ولك مدة تبلغها وتموت ، فارجع فليس بعدها مزيد لانس ولا جن..

وظل ذو القرنين فى مكانه زمنا الى أن أتاه الأمر فى رؤية له اثناء نومه أن يتجه نحو مشارق الأرض .. ثم عاد الى الأندلس ومنها برا الى الشام ، بينما عبر الخضر البرزخ وسار الى الشام . وهما يقتلان كل كافر فى طريقهما ، الى ان التقيا مرة ثانية ، فسارا معا يريدان مطلع الشمس ..

قال وهب : وسار ذو القرنين حتى بلغ المحيط من عجز الأرض تحت بنات نعش ، فأصاب فيها أمما فحملهم على الايمان، من آمن نجا ، ومن صدف عن الحق حمله على السيف . ° عطف على الجزيرة ومضى الى العراق يدعو ويقتل . ثم قصد أرض فارس الى جبل الصخر ، فلاح له القصر الأبيض وهو قصر عابر ابن شامخ ، ثم نزل على القصر ودخله فرأى فيه أعاجيب شتى. فكان يرى من يمشى فيه من داخل القصر ، كما يرى من فى مجالسه من ظاهرها .. ثم سار حتى بلغ فجا عظيما بنهاوند . ثم لقيته جبال شم منيعة بينها شعاب عظيمة ، كل طريق منها يؤدى الى امة ، فمضى فى هذه الطرق يحمل كل هذه الأمم على الايمان حملا بالسيف . ثم دخل ارض يأجوج ومأجوج . فلم يزل يأخذها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرضا أرضا ، وامة امة حتى انتهى الى الأرض الشماء ، فلم يزل يخرقها بالطرق وهى جبال شم شوامخ حتى غلب عليهـــا . وبلغ الأرض الهامدة فافتتحها ، وهى أرض مبســـوطة لا ربوة عليها ، ثم غلب على من بهـــا ، وبلغ جزائر الأرض التى تزاور عنها الشمس عند طلوعها . فوجـــد عندها قوما صغار الأعين صـــغار الوجوه ، مشـــعرين ، وجوههم كوجوه القرود ، وهم لا يظهرون فى النهار وانما يظهرون فى الليل . وسار فى أرضهم حتى بلغ أطراف جزائر المحيط ، فأصـــاب بها أمما من يأجوج ومأجوج ، وهم قوم سود ، زرق الأعين ، طوال الوجـــوه ، طوال الأنوف ، تشبه وجوههم وجوه الخنازير ، وهم يختفـــون فى النهار من حر الشمس ، فدعاهم وآمنوا ..

قال وهب : ثم ركب البحر المحيط فسار فيه حولا حتى لج فى الظلمات ، وترك الشمس عن يمينـــه ودخل أرضا بيضـــاء كالثلج . وعليها ضوء ليس كنـــور الشمس ، نـــور أبيض يكاد يخطف الأبصـــار ، فرام أن يمشى ، فســـاخت بهم الدواب الى الصدور . فترك عساكره كلها ومضى وحده ، حتى أشرف على دار منردة بيضاء فيها ببت واحد ، وعلى باب الدار رجل ابيض واقف ، وعلى سطح الدار آخر فى يده مزمار وعيناه الى السماء ، فقال له الذى على الباب : الى أين تريد يا ذا القرنين الم يكفك ارض الانس والجن حتى اتيت ارض الملائكة ؟ فيسال ذو القرنين والملاك يجيبه ، فاذا به يعلم أن هذه أرض الملائكة ، وان هـــذا الذى يقف بسطح الدار انما أوحى اليه ان يرى ذا القرنين كيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينفخ اسرافيل فى الصور ..ويعطيه الملاك عنقودا من عنب ويأمره ان يأكل منه هو وعسكره ، واعطاه حجرا كالبيضة ، وقال له زنه بما ترى عينك من الدنيا ، فان لك فيه عبرة ، وأمره بالعودة ، فعاد الى عسكره .

قال وهب : واكل ذو القرنين العنقود ، واكل العسكر كلهم ، والعنقود لا ينقص ، حتى بلغ ارض العمار . ثم اخذ الحجر فوزن به كل جواهر الارض ، فرجح الحجر ، فلم يزل يزنه بالحجر العظيم ، والحديد الكبير ، والحجر يرجح كل شىء،والخضر ينظر اليه ساكتا . فسأله ذو القرنين عن امر الحجر ، فقال الخضر: هذا الحجر مثل لعينك ، لم يملأ عينيك جميع ما فى الأرض مثل هذا الحجر الذى لم يرجح عليه شىء فى الأرض .. ولكن هذا يملؤها .. ومد يده فاخذ قبضة من ترايب فجعلها فى الكفة وجعل الحجر فى الكفة الثانية ، فرجح عليها التراب وخف الحجر. وقال الخضر : هذه عينك لا يملؤها الا التراب وهو الغالب عليها اما العنقود فهو حلاوة الدنيا مهما اكلت منها ومهما اكل جندك فهى لا تنفد ولا تزول ابدا .

وتمضى القصة بنا مع ذى القرنين حتى يبنى سدا بين الناس وبين ياجوج وماجوج . ونسير معه فى أرض الهند وسمرقند وارض الصين والسند ، وهو يقاتل الكافرين ويحملهم على الايمان بحد السيف، ثم سار يريد ارض تهامه والحجبمكة ، فلما صار من رمل العراق بموضع يقال له (صنو قراقر) راى من الأسباب انه يموت فى هذا المكان ، فلما رأى الموت ونعيت اليه نفسه اعلمبذلك

الخضر ». ومرض سمانى ليال ثم مات . ثم غاب الخضر فلم يظهر الى أحد بعده الا الى موسى بن عمران النبى .

* * *

قصة ذى القرنين التى حكيت لك نقــلا عن وهب بن منبه تعرض للانسان فى أعلى مراتب قوته وعظمته .. فى نومه ترشده الأحلام الى خطوات غده ، وترسم له طريقه .. وفى اليقظــة يسير الى جواره نبى هو الخضر عليه السلام يفسر له ما غمض عليه من أمر ، ويسهم معه فى تحقيق رسالته .. ومن حــوله سخرت له كل القوى ، وذلل له كل صعب ، وبلغ من العز والجاه ما لم يبلغه أحد من الملوك .. فرأى آيات الله بينـــات واضحات فآمن به ، فكرس كل قوته فى نشر الايمان به والتصديق له حتى بلغ أطراف الأرض جميعا ، احتــل منها كل ما على سطحها ، وبسط سيفه فى كل أجناسها ، يدعوهم الى الايمان ، فمن آمن سلم ، ومن كفر قتله ، حتى يبلغ مغرب الشمس ، ثم يعــود ليبلغ مطلع الشمس. بل ويجوز أرض البشر الى أرض الملائكة..

هذا الملك رغم قوته التى استمدها من كل مظاهر القوة.. من الغيب الذى يعرفه فى أحلامه ، ومن حكمة الأرض التى تتمثل فى مرافقته الخضر ، ومن واقع حياته بما له من جيــوش جرارة وأعوان لا يحصيهم العد .. ماذا فعل بكل هذا الملك العريض؟ وماذا حصل من علم ومعرفة بعد كل هذا العناء ؟ ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصة تقول انه تعلم حقيقة واحدة .. وهى أن مصيره التراب والفناء كغيره من البشر . فهو لم يستطع أن يجتاز عتبات الخلود مرتين .. الأولى عند مغرب الشمس حين صادف جبل الصخرة ، فأبى الجبل أن يكون له مرتقى ذلولا ، بل أن واهتز وصدرت منه أصوات مخيفة فتراجع عنه ، بينما رقيه الخضر ليصل الى قمته حيث يشرب من ماء الخلود ، ويعود الى ذى القرنين وقد نال ما لم يستطع الملك الجبار أن يحصل عليه .. والثانية فى مطلع الشمس حين يصل الى أرض الملائكة حيث يجد ملاكا يذكره بوقفته بالفناء ، فهو يتطلع الى السماء نافخا فى مزمار ، وكأنما يقول له ما العالم كله الا الى فناء يوم ينفخ فى الصور ، وحيث يجد ملاكا آخر يعطيه حجرا يزن كل أثقال الأرض ويرجح عليها ولكنه لا يرجح حفنة من التراب .. ويفسر له الخضر الأمر بأن الحجر عيناه التى لايملؤها كل ما فى الأرض من كنوز ولكن يملؤها التراب . وما يمر قليل زمن حتى يموت وينتهى .

والقصة كما ترى تبرز عجز الانسان وقصوره . تبرز القيد الرهيب الذى لا يستطيع أن يجد منه خلاصا ، فهو يتخبط فيه أبدا بلا فكاك . هذا القيد هو طبيعته الانسانية التى هى التراب والى التراب تعود . ومنزلته لا يمكن أن تصل الى منزلة الأنبياء الذين يمكن أن يخلدوا بأمر ربهم الى يوم القيامة ، ومنزلته أيضا لا يمكن أن تصل الى منزلة الملائكة الخالدين أبدا يحفون بعرش الله ..

فما هو السبيل ؟ ..

الزهد مثــلا ! لقد لجأ ذو القرنين اليه فهتك عرشه ورمى ثوبه وترك الناس تتخطفه وتأخذ كل ما يروقها منه . ولــكنه سرعان ما يرى فى نومه أنه يرقى الى السماء حيث يعلق سـيفه مصلتا على الثريا ، بينما يأخذ الشمس بيمينه ، والقمر بيساره ، ويسـير تتبعه باقى النجوم .

فهو المجد اذن . ؟ ولكنه يفتح العالم ، ويحصل على ما لم يحصل عليه بشر من المجد والرفعة ، ثم يموت كما مات غيره ممن لم يفعلواشيئا ، ولم يصلوا الى تحقيق شىء مما حقق ..

العبادة والطاعة . ؟ ومن مثله أرغم أمم الأرض جميعــا على عبادة الله ، وقتــل من كفر فى كل البلاد ، من هم اسوياء الخلقة ومن لهم وجوه كوجوه القرود ، ومن لهم وجوه كوجوه الخنازير ؟

فما الأمر ؟ الأمر أن الانسان عاجز مهما امتدت له أسباب القوة ، جائع نهم مهما اكل من الأرض وشرب بحارها ومحيطاتها، ضعيف مهما سخرت له الرياح والحيوانات والهوام وكل القوى، قاصر مهمــا بلغ علمــه كل ما على الأرض من أمم وما فوقهــا من جبال وانهار وصحراوات .. الأمر انه اسير ما ركب فيه من عناصر، لعل اخطرها عليهواكثرها قوة فى توجيهه ،عنصر الفناء .. فهو لن يهرب منه حتى لو وصل الى مغرب الشمس ، وهو لن يفلت منه حتى لو وصل الى مطلع الشمس . وهو لن يخدع مصيره حتى لو ذلل كل الأرض بسيفه ، ولن يعفى منه حتى لو زهد فى كل شىء وترك كل نعيم .. الأمر أن الانسان لن يستطيع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يتغلب على قصوره وعجزه ، وأنه يتخبط فى هذا القصـــور والعجز أبدا ، بلا فكاك .

هذا المعنى الدرامى واضح وضوحا كاملا فى القصة منذ بدايتها ، ويسير معها حتى نهايتها ، وهـــو يتضح فى عديد من أساطير العرب وقصصهم ، فلقمان بن عاد الذى سمته حمـــير (الرايش) لأنه كان متواضعا لله ولم يكن متوجا. يقول وهب عنه انه كان يدعو الله قبل كل صلاة سائلا اياه (عمرا فوق كل عمر) فنودى قد أجيبت دعوتك وأعطيت سؤالك . ولاسبيل الى الخلود، واختر ان شئت بقاء سبع بقرات ، وان شئت بقاء سبع نوايات، وان شئت بقاء سبعة انسر كلما هلك نسر عقب بعده نسر ، فكان انه اختار بقاء سبعة انسر . ولقمان لم يقض عمره هذا فاتحا غازيا ، وانما قضاه ينشر الحكمة ويحق العدل ، ويرسم للنـــاس طريق الصلاح والسداد .. ويمر نسر ونسر الى سبعة أنسر ثم يموت . فالفناء اذن مدرك الانسان مهما عاش ، ومهما امتد به الأجل . والرجل الذى أحق كلمة الله فى الأرض بسيفه ، ينتهى الى نفس نهاية الرجل الذى أحق كلمة الله بعدله وحكمته .

وشبيهة بهذه النهاية نهاية (ناشر النعم) الذى قام برحلات تشابه تلك التى قام بها ذو القرنين وينتهى نفس النهاية .. وناشر النعم هذا هو (تبع الأكبر) . ثم هى تشبه نهاية قصة ابنه (شمر يرعش) الذى خرج فى عسكر لم يجمع أحد مثله منذ ذى القرنين ففتح العالم كله ودانت له أمم الارض ، وأصبحت تأتيه بالجزية وهى صاغرة .. ثم كانت النهاية ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والواقع أن القاص العربى انما يحاول قاصدا أن يدفعك دفعا الى أن ترى هذه الوقفة الدرامية ، التى يقفها الانسان قادرا كل القدرة ، وعاجزا كل العجز فى نفس الوقت . وكأنما هو قصد قصدا الى الوصول الى هذا المضمون فى وضوح لا لبس فيه .

وحينما يتقدم الزمن وتمر على جمع هذه القصص فى كتاب التيجان قرون ، تخرج لنا القصة العربية سيف **بن ذى يزن** ، تكاد تحمل نفس السمات ونفس المضمون ..

فسيف ملك حميرى يخرج من الجزيرة ليخضع العالم للايمان ، فيملك العالم كله ، ويحارب الأحباش على ماء النيل فيجريه ، ويسخر الله له الانس والجن ، ويعطيه القوة الجسدية الهائلة والأعوان الشجعان ، ثم هو يعطيه طاعة الحكماء وأهل العلم من أبناء عصره .. وهو يعطيه أيضا طاعة القوى الخارقة كالجن السحرة .. بل ان سيف بن ذى يزن يلقى فى القصة الخضر عليه السلام وغيره من المؤمنين المخلدين فيساعدونه وينجونه من المآزق ومواقف الخطر .. ثم يموت ليدفن فى جبل الجيوشى بالقاهرة .. وكأن رحلته ما كانت ، وكأن حربه ماقامت ، وكأن كفاحه ما وجد ..

والواقع أن قصة سيف هذه تكاد تشبه فى سبرها ومضمونها قصة شمر يرعش ، فهو الذى يحارب الأحباش على ماء النيل ويستخلص منهم مصر .. وهو الذى يخوض حربا كبيرة ضد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحباش التى تتكالب عليه ، فينتصر عليها مثبتا الملك العربى الحميرى ..

وكتاب وهب بن منبه التيجان يورد فى آخر فصوله التى جاءتنا قصة ملك حميرى هو سيف بن ذى يزن وهو آخر ملوك التبابعة ، الا ان سيرة هذا الملك تبعد البعد كله عن القصة التى عرفها الشعب العربى باسم قصة سيف بن ذى يزن .. فسيف فى رواية وهب كان واليا على بلده من لدن كسرى ، وقد استعان بالفرس على اخراج الأحباش من بلده .. ولعل خيال القاص العربى فيما بعد قد اختار هذا الاسم لانه اسم آخر الملوك التبابعة ، ثم اختار من حيوات اسلافه ما يكمل به القصة ..

ودراسة سيف كملك له تاريخ معروف ، ثم دراسته كبطل اسطورى كتبت عنه ملحمة نثرية كبيرة وضخمة ، كفيل بأن يبرز لنا ملائح فن القصة العربية وملامح جهد مؤلفيها، واصولها الفنية.

واحسب أن نفس الجهد لو بذل فى دراسة شخصية عنترة الشاعر العبسى المعروف صاحب المعلقات ، دراسة مقارنة بشخصية عنترة بطل السيرة الشعبية المعروفة باسمه، كفيل بتحقيق نفس الغاية وابراز ملامح فن كتابة الرواية أو السيرة الشعبية العربية بصفتها فنا عربيا مميزا ، حقق ذاته فى أكثر من عمل بقيت رغم الزمن ورغم الموقف المتعسف الذى وقفه الدارسون والنقاد منها ..

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب من كتب ..

حاولت فى الواقع فى تتبعى هـذا الطويل لبعض القصص التى جمعها وهب فى كتابه أن أشير الى الدلالات الانسانية العامة التى تهدف الى ابرازها هذه القصص .. وكنت بهذا احاول أن اثبت أن العرب حين عرفوا القصص لم يقفوا به عند حد الرواية الشيقة الممتعة التى تحكى حكمة أو تذهب مثلا وحسب ، وانما هم عرفوا من القصص ما له من المحتوى الدرامى ما يحاول أن يكشف عن النفس الانسانية فى جوهرها الحقيقى ، وما يحاول أن يرسم الصراع الذى يخوضه الانسان ليحقق ذاته ويجد نفسه..

وكتاب التيجان واحد من الكتب القلائل التى وصلتنا لتمثل هذا العصر ــ عصر التجميع ــ وهو يشير اشارة قوية الى وجود ثروة طائلة من هذا القصص الكبير الخالد ..

ولعلك تلاحظ اننى حدثتك من خلال الكتاب قبل أن احدثك عن الكتاب نفسه . ولعلنى قصدت الى هذا قصدا ؛ لأنى احسب أن ما أضاع قصصنا العربى كله هو هـذا الذى انصرف اليـه الباحثون من الحديث عن الكتاب لا من الكتاب .. بل هم حين اخذوا من الكتاب اخذوا الشواهد من شعر وخطب ، واهملوا هذا القالب القصصى الذى جاءت فى سياقه هذه الشواهد التى اخذوها .. ثم وقعوا بعد هذا كله فى حرج ، فما هذه الكتب الا

كتب قصص لم يقصد منها جمع ديوان العرب ، ولا رصد انتاجهم في الخطب .. وهكذا تولد الشك في أن تكون هذه الشـــواهد منتحلة ، ودار الجدل العنيف حول هذه القضايا الفرعية ، دون عناية حقيقية بالقضية الأصلية . وهى قضية ما فى هذه الكتب من قصص لها دلالات ، بل وقبل أن تكون لها دلالات هى جـــزء خطير وهام من تراثنا الأدبى ..

أما الكتاب الذى نحن بصدده فنحن نرجح انه الف مرتين ، الأولى حين رواه وهب بن منبه ، والثانية حين كتبه أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى سيرة ابن اسحق .. ونحن نعنى بـــكلمة التأليف هنا الجمع والترتيب والصياغة .. فلا شك أن وهبا كان يجمع ما يقع له من قصص ملوك حمير وما وعتـــه ذاكرته مما عرفه اما عن طريق الرواية ، واما عن طريق القراءة .. فأنت تلحظ فى الكثير من قصص الكتاب أنها تكاد تكون مختصرا لأصل أكبر حجما ، واكثر تفصيلا .. تلمح هذا مما يعرضه اثناء روايته للقصة من حوار تحس به مقطوعا لم يوصل ، أو لما يلجأ اليـــه من ايجاز فى بعض مواضع القصة بينما تسير باقى أجزائها فى أطناب يعنى بكل التفصيلات والجزئيات ..

والأصل فى هذا الجزء انه رواية تعتمد على ما قراه وهب من كتب ، فهو يقول فى الصفحة الثانية من طبعة حيدر اباد : « قرات ثلاثة وتسعين كتابا مما انزل الله على الأنبياء فوجـــدت فيها أن الكتب التى انزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا ، انزل صحيفتين على آدم بكتابين ، صحيفة فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنه وصحيفة على جبل لبنان .. وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى نوح صحيفتين ، صحيفة قبل الطوفان وأخرى بعد الطوفان ، وعلى هود أربعا ، وعلى صالح صحيفتين ، وعلى ابراهيم عشرين صحبفة ، وعلى موسى خمسين صحيفة وهى الألواح ، وعلى داود الزبور وعلى عيسى الانجيل وعلى محمد الفرقان » .

ويبدأ وهب قصصه منذ خلق الله الكون ، وتحكى قصصه خلق الحيوانات والسماء والملائكة والنجوم والجنة والنار ثم ابليس والجان من شرار النار ، ثم خلق الأزمنة وقسمها ثم خلق الأرض .. ثم كيف غضب الله على الجان فأخرجهم من الجنة واسكنهم الأرض فى جزائر البحار وقفار الأرض .. ثم تمضى القصص لتصل الى خلق آدم ، وبعده الى خلق حواء .. ويقف الكتاب بعد هذا مستأنيا فى قصة خلاف قابيل وهابيل ، يقف وقفة الفنان الذى يختار المواقف التى يستطيع أن يبرز فيها معانى انسانية مشتركة وعامة .. ويستمر بعد هذا متتبعا تطور العالم وبلبلة الألسنة ونشأة اللغة واختلاف الأجناس .. وحين يصل من كتابه الى صفحة (٥١) يبدأ فى كتابة سير ملوك حمير ملكا ملكا ..

ووهب يرجع الى بعض معاصريه من الرواة والقصاصين فى أجزاء كثيرة من قصصه .. ولكنه لا يرجع اليهم الا فيما له علاقة من حيث الزمن بالعصور الاسلامية . فهو يرجع الى كتب الأخبار فى رواية عن سليمان بن عبد الملك بن مروان . وهو فى

بعض الاحيان لايذكر من يرجع اليهم من معاصريه كقوله فى اول قصة ذى القرنين « رفع الحديث الى امير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه انه قال : حدثوا عن حمير فان فى احاديثها عبرا » ..

فمصادر وهب اذن هى القراءة والرواية معا .. والدكتور حسين نصار فى كتابة (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) يأتى برواية ابن سعد فى طبقاته عن الكتب العديدة التى قراها وهب ويعقب على هذه الرواية قائلا « ولكننا نميل الى الشك فى هذا الصدد ، ولعله استقى اغلب هذه الأخبار من اهل الكتاب الذين اتصل بهم فى موطنه اليمن ، الذى اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه » وربما كان الدكتور نصار متاثرا فى هذا النفى بالفكرة الشائعة عن عدم معرفة العرب للكتابة ، ولكن ورود النص الذى اوردناه عن وهب بن منبه نفسه فى صدر كتابه دليل واضح على معرفته القراءة ، وعلى وجود صحائف قراها .. وسواء كان صادقا أم كاذبا فالذى لا شك فيه أن القراءة كانت أحد مصادر ما جمع من قصص وما قدم من حكايات .. ذلك ان الرواية تعنى فى اغلب الأحيان بالحدث ذاته ، وهى ان خرجت منه بدلالة فهى انما تخرج بدلالة سطحية عابرة ، اما الاعتماد على الكتابة فهو يعنى دلالات اعمق واكثر خطرا ، وقد يكون هذا الفرض خاطئا ولكنى أحب أن اسوقه لما فيه من نسبة من الترجيح تعزز ما نراه من عمق دلالات القصة العربية التى دونت فى هذا العصر ،عصر التجميع ..

والأصل فى قصص وهب كما نرى أنها روايات عن ملوك غابرين من ملوك اليمن . والواقع أن ملوك حمير كانت لهم اهميتهم فى حياة الشعوب قبل ما نعرفه من تاريخ العرب .. وليس لنا من ادلة الا ما تسوقه امثال هذه القصص التى يحكيها وهب ، وما ورد فى قصص الأمم التى عاشت معهم فى حقبة زمنية متقاربة ، فالدكتور يحيى الخشاب يقص فى كتابه (حكايات فارسية) فى القصة المعنونة بقصة (العلم الايرانى) والأخرى التى تروى اعياد الفرس ، أنه فى عصر (جمشيد) كان بجوار بلاد الفرس فى بلاد حمير ملك عربى عظيم « كانت أخباره تسير فى ايران ، فيعجب اهلها بعدله واستقامته وحسن سيره فى رعيته وكان التجار يفدون من حمير على ايران فيقصون على أهلها من عظمة (مرداس) وحب الأعراب له ما كان يقربه من قلوب الايرانيين ويمكن له فى قلوبهم، وكانوا ينتقلون من ايران الى بلاد حمير فيتحدثون فيها عن جور جمشيد وبغيه وغروره ومحاولته قهر الفرس على عبادة تماثيله، ثم يظلون فى اغراء لمرداس حتى يغزو ايران ويقتل جمشيد ، اذ قطعه نصفين بعظم سمكة .. وتمضى القصة فتقول ثم يظلون فى اغراء لمرداس حتى يغزو ايران ويقتل جمشيد » وولده الذى يليه فى الحكم يعتبر من ابناء بنات الايرانيين ، ولذا فان جيوشه قوبلت بالترحيب فى ايران » .. وما تنتهى القصة الا وقد أصبح ملك حمير ملكا على ايران ثم يقتله ابنه بيورست ليغدو ملك حمير وايران ..

فأساطير الفرس اذن تثبت هذه الحضارة العريقة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت لملوك حمير ، بل ننبت الى جوار هذا ما كانت بلادهم تتمتع به من رخاء وأمن وعدالة ، ولعلها تثبت أيضا ما كان لهم من نفوذ وسطوة ، وما قاموا به من فتوحات ..

وهناك شيء هام وخطير الدلالة في هذه الأساطير الفارسية، فالأسطورة التى تتناول حياة جمشيد تأخذ أشياء كثيرة من قصة سليمان التى يرويها وهب .. فهى تأخذ مثلا حكاية الخاتم الذى كان يلبسه فيسخر الجن ويخضع الطير ، فكلاهما ــ سليمان وجمشيد ــ كان يملك هذا الخاتم .. وفى القصة العربية يفقد سليمان الخاتم عندماينسى ذكر الله يلهيه عنه رؤيته للخيول الخضر، خيول الماء .. أما فى القصة الفارسية ، فجمشيد يفقد الخاتم بحيلة ملك البحر (صخر) الذى يسرقه من الأمينة عليه .. والنتيجة فى القصتين متشابهة ، فسليمان يتوه فترة من الزمن، بينما يتولى مكانه شيطان يتزيا بزيه ،وجمشيد يخرج من قصره وقد تغيرت صورته وراح يلتمس الرزق فى معاونة الصيادين فى البحر . وفى القصة العربية يعود الخاتم لسليمان بعد أن علمه الله ان الملك لا يدوم لأحد ، أما فى القصة الفارسية فجمشيد يعثر على الخاتم فى سمكة يصطادها .. وفى فترة غياب الاثنين يحكم الشيطان مكانهما ويستحل مالهما ونساءهما.. ثم تبرز فجأة نقطة التقاء واضحة حين تذكر القصة الفارسية أن وزير جمشيد اسمه آصف.. بينما تذكر القصة العربية أن وزير سليمان اسمه آصف ابن برخيا ..

ثم تفترق القصتان، لولا أن نهاية جمشيد تأتى على يد بطل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمير وبرضاء من أهل ايران .. وهذا الجزء من الارتباط يشير بوضوح الى أن الأصل هو القصة العربية ، والصورة هو القصة الفارسية . فبينما القصة العربية تسير على نمط باقى القصص التى رويت عن ملوك حمير ، نرى القصة الفارسية تستورد بطلا حميريا تختم به حوادثها .. ونستطيع ان نقول ان الفرس عرفوا فيما عرفوا عن ملوك حمير هذه الأساطير ، فنقلوا منها ما زودوا به قصصهم .. والواقع أن فكرة نقل العرب فى قصة سليمان عن الفرس لا تنهض أمام المناقشة ، فالجزء المشترك ليس أساسا فى القصة العربية بينما هو جوهر فى القصة الفارسية .. والقصة العربية تخلو من كل سمات اتصال بالفرس ، بينما القصة الفارسية تعتمد فى كثير من أجزائها على علاقة متينة بالدولة الحميرية وملوكها .. وهى تعترف باحتلال عربى لايران استمر زمنا .. بل ويدخل أحد ملوك حمير أساطير الفرس باسم الضحاك العربى ..

والواقع أن هذه النتيجة لو صحت — وهى تحتاج الى عدة دراسات مقارنة لاثباتها — لأمكن لبعض المسلمات أن تعود الى مجال البحث والمناقشة من جديد .. من هذه المسلمات مثلا أن معظم الأساطير العربية تعتمد على أصل فارسى .. ولعل هذا الافتراض الذى سلم به كل الباحثين يعود الى أن الأساطير الفارسية عثر عليها واستغلها الباحثون ووجدوا فيها سمات متشابه مع ما للعرب بعد الاسلام من أساطير وقصص .. ولكننا بعد هذه النتيجة نتساءل ، الم تكن الأساطير العربية امتدادا طبيعيا لما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرفوه قبل الاسلام من أساطير عن تاريخهم وحياتهم ، أخذ منها الفرس ما عادوا فردوه الى العرب ؟ . على أية حال احسب اننا استطردنا فى هذه النقطة طويلا ، وكل ما كنا نريد أن نثبته منها ان ما يرويه وهب عن ملوك حمير يستند الى اصل أسطورى يتعلق بهؤلاء الملوك ، وأنه لم يكن يؤلف من عنده حكايات مختلقة ، انما كان يروى ما تناقله أهل اليمن عن ملوكهم من حكايات ، وما سطروه فى صحف تناقلوها الى ان وصلت اليه والى غيره من الرواة اليمنيين كعبيد بن شرية الجرهمى مثلا ..

والواقع أن وهبا فى كتابه يحاول أن يلائم بين ما يحكى من تواريخ وقصص ، وبين ما دخل معارف العرب عن طريق الاسلام من قصص ومعتقدات .. فهو يحاول أن يلائم بين ما يرويه ، وما جاء بالقرآن ، فتجده يستشهد بآى القرآن الكريم محاولا التوفيق والملاءمة ، وهو قد حاول هذا فى قصة عاد وثمود ، وقصة ذى القرنين ، وقصة سليمان ، وقصة خلق العالم ، وسفينة نوح ، وغيرها من القصص . وهو يقف عند بعض القضايا التى يوردها فى قصته فيناقشها مناقشة من يحاول اثبات صحة قصته رغم تعارضها مع بعض أحكام الدين .. كمناقشته لحكاية تسلط الشيطان مكان سليمان على ماله ونسائه ، وكمناقشته لما قاله المفسرون عن ذى القرنين من أنه الاسكندر المقدونى مع ماتؤكده قصته من أنه ملك حميرى .. وكربطه بين بعض الأسماء التى يحكى عنها ونسب النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أورد فى قصة الحارث الجرهمى والهميسع الذى هو من جدود النبى صلى الله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه وسلم ، وكما فعل فى قصته عن مضر وأولاده وهى من أروع قصص الكتاب .. وكذلك تشير حكايات وهب الى ما فى الجزيرة من كنوز مطمورة وقبور مختفية مليئة بالآثار التى تنم عن ملوك حمير .. والواقع انك فى قصص وهب هذه تحس بعقلية تحاول بروح عصرها أن توائم بين ما تعرفه وبين ما يجب ان يقال .. وتحاول أن تثبت ما تقول مرة بالبرهان العقلى ، ومرة بالمناقشة ، ومرة بالاستناد لحديث شخصية مرموقة كالنبى صلى الله عليه وسلم او على بن ابى طالب كرم الله وجهه ..

وفى حكايات وهب تلمح اتصالا كبيرا بكل شعوب الأرض من الهند والصين والأندلس والترك والفرس والصقالبة والأحباش والمصريين وسكان الجزائر وغيرهم . مما سبق عصر التدوين ، هذا الاتصال الذى حدث بعد فترة طويلة من ظهور الاسلام وبعد انتشاره بزمن طويل .

هذا هو الجزء الذى رواه وهب ، ثم يأتى بعد هذا دور ابن هشام ، فتراه يخرج من سياق القصة ليضيف شيئا من عنده ثم يعود الى قصة وهب من جديد .. وتراه يضيف هذه الأشياء كانما ليكمل القصة زمنيا . فهو يضيف ما يحس انه يكمل القصة من عند النقطة التى وقف فيها وهب .. أو يضيف الى القصة جديدا لم يعاصره وهب ، وهو يعتمد فى رواياته على مصادر متعددة منها محمد بن اسحق ، ومنها الهمدانى ، ومنها الكلبى ، ومنها حكاية يحكيها هو عن حوار دار بين وهب وعبد الله بن العباس وكعب الاحبار عن ذى القرنين مثلا .. فابن هشام يفرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصيته على الكتاب فرضا ليضيف قضية هنا ، وحكاية هناك، وبيتا من الشعر أو خطبة فى بعض الأحيان .. الا انك لا تلمحه يتدخل فيما يتعلق بالعصور المتأخرة التى تقترب من الاسلام أو التى تدخل فى الاسلام فعلا .

ويقول الدكتور حسين نصار عن وهب وما فى كتابه من شواهد للغات المختلفة « قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية ، وفى نفسنا شىء من معرفته باللغة الارامية والحميرية ، ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى كثير من المراجع بأنه قرأ الكتب أو العديد منها ، وأن تفسيره للكلمات العبرية والسريانية كان صحيحا فى أغلبه ، وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص بين اهل الكتاب وان لم يوجد فى انجيل أو توراة » فوهب اذن ليس مجرد رواية وانما هو انسان يعرف .. أعنى انه يجمع بين القدرة الفنية فى الرواية الدقة فى الرجوع الى الأصل الأسطورى والتحقق منه .. وصاحب العقد الفريد يعتبره فقيه اليمن فى روايته الطويلة عن ابن أبى ليلى عن أسئلة عيسى بن موسى له عن فقهاء عصره اذ سأله: من فقيه اليمن؟ فقال: طاووس وابنه، وابن منبه..

ولوهب أعمال أخرى لم تصل الينا وانما جاء ذكرها فى بعض الكتب فينقل الدكتور نصار عن كشف الظنون نصا يدل على انه ألف كتابا فى المغازى .. كما ينقل عن الأستاذ هوروفتس أنه ينسب لوهب كتاب المبتدأ ، كما يروى عن طبقات ابن سعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن له كتابا يسمى كتاب العباد ، كما ينسب اليه آخرون كتابا بعنوان الاسرائيليات ..

والواقع أن كل هذه الكتب لم تصل الينا وان وصلت الينا صفحات مفردة من كتابه فى المغـــازى .. وربمـــا لو اكتشفت هذه الكتب القت الضوء على كثير من الأساطير العربية التى لم يتسع لها كتابه التيجان .. والواقع أن كتاب التيجان نفســه لم يكن معروفا الى عهد قريب جدا فالأستاذ احمـــد أمين يقول فى صفحة ١٦٩ من كتابه فجر الاسلام « وابن خلكان يقـــول انه راى كتاب وهب بن منبه فى تاريخ اليمن ولكن فى عهدنا هذا لم يصلنا شىء يصح أن يوثق به الا قليلا » ..

وحتى الآن لم يصلنا الا النزر القليل الذى يشير اشـــارة لا تقبل الشك الى تراث حى خطير تبلور فى هذا العصر الـــذى نتحدث عنه ، عصر التجميع . الا اننى لا أحب أن اترك الحديث عن هذه الفترة دون أن أقف قليلا عند كتاب آخر خطير فى دلالته وفى محتواه ، ذلك هو كتاب « اخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وانسابها » .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب أخبار ملوك اليمن

اذا كان كتاب التيجان لوهب بن منبه يعتبر صورة من صور عصر التجميع بما فيه من تدوين لما عرف العرب عن ملوك اليمن من قصص واساطير ، قاصدا فيها المؤلف قصدا الى الاشارة الى المدلول الانسانى العام لهذه القصص والأساطير ، وواضعا ايدينا على الدلالات الدرامية التى تشكل موقف الانسان العربى من القوى المسيرة له والمتحكمة فى مصيره ومستقبله .. فكتاب اخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية الجرهمى يرسم صورة اخرى من صور هذا العصر .. قد تتفق مع الصورة الأولى فى الاهتمام بايراد قصص الأولين واساطير ملوك اليمن ، ولكنها تختلف معها من حيث الهدف والدلالة ، كما تختلف معها من حيث الأهمية والنوع .

فالقصد من هذا الكتاب الذى احب أن أعرضه عليك كنموذج يمثل التيار الثانى فى عصر التجميع ليس الحكاية فى ذاتها ، كما أن القصد منه كذلك ليس ايفاء القصة حقها من حيث دلالتها الانسانية ، وانما القصد من هذا الكتاب شىء آخر .. يمكننا أن نسميه العظة والعبرة ، ويمكننا أن نسميه التربية والتهذيب اللذين تعتمد عليهما القصة .. وهو بهذا يكاد يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقرب الصور الى ما سمى بالقصص فى هذا العصر .. والقصص فى عصر صدر الاسلام ثم فى العصر الأموى لم يكن يقصد لذاته ، فأنت تعلم أن الدولة كانت تهتم به اهتماما كبيرا بل كانت تعين القصاص كما تعين القضاة ، ولعلهـــا كانت تعين القصاص من القضاة .. وقد حملت كتب الأدب أسماء القصاصين فى كل بلد اسلامى فنرى أسماء الحسن البصرى وســـعيد بن الحسن ، والأسود بن سريع ومسلم بن جندب..بل نرى من سمات أصحاب الفضل أن يعرفوا القصص فيقول الجاحظ فى بيانه وتبيينه أن أبا بكر الهذلى فى منتصف القرن الأول كان خطيبا قاصا عالما بالأخبار والآثار .

فى ضوء هذه الشواهد نحس أن للقصص مدلولا معينـــا تفهمه به الدولة ويفهمه به الناس .. هذا المدلول هو ما يمكننا أن نقول أن كتاب عبيد بن شربة هذا يعبر عنه .. وهو مدلول يرسم ما حدث بعد هذا من تداخل بين القصص والتفسير .. فالقصص اداة دينية من ادوات التوجيه والوعظ ، والقصص أداة تفسيرية لشرح ما غمض فهمه عن طريق الحكاية والرواية .. ويقول صاحب الاتقان فى ذكر العلوم المستنبطة من القرآن .. « وتلمحت طائفة ما فيـــه من قصص القرون السالفـــة والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم ، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص » .

فهذا النوع من القصص اذن يتعرض لحكايات الأمم السالفة ، ولا لقيمة هذه الحكايات فى حد ذاتها ، وانما أهميتها فيما لها من قيمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى تثبيت المعانى الجديدة ، ولما لها من قيمة فى تأكيد دلالات القصص القرآنى والخلق القرآنى .

وعبيد يقول فى أول كتابه مخاطبا معاوية : « يا أمير المؤمنين ، لك فى غير هذا الحديث مايقصر ليلك وتلذ به فى نهارك ، فان فيه ما تهوى وما لا تهوى ، ومغضبة وشغفا للملوك ونعش مودة » .

هذا الاحتراس من عبيد معناه أنه يعلم أن فى دلالات قصصه ما قد يزعج ملكا عريض الملك قوى السلطان ، من تذكرة بنهاية الطغاة ، ونهى عن الاسراف فى المتعة ، وما شابه ذلك .. ولهذا كان من الطبيعى أن يؤمنه معاوية من غضبه وسخطه فيقول له : « عزمت عليك الا اتبعت هواى وحدثتنى ما علمت مما اسالك عنه ، فأنت فى جوار الله وذمته ، وأمان منى ومن غضبى ونعش مودتى » .

وهكذا يبرر لك الكتاب أن تلقى هذه الأحاديث على مسامع معاوية . الا أن هناك نقطة أخرى تحتاج الى تبرير ، تلك هى موقف عبيد بن شرية نفسه من الذين يحكى عنهم .. فهو يمنى له تاريخه الذى يدين له بالعصبية وله أنبياؤه الذين يعرف لهم الولاء .. وهكذا يأتى سؤال معاوية يحاول أن يستوضح هذه النقطة ، أعنى موقف عبيد بين عرب الجنوب وعرب الشمال .

يقول معاوية : أخبرنى عنك ، مالك ، اذا ذكرت ابراهيم لم تملك أن تصلى عليه .. وقد ذكرت والدكم هودا نبى الله فلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفضل عليه وهو نبى الله . ! » ويأتى رد عبيد موضحا موقفه تماما اذ يقول : « يا أمير المؤمنين : والله لهو احب الى من أبى الذى حملنى فى صلبه ، واحب الى من امى التى أرضعتنى.. ولا أعدل بخليل الرحمن احدا ، ولا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، ولا هود صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء » ، وهكذا تحدد موقف عبيد فيقول معاوية : « انك لمنصف فخذ فى حديثك يرحمك الله » .

فأنت تعلم أننا فى هذا العصر قريبون جدا من العصر الجاهلى بما فيه من عصبيات ، وهذا يبرر الى حد كبير سؤال معاوية ومحاولته تحديد موقف عبيد ، فالمقصود بالقصص كما قلنا عظة اسلامية لا نعرات جاهلية .. الا أن هذه النعرات تطل براسها رغم كل هذا التأكيد والتحديد فترى عبيدا يقول : « حتى كان اسماعيل ونقله أبوه ابراهيم صلى الله عليه وسلم من بلاده ، فأنزله بمكة .. فكنا نحن جرهم اهل البلد الحرام ، فنشأ اسماعيل فينا ، وتكلم بكلام العربية وتزوج منا .. فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمى..واسماعيل وأبوه منا ، وانتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض .. الم تعلموا انكم من ولد اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليه وسلم، وابراهيم نحن ولدناه وأبوه آزر واسمه تارخ بن ناحور بن أرغو ابن شارخ بن فالغ بن عابر ، وهو هود فهو أبونا وأبوكم ، فنحن ولدناكم وانتم منا ونحن منكم قليل فى كثير » .

هكذا تطل هذه العصبية التى خشيها معاوية فيؤكد عبيد أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اهله وقومه هم الاصل ، اليهم يعوذ جميع العرب .. ويصيح معاوية محذرا : « كأنك تحدث عن حديث الجاهلية » .. فيقول عبيد وكأنما معتذرا : « يا أمير المؤمنين لك فى الاسلام ما يغنيك عن ذلك فقد محق الاسلام ما كان قبله كما محق الشمس ضوء القمر » .

وما نكاد نصل الى آخر الكتاب حتى نلمح صورة أخرى من صور هذه العصبية ، فبينما عبيد يروى من شعر ملوك حمير ما يشيدون فيه بذكر ملكهم وعظمة امرهم ، نرى معاوية كالمحتج فيقول له عبيد : « يا امير المؤمنين انك لتكلفنى أقوال أقوام قد ذهبوا كانوا ملوكا .. فاذا قالوا صغروا غيرهم لقدرتهم وعظمتهم» فيقول معاوية مدفوعا بعصبيته : « يا عبيد قد غاب ذلك عنا ، فقل : ان تكن حمير ملكت كما ذكرت فقد أورثنا الله ذلك من ملكهم فهو لنا اليوم قد انتزعه الله بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو منا ، فنحن أسرته وخير الناس بعده ، ولولاه لم نكن شيئا ، وجعل حميرا لنا والحمد لله الذى اكرمنا بنبيه وأورثنا أرض أعدائه الجبابرة العتاه » . وكأنما نفست هذه الكلمات عن معاوية ففثأت غضبه وأرضت عصبيته فيعود ليقول « قل غير متق شيئا ولا سائب احدا فأنت فى ذمتى وجوارى والله لك على بذلك شاهد » .

وهذا يدل أول الأمر على قرب وقوع قصة المسامرات هذه من عهد الجاهلية فلا بأس اذن ان كانت فى عصر معاوية ، ولا بأس فى تصديق صحة نسبة الكتاب لعبيد بن شرية ، والى

مسامرات معاوية .. وهذا يدل ثانيا على ما يحسه الكاتب من حرج لا يقع فيه من يقص القصة لذاتها وانما يقع فيه من يقص القصة لهدف يخشى أن تعلق شبهة بحسن نيته فى القصد اليه والاتجاه بحكايته نحوه .. وهذا يعنى أن هذه القصص كما قلنا انما أريد بها خدمة الدعوة الدينية أولا وقبل كل شىء .

ويدخل فى هذا ما يتعلق بثقافة القاص .. فبعد أن تحدد موقف القاص البعيد عن العصبية ما أمكن ، يحدد الكتاب ثقافته الاسلامية وحرصه على موافقة القرآن الكريم ومعرفته بما جاء به .. فمعاوية يسأل عبيد حين حدثه عن بلقيس اذ يرى ما فى كلامه من موافقة لقصة القرآن الكريم : « صدقت ، فهل قرأت القرآن » . فيأتى رد عبيد حاسما حين يقول : « والله يا أمير المؤمنين ما حفظته الا فى شهر واحد » .. وحين يمضى بعبيد الحديث فى قصة بلقيس وسليمان يلحظ معاوية أنه يسرد القصة مطابقة تماما لما جاء بالقرآن ، بل ان عبيدا يستعير آيات القرآن الكريم فى سرد قصته فيسأله معاوية : « لم تقرأ القرآن لهذا الحديث .. الا تأتى بالحديث الذى بلغك ؟ » فيقول عبيد : « يا أمير المؤمنين القرآن أصدق أم الحديث ؟ ولو لم يكن هذا فى كتاب الله لكان الحديث عندى ثقة » فعبيد يعلن فى صراحة أنه يلتزم النص القرآنى ما وجد هذا النص ، فان كانت قصته التى يحكيها لم ترد فى القرآن فهو يوردها عن ثقة واطمئنان الى مصادره الأخرى .. وحين يسأل معاوية عبيدا عما جاء فى خطاب سليمان الى بلقيس وقومها قال عبيد : « قد قلت لك يا أمير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤمنين انى لا انطق بشيء ليس بيانه فى القرآن وقول الله أصدق، ثم يورد عبيد نص آية تكمل ما بداه من حديث .

والأمر ليس أمر قراءة للقرآن ، ومعرفة به فحسب ، ولكنه أمر معرفة بتفسيراته ومرامى آياته ومعانيها .. فعبيد يذكر آية من القرآن الكريم ، ويسأل معاوية عن معنى كلمة ، فيفسرها عبيد . فيسأل معاوية : « وما يدريك أن هذا كذلك ؟ قال عبيد : « سمعت ابن عباس يا أمير المؤمنين يذكر ذلك » ويقول عبيد مؤكدا معلوماته : « وسألته عن القرآن أيضا فما يفسر من الظاهر شيئا الا أنا أعرفه وأعلمه » قال معاوية : « أوله باطن ؟ » فيرد عبيد : «كذلك سمعت ابن عباس يذكر» فيقول معاوية كالمتعجب: « ما تركت شيئا يا أخا جرهم الا وقد دخلت فيه وطلبت علمه»، ويقول عبيد : « نعم يا أمير المؤمنين ، القرآن أحق ما دخلت فيه وطلبت علمه » ، فعبيد اذن قرأ القرآن وفهمه ، وطلب العلم بتفسيره وتأويله وتعلم من ذلك ما وسعه . فهو قد أخذ هذا العلم عن عبد الله بن عباس الذى اعتمد عليه فى كل ما له علاقة بتفسير ما جاء بالقرآن ، وهو يقول لمعاوية « سمعت ابن عمك يقول » وهو يقصد ابن عباس وهو كما ترى يصرح فى وضوح أنه أخذ عليه التفسير وتعلم منه كل ما يستطيع .. ويصل به التحرج فى ذكر القصص الذى ورد فى القرآن حدا يقول فيه «لست بمحدث بشيء ليس فى القرآن ، ولست بواصف خبرا بلغنى بعد بما قال الله تبارك وتعالى » .. وقوله هذا يدل على التحرج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتدين من ناحية ، ويدل على هدفه ورسالته فى سرد القصة من ناحية أخرى ..

ويتصل بهذا اتصالا مباشرا طريقته فى سرد القصص ، فهو يعتمد اعتمادا أساسيا على آى الذكر الحكيم ، بل يبلغ به الأمر حد اقتباس الآيات بنصها وايرادها فى معرض حديثه لتكمل السرد .. فنرى فى حكايته عن عاد حديثا يسوقه على لسان جارية يقال لها مهد ، ناحت بعد هلاكهم ، تقول حكاية عبيد « ويقال يا معاوية انها اول نائحة ناحت فى الأرض . فقال لها قومها : ويحك ماذا ترين ؟ وماذا دهاك ؟ قالت : الويل لعاد التى طغت فى البلاد فأكثروا فيها الفساد » وتتضح هذه الظاهرة فى قصة بلقيس وسليمان ، كما تتضح فى قصة ثمود ونبيهم صالح ، اذ تكاد تكون تفسيرا للقصص القرآنى ، بل ان هذه القصة بالذات تسير فى سردها مع آيات القرآن الكريم خطوة خطوة .

ويدخل فى هذا أيضا موقف عبيد من شخوص قصصه وحوادثها .. فالناس عنده قسمان : مسلمون وكفار .. وكل من آمن بالله منذ فجر التاريخ فهو مسلم ، وكل من خالف هذا الايمان فهو كافر .. يتساوى فى هذا عنده اتباع ابراهيم واتباع هود ، اذ يقول فى معرض حديثه : « وأسلم مع هود منهم نفر يسير لا يبلغون اربعين رجلا ، وأسلم رجل من اشرافهم وساداتهم وذوى أحسابهم وهو رأس الوفود وصاحب البر والتقوى » .. وهذه فى الواقع صفات المسلمين عنده ، وهى صفات المؤمنين الذين ينجون دائما من كل عذاب ، فمنذ هلاك عاد الذين سلطت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهم الريح يقول عبيـــد : « ولم تترك منهم أحـــدا الا هزيله العملقية وبنيها وهى امراة أبى سعيد المؤمن ، فان الله نجاهم من العذاب بايمان أصحابهم ، وأمر الله سبحانه وتعالى الريح فحملتهم برفق وشفقة هى وولدها ولم تؤذهم ولم تضرهم حتى اتت بهم مكة » .

ويستغرقه هذا التصور للمؤمنين مع كل الأنبياء حتى نراه يقول عن آصف بن برخيا وزير النبى سليمان : « فانطلق آصفه وتوضأ ثم صلى ركعتين ثم دعا بالاسم الأعظم » .. والصـــلاة هنا ليست دعاء ، وانما هى صلاة اسلامية يسبقها وضـــوء . وهذا الاختلاط يتناول فى واقع الأمـــر كل الأديان التى عرفتهـــا الجزيرة سواء كانت كتابية أم لا .. والملوك الحميريون انمـــا يفتحون البلاد ليقضوا على الكفر والكفار ، فهو يقول فى سبب خروج شمر يرعش من اليمن « ان ملكا من ملوك بابل تجبر وبنى صرحا للرقى فيه الى السماء ، كما فعل فرعون وهامان ، فمضى اليه شمر بجنوده فحاربه وظفر به » .. بل ان حماس عبيـــد يجعله يحاول أن يبرر بعض ما تعارف الناس عليه من رواياته تنسب الشر لبعض المؤمنين ، كما جاء فى حديثه عن آصف بن برخيا وزير سليمان ، اذ يذكر انه تعلم اسم الله الأعظم ، فيقول معاوية : « هبلتك الهبول يا عبيد ، أو كان آصف يعلم ماتقول، والسحر اليوم نسبته الى علمه وهو الذى كان وضـــعه ؟ » فيسرع عبيد قائلا : « ان الشيطان الذى احتـــل مكان النبى سليمان خدع آصف والناس أجمعين .. » يقول عبيد : « فيذكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا امير المؤمنين أن ذلك الشيطان أمر بسحر فكتب ثم دفن تحت كرسى سليمان بن داود واسنده ذلك الشيطان الى آصف بن برخيا ، ثم اخرجه للناس ،فلما رجع سليمان الى ملكه ورد الله نعمته وكرامته ، لم يلبث الا قليلا حتى قبضـــه الله اليه ، ولج المجرمون باستعمال ذلك الكتاب وتصديقه .. »

ودفاعه هذا عن آصف انما يحاول به أن ينفى أن يكون السحر ـــ وهو شر ـــ من صنع احد المؤمنين ، بل من صـــنع وزير هو تابع وصفى النبى سليمان بن داود .. وشبيه بهـــذا دفاعه عن الأوس والخزرج وعلاقتهم باليهود فى المدينة ، اذ يقول معاوية : « لقد بلغنى يا عبيد أن اليهود كانوا بها ما كان الخزرج معهم فيها امر ، حتى أن الرجل يتزوج الامراة فما يصلها حتى يبدأ بها رجل من اليهود وكانوا غلبوهم على أمرهم .. » فينبرى له عبيد قائلا : « معاذ الله يا أمير المؤمنين لقد بلغك ما لم يكن . ولقد كانت اليهود بها اذلاء فكانت الأوس والخزرج أمنع من ذلك واشد ، ولقد اخرجتهم الأوس والخزرج من المدينة حتى سكنوا خيبر ، وما كانت امراة من الخزرج يقدر عليها رجل من اليهود ابـــدا .. »

فهو فى حديثه كما ترى يحاول أن يصحح بعض القضايا الكاذبة والأخبار التى تتناول كرامة المسلمين من القوم فهو يدافع عنها وينكر كل ما يعلق بها مما يشين ويكدر .. وموقفه كما ترى موقف واضح يميل بكل ثقله لتعطى احـــداث التاريخ لونا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باهرا زاهرا لكفاح المؤمنين والمسلمين وموضعهم بين الشعوب قبل الاسلام وبعده ..

ويدخل فى تحديد هذا الموقف ما جاء بالكثير من قصصه من تبشير بدعوة محمد عليه السلام ، وتنبىء بظهوره ودعوته .. فهو يقول عن سليمان : « ثم ان سليمان سار فى أرض العرب فمر بموضع المدينة فأمر الرياح فوقفت ثم أعلم اصحابه أن هذا المكان مهاجر نبى يخرج فى آخر الزمان من العرب اسمه أحمد وهو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم » وتعود هذه النبوءة مرة اخرى على لسان حبر من اليهود فى عهد تبع الأوسط حين حاول هدم المدينة .. يقول عبيد : « وهم بخراب المدينة فقام اليه رجل من اليهود يقال له كعب بن عمرو وقد أتى عليه من عمره مائتان وستون سنة فقال له : أيها الملك لا تقبل على الغضب ، وامرك أعظم أن يطير بك النزق أو يمسك فى قلبك الحاح ، وتنزع الى مالا يجمل بك ، وانك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية .. قال : ولم ذلك فقال : لأنها مهاجر نبى يخرج من هذه البنية — يعنى مكة — وهو من ولد اسماعيل بن ابراهيم خليل الله .. قال تبع : ومتى يكون ذلك ؟ قال ، بعد زمانك بدهر طويل فلما سمع كلامه سكن وكف عن خرابها . » بل هو لا ينهى قصته عن تبع الأوسط هذا الا ويورد على لسانه شعرا فى ذكر خروج النبى صلى الله عليه وسلم يقول فيه :

شهدت على احمد أنه ... رسول من الله بارى النسم
له امة سميت فى الزبور ... بأمة احمد خير الأمم
فلو مد دهرى الى دهره ... لكنت وزيرا له وابن عم

فالقصص اذن عمل وعظى يعطيا صورة واضحة عن معنى القصص الدينى الذى انتشر فى هذه المرحلة انتشارا كبيرا ورعته الدولة وشـــجعته ..

وثمة ظاهرة مهمة تلفت النظر فى هذا الكتاب الذى هو عبارة عن مسامرات فى مجالس معاوية ، هى أن معاوية لا يقف وقفة المتفرج أو المستمع انما هـــو يناقش ويسأل ويطالب بين الحين والحين بالبرهان والدليل .. فحينما يذكر عبيد عن عاد ما أصابهم من قحط ثم يقول « وأجمعوا على المســـير الى بيت الله الحرام يستسقون الغيث » يقول معاوية مجادلا « لله أنت يا عبيد وكيف كانوا يطمعون أن الله يستجيب لهم وهم مقيمـــون على الشرك بالله وعبادة الأصنام » ويرد عبيـــد قائلا « كان الناس فى ذلك الزمان العرب وغيرهم من المشركين اذا نزل بهم فادحة أو نابهم نائبة أو أجهدهم قحط أو غيره فزعوا الى الله فيأتوا الى البلد الحرام يطلبون من الله الفرج فيعطون مسائلهم ويعرفون من الله الاستجابة عند بيته الحـــرام ، فيجتمع بمكة بشر كثـــير مختلفة أديانهم يطلبون من الله حوائجهم ، كلهم عارف بمكة وحرمها ، فلا يبرحون حتى يعطى السائل سؤله مما سأل .. قال معاوية: فهل كان فى ذلك الوقت يعرف موضعه ؟ .. قال عبيد : نعم يا معاوية » وسمة الحوار تغلب على أجزاء كثيرة من الكتاب . ولكنه حوار انسانى يعرف مايسمع من أمر، فأنت تلمح من معاوية هذه العبارة كثيرا تعقيبا على حقيقة يحكيها عبيد «وكذلك بلغنى» فما نكاد نصل الى آخر الكتاب حتى نرى معاوية يقول لعبيد :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« لله درك يا عبيد ، انك لتحدثني عجبا ، ما شغلني عنهم (يعني ملوك حمير) وعن اخبارهم وما كان منهم احد غيرك.. » فمعاوية اذن لديه علم ما يقول عبيد سمعه من غيره من قبل . فهو حين يناقش انما يعترض على بعض ما يخالف ما سبق له أن عرف من روايات الرواة الآخرين .

وقد قال المسعودى فى مروج الذهب : « كان لمعاوية بن ابى سفيان ساعات من كل يوم يقعد فيها فيحضر غلمانه الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون . » فالحديث الذى يقصه عبيد يعرض على ناقد بصير لا يتلقاه منه مسلما ، انما هو يعترض دائما سائلا او منكرا او مستزيدا او مناقشا .حتى اننا نرى معاوية يعترض على رواية قصيرة يحكيها عبيد على لسان الرائش فيقول معاوية : « يا عبيد ما كنا نظن هذا الشعر الا لذى نواس . » قال عبيد : « يا امير المؤمنين قرب هذا وبعد الآخر ،وكان اسم هذا اهون على الرواة، فأما القول فوالذى بعث محمدا لقد رويت هذا الشعر وان ذا نواس لغلام » .. فالسامع اذن يريد من الراوى أن يحقق كل ما يقول ، وأن لايتعارض مع الرواة السابقين، فان تعارض فعين معاوية النافذة الناقدة تعرف وجه التناقض ومكانه . وبصيرته الواعية تريد له تفسيرا .

وانا احب أن أسوق كل هذه المناقشات لارد بها على ما استنتجه الدكتور حسين نصار من أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقية وانما مؤلف على صورة المجالس .. اذ يخرج الدكتور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نصار بأن الكتاب من جمع ابن هشام وانه عمل فيه ما عمل فى سيرة ابن اسحاق .. كما نرد به على ما ذهب اليه الأستاذ كرنكو من أن عبيدا شخص خيالى لا وجود له ، وأن الكتاب من تاليف، ابن هشام أو البرقى أو محمد ابن اسحاق مكملا به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار .

ونحن بادىء ذى بدء قد ذكرنا أن هناك اختلافا فى الهدف بين الكتابين ، فبينما وهب يتقصى قصصه بهدف ابرازها ، وتوضيح ما تحمل من مضامين انسانية عامة ، متتبعا التسلسل التاريخى وبادئا من خلق العالم الى سيف بن ذى يزن آخر ملوك بنى حمير..نرى عبيدا يقصد قصدا الى العظة والعبرة ، ويحتذى القرآن الكريم خطوة خطوة ، ويعنى بالدلالات الاسلامية دون غيرها .

فالهدف مختلف فى الكتابين ، بل ان كلا منهما يمثل اتجاها بذاته من اتجاهات عصر التجميع . كذلك كشفنا لك عما فى مجالس معاوية وعبيد من مناقشات سببها عقلى مرة ، وهو اختلاف ما يرويه عبيد عما يعرفه معاوية . وسببها نفسى مرة ، وهو العصبية التى تطل برأسها حينا عند عبيد فيردها معاوية ، وحينا عند معاوية نفسه مما يكسب المجالس صدقا وحرارة لا تاتى لمن يؤلف المجالس تاليفا .

والذى دعا الدكتور حسين نصار والأستاذ كرنكو الى هذا الفرض وجود اخبار مروية عن البخترى عن محمد بن اسحاق ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو عن الشعبى أو غيره . .والواقع اننا نضطر هنا الى ان نقول ما قلناه فى كتاب وهب من انه كتب مرتين ، مرة حين رواه عبيد والأخرى حين أعيدت صياغته على يد غيره . والواقع ان الأمر فى كتاب عبيد أسهل . فالذى أعاد تاليف كتاب عبيد كان حريصا حين يضيف شيئا من عنده ان يسنده الى من اخذ عنه ، فهو يصرح فى صفحة ٣٧٨ من طبعة حيدر أباد قائلا : « وذكر محمد بن اسحاق فى غير حديث عبيد بن شريه » وهذا معناه انه يلفت النظر الى انه يستطرد ويخرج عن الكتاب الأصلى فيورد خبرا جديدا يسنده هنا الى ابن اسحق .. ويستمر فى سرده للخبر حتى ينتهى منه فيقول : « ثم رجع الحديث الى عبيد » وهو حين يأخذ من كتاب وهب يقول فى صفحة ٣٧٩ « وفى حديث وهب بن منبه أن .. » ثم يعود بعد ذكر ما أخذ من وهب يقول « ثم يرجع الحديث الى عبيد » فقوله فى غير رواية عبيد أو فى غير حديث عبيد تفتح الأذهان فى الحال الى موضع الاضافة ، بينما تشير عبارة رجع الحديث الى عبيد الى عودة اتصال الحديث الى الكتاب الأصلى ..

وكأنما المؤلف يحترز الاحتراز الذى رأيناه عند معاوية فهو حين يلمح نقصا فى رواية عبيد يكملها من مصادرها . والواقع أن المتتبع لهذه الاضافات يرى انها امتداد لقصة عبيد حدثث بعد موته كالرواية التى ذكرت عن سمرقند وما كتبه أحد ملوك حمير على حجر عندها ، اذ يقول معاوية بعد أن يسمع حديث عبيد « اللهم أرنا تصديق قول ابن شريه فانه يذكر عجبا ، وان شاء ربى فعل ذلك » اذ تستمر الرواية هكذا « فبلغنى عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعبى أنه دكر عن رجل من خيوان همدان .. » الى آخر الحديث الذى يؤكد صحة ما قاله عبيد .. والاضافة كما ترى تكملة من عند المؤلف الجديد.. وبعض الاضافات التى نسبت الى وهب تحقيق للأساطير التى يرويها عبيد أما التى رويت عن ابن اسحق فمعظمها اسلامى متأخر ..

فالكتاب اذن صور قلمية لمجالس حقيقية ، وما جاء فيها كالتاليف المقصود اليه هو من وضع ابن هشام واضافته لاكمال الكتاب وضبط ما به من تناقض مع ما حفظه الرواة السابقون لعبيد بن شريه .

وكتاب عبيد يمتاز بكثرة ما أورده من شعر ، وقد كان معاوية يطلب الشعر أن اغفله عبيد حتى لنرى تاريخ ملوك اليمن بأسره يأتى على لسان ملوكها شعرا ، ومهما كان الأمر فى هذا الشعر فهو موضوع لا شك ، الا انه بوصفه هذا يعتبر تدوينا شعريا لهذا التاريخ ، حتى أننا نرى فى تاريخ تبع الأوسط ذخيرة شعرية ضخمة تحكى كل أحداث حياته مما يحتاج الى جمع ودراسة، عله يكون فى مجموعة ملحمة شعرية ترد على أصحاب الرأى الذى يقول ان العرب لم يعرفوا الملاحم ..



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملاحم الشعرية

لعل البعض يعتبر أن الحديث عن الملاحم العربية فى مثل هذا البحث الذى نتناول فيه الرواية فضولا واستطرادا .. ولكن الحقيقة ان الحديث عن هذا الشعر الذى يسرد أحداثا قصصية ويكاد يقترب بشىء من المعالجة والجمع والتوفيق من الشكل الملحمى ، حديث مهم فى بحث الرواية العربية بصفة خاصة .. فالظاهرة الأساسية التى تلفت نظر الدارس فى هذه الروايات أن الشعر يرد على لسان جميع الأبطال بلا استثناء ، سواء كان هؤلاء الأبطال ممن يقولون الشعر،او ممن يمكن أن يقولوا الشعر، أم كانوا أبعد ما يكونوا عن هذا بحكم رسم شخصيتهم وتحديد بيئتهم وزمان وجودهم .. فقد يكون مقبولا مثلا أن يرد على لسان بطل جاهلى قريب من الاسلام شعر عربى ، ولكن ماذا نقول فيما روى على لسان آدم أو نوح من شعر مثلا ! فوهب بن منبه فى كتابه التيجان يروى شعرا على لسان آدم قاله فى رثاء ابنه هابيل حين قتله أخوه قابيل يقول فيه .

ايا هابيل يا ثمر الفؤاد　　　أبعدالعين مسكنك الضريح

ويدخل وهب فى جدال حول هذا الشعر وكأنما يحاول أن يثبت صحة نسبته الى آدم فيقول : « قال جبير بن مطعم هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصيدة ليست لآدم ، هى منحولة .. وقال ابن عباس : تكلم آدم بجميع الألسن التى نطق بها بنوه من بعده من عربى وعجمى، وهذه الأسماء لم تعلمها الملائكة » .

وهذه المحاولة الساذجة تثبتأهمية الشعر عند هذا الراوى الكبير الذى تراه فى كتابه كله بعد ذلك لا يكاد يذكر حادثة الا ويورد على لسانه الشعر .. وانت تحس فى طريقة ايراده لهذا الشعر انه يكاد يؤمن بصحته وصدقه .. ونحن نضع أيدينا فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى على تفسير لهذه الظاهرة التى نراها متكررة فى كل كتب القدماء التى تعنى بالتاريخ والقصص والأخبار .. نرى هذا التفسير فيما يأتى على لسان معاوية فى حديثه مع عبيد اذ يصر على أن يسمع منه شعرا فى كل ما يقول من أحداث . يقول معاوية لعبيد : « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة ابيات » ، ويقول له : « وابيك لقد اتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على احاديثها وافعالها ، والحاكم بينهم فى الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان من الشعر لحكما) قال عبيد : لقد صدقت يا معاوية ولقد سمعت ابن عمك (عبد الله بن العباس) يذكر عن رسول الله ذلك، واخبرك يا معاوية أنه لما كان من وفد عاد ما كان وما قد حدثتك عنه ، وصارت عاد ووفدها أمثالا وأحاديث قالت العرب فيها أشعارا .. منها ما حفظناه ومنا ما لم نحفظه ، قال معاوية : فهات اسمعنى ما حفظته من ذلك » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فنظرة الرواة الى الشعر تحدد ما له من أهمية عندهم وعند الشعب العربى الذى يتلقى مايروونه من قصص ، فهم لايتصورون حادثة تقع فى حياة كبير أو صغير دون أن يقال فيها شعر لأن الشعر ـ كما يقول معاوية ـ ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها .

وليس معنى هذا أن كل العرب شعراء ، ولا أنهم كلهم يقولون الشعر .. وانما معناه أن العرب تعودوا أن يسجلوا أحداثهم شعرا . فالحادثة لا تعد صادقة عندهم الا اذا كانت قد جاءت فى شعر أحد شعرائهم .. ودليل ذلك ما نشهده من عبيد فى رده على معاوية فى ذلك الحديث الذى أوردناه ، اذ يذكر له شعرا قاله أبو سعيد المؤمن عند هلاك عاد ، ثم شعرا للعباس بن مرداس يعظ رجلا من قومه كان ظالما لعشيرته ويزجره عن الظلم ويذكر له عادا وهلاكها ، ثم شعرا للعباس بن مرداس أيضا يذكر الحادثة ويخرج منها بحكمة ، ويذكر بعد هذا شعرا لعبيد بن الأبرص الأسدى يخاطب النعمان ابن المنذر .. وشعرا للأعشى بن نصير اعشى بنى وائل .. ثم شعرا يقوله اسد بن ربيعة الكلابى ، فشعرا على لسان كريم ابن معشر الثعلبى .. وهنا وبعد كل هذا الشعر يقتنع معاوية ويقول « لله درك ياعبيد ، حدثتنا عجبا من أمر عاد فالحمد لله القادر على ما يشاء من أمره » .

فدليل صدق القصة اذن أن يتناولها الشعراء فى شعرهم على مر العصور ، يذكرونها مستخرجين منها العبر والدروس .. ولذا فنحن نرى كل كتب الأخبار تحاول أن تؤكد صحة الخبر بطريقين : الأول هو رفعه الى قائله عن طريق سلسلة من النسب تحاول أن

تسنده آخر الأمر الى أحد الثقات .. والثانى هو أن تورد ماقيل فى هذا الخبر أو فى هذه الرواية من شعر .. فليس عجيبا اذن ان نرى معاوية يقول لعبيد اثر روايته للشعر : « لقد جئت بالبرهان فى حديثك يا عبيد » .

الا ان أمر الشعر فى هذه الكتب ينقسم الى قسمين : الأول هو ذلك الذى يرد على لسان أبطال الحادثة انفسهم ، أو على لسان معاصرين لها كالشعر الذى يرد على لسان آدم وهود وطسم وتبع .. وهذا القسم لا شك مؤلف وموضوع .. والثانى شعر ينسب الى شعراء معروفين كالعباس بن مرداس واعشى بنى وائل فى القصة التى حكيت لك ، وينسب الى حسان بن ثابت وامرىء القيس وأمية بن أبى الصلت وعبيد بن الأبرص والنابغة الذبيانى وتأبط شرا وغيرهم .. وهذه الأشعار بعضها موجود بالفعل فى دواوين هؤلاء الشعراء ..

والنوع الثانى من هذا الشعر كان يعنى عند المتلقين صدق الخبر وصحة القصة ، ولكنه يعنى عندنا وجود القصة نفسها فى أساطير العرب، وانتشارها وتداولها بين العرب كجزء من تاريخهم وحكاياتهم ، وكحقيقة اما تاريخية واما أسطورية تكون جزءا من معتقداتهم وتراثهم الفكرى ..

اما النوع الأول من هذا الشعر وهو الذى يرد على لسان ابطال القصص فلنا عنده وقفة طويلة .. وسر هذه الوقفة هو أن هذه الظاهرة تستمر فى الرواية العربية بعد هذا استمرارا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجعلها ظاهرة مكملة لتأليف الرواية العربية .. فهذا النـــوع من الشعر ، أى الشعر الذى يرد على لسان أبطال الحادثة ، نجده فى القصص التى يحكيها وهب والتى يحكيها عبيد ، ثم فى القصص التى ترد فى كتب الأنساب وكتب السيرة ، ونراها بعد هذا فى كتب التأليف ، وتستمر معنا بعد ذلك فى كل الروايات الشعبية التأليف أو الشعبية التناول ، كقصة عنترة بن شداد ، وقصة سيف بن ذى يزن ، وقصة الأميرة ذات الهمة ، وفى ألف ليلة وليلة ، وتغريبة بنى هلال ، والظاهر بيبرس .. وهى فى هذه القصص تبدأ من الشعر الذى يشابه الأشعار الجاهلية التأليف الى أن تصل الى الشـــعر القريب من العامية ، الى أن نجدها عامية خالصة فى سيرة بنى هلال .. ويتطور الأمر كذلك فى استعمال هذا الشعر حتى نجـــده فى آخر مراحله قد غدا هو وسيلة الرواية نفسها ، فالبطل لا يتكلم فى هذه القصص الا شعرا تتخلله بعض الجمل النثرية .. وهـــذا التدرج اللغوى يمكن اعتباره المؤشر البيانى الذى يدل على درجة الانفصال اللغوى ، ومدى اتساع الهوة التدريجى بين لغة الكتابة ولغة الناس .. ويمكن عن طريق هذا التتبع معرفة أسباب ذلك ودوافعه .. بل ويمكن اقامة دراسة لغوية كاملة تسير تاريخيـــا ومجتمعيا مع المجتمع العربى فى نمـــوه وتطـــوره ، وفى ازدهاره وانحطاطه ..

والواقع أن هذا الشعر لم يدخل هذه القصص عبثا ، وانما كان دخوله فيها أساسيا وجوهريا .. فهو أولا يكون عمودا فقريا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كل قصة ، ترتكز عليه الأحداث وتدور حوله .. والشعر كتعبير قولى منغوم اسهل حفظا وأقرب الى اللصوق بالنفس من الحديث النثرى المرسل .. ولهذا فالقطع الشعرية تبدو كالتكئه التى يستند اليها الرواة فى حفظ القصة كلها .. ويؤيد هذا أن معظم ما ورد من شعر انما يروى الأحداث مرة اخرى على لسان بطل من ابطال هذه الأحداث ، يرويها مرتبة حسب وقوعها ، وهو وان كان يمزج فى هذه الرواية الشعرية بين الأحداث الخارجية وبين موقفه النفسى منها كمشارك فيها ومتأثر بها ، الا أنها فى آخر الأمر وثيقة منغومة تحفظ الحدث من الزوال بما تتيحه من يسر من الحفظ والرواية .. ولعل هذا أيضا هو الذى جعل حجة العرب فى حديثهم ما يؤكدونه به من شعر ، حتى أصبح بيت الشعر دليلا لا يقبل المناقشة على صحة ما فيه من أسماء وأحداث ، وصحة ما روى هذا البيت فيه من حدث وناس .

والشعر ثانيا يدخل مكملا للحوار ، بل يدخل فى بعض الأحيان أساسا فى الحوار ، وفى المشاهد التى يقف فيها القاص عند حوار يسرده فى أطناب فلابد أن تلمح عادة مساجلة شعرية تدور بين أطراف هذا الحوار . ويظهر هذا بوضوح فى مواقف الصدام والصراع ، يستوى فى هذا الصدام الفكرى والصدام الحربى .. ففى قصة هلاك عاد التى يرويها عبيد يدعو هود ربه على عاد أن يبتليهم بثلاث سنين من القحط فاستجاب له الله .. وهنا تبدأ مساجلة شعرية كلما هل عام من هذه الأعوام ، فيروى عبيد شعرا على لسان أحد المؤمنين متشفيا بما حل بعاد منذرا الكافرين ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيرد عليه أحد المشركين شعرا ويذكر في شعره أن السنين حلوه ومرة ، وأن ما حدث ليس نتيجة دعاء هود وانما هو امر طبيعى لا دخل له لهود فيه .. ثم يمدح عادا ويشيد بذكرها ويعدد مآثرها ومناقبها .. وتستمر هذه المساجلة في كل عام .. وعبيد في كل مساجلة من هذه المساجلات يذكر اسم احد المؤمنين وما قال من شعر ، ثم اسم المشرك الذى رد عليه وهكذا ..

أما في المعارك الحربية فأنت تجد هذه الظاهرة أوضح ما تكون في سيرة عنترة بن شداد ، فما يكاد عنتره يتعرض لأحد الفرسان حتى يبادره مفاخرا مباهيا ، ويرد عليه غريمه في الحال بشعر من نفس البحر والقافية معارضا اياه ومفاخرا بنفسه متباهيا بقوته مدلا بقبيلته وأهله .. ولا تعفى سيرة عنترة حتى خصومه من الفرس والروم من هذه المساجلة الشعرية التى تسبق كل التحام بالسيف ، حتى لتحسب أن هذه المساجلة تقليد حربى تواضع عليه الناس ، فيقبل المدوان كل على الآخر مشرعا لسانه قبل سيفه ..

والواقع أن هذه المساجلات التى تدخل في الحوار القصصى كثيرا تكاد تكون أقرب الصور التى عرفها العرب الى الأعمال المسرحية . فالمشهد القصصى يقف تماما من ناحية السرد بينما يغلب الشعر الحوارى هنا على كل معالم القصة ، ولعلنا نستطيع أن نقول ان استعمال الشعر في الحوار هنا له دلالته الفنية في تصوير الصراع وتجسيده . وفي ابراز المعالم النفسية التى يقوم عليها هذا الصراع . فالحاجة الى الشعر هنا ليست فضولا وانما هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حاجة فنية نعين المؤلف فى تجسيد المشهد وتجسيمه ، وفى ابراز الدلالات التى تحيط به من كل نواحيه . وهى تتكامل فى هذه الحالة مع السرد بحيث تغدو واياه كلا فنيا متكاملا ..

والشعر ثالثا يرد على لسان أبطال القصص وتخوصها لرسم موقفهم من الأحداث ، أعنى أن الشعر فى يد القاص أداة للتعبير عن الانفعالات النفسية . وهو أداة لتصوير الجانب الذى لا يستطيع السرد النثرى أن يصوره بأمانة ودقة تامتين .. ويبدو هذا فى أروع صوره عند وهب بن منبه فى قصة مضاض ومى .. قصة الحب الخالدة التى حكيت لك من قبل .. فمى حين تقول :

مضاض غدرت الحب والحب صادق
وللحب سلطان يعز اقتداره

غدرت ولم أغدر وللعهد موثق
وليس فتى من لا يقر قراره

اذا جاءنى ليل تململت بالذى
دعا كدى حتى تمكن ضاره

أبيت اقاسى النجم والليل دامس
وللنجم قطب لا يدور مداره

اذا غاب لم اشهد وكان محله
محلى ودارى حيثما كان داره

اذا هاج ما عندى لأول غيرة
علاه اشتعال ما يطاق استعاره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مى هنا تعبر عن لون الحب الذى تعانيه ، ثم عن لون الغيرة التى تقاسيها تعبيرا يفـوق كل ما يمكن أن يقوله القاص واصفا حالتها النفسية ومحددا مقدار هذه الغيرة التى أكلت هـذا الحب العظيم اكلا .. ولجوء القاص الى الشعر هنا أمر لا مفر منه ان اراد أن يكون صادقا صدقا فنيا فى تصوير أبطال قصته .. وهـو يرسم موقف مضاض من مى بنفس الطريقة ، ويورد على لسـانه شعرا عذبا رقيقا معذبا اذ يقول :

سـألتك بالرحمن لا تجمعى هـوى
عليـه وهجـرانا وحبـك جـاره

فان لم يـكن وصـل فلفظ مـكانه
اليـه والا موطن المـوت داره

الشعر هنا ـ كما ترى ـ ليس فضولا ، وانما هو تغير فى وسيلة التعبير اقتضاه الموقف واضطرت اليه الامانة .. وليس من الأمر فى شىء أن يكون هذا الشعر موضوعا أو زائفا ، وانما يكفينا أنه عبر حين عجز النثر أن يعبر ، وأنه استطاع أن ينقل الينا مايريد القصاص أن يصوره من حال مضاض ومى ..

وهو يبدو أيضا عند عبيد بن شرية فى أروع صورة فيمـا حكاه على لسان لقمان من شعر عند موت كل نسر من النسـور السبعة التى وعده الله أن يعيش عمرها جميعا .. فعبيد يقف عند كل نسر منها يذكر كيف عثر عليه لقمان ثم كيف عاش مع لقمان ثم كيف مات النسر وما قاله فيه لقمان من شعر .. وأنت تحس فى

هذه القطع الشعرية تدرجا نحو اليأس والمرارة والخوف يزداد شدة من قطعة الى قطعة حتى اذا ما وصلنا الى القطعة السابعة وجدنا نغمة اليأس والمرارة تصل الى قمتها .. بل نكاد القطعة الأخيرة التى يرثى بها النسر السابع ونفسه معا تكون صرخة عميقة الجذور تحمل كل معانى الأسى واليأس بل والحنق الملىء بالمرارة .

وهــذه القطع التى يوردها عبيد على لســان لقمان تحكى احساس رجل يموت سبع مرات ، عند موت كل نسر يحس أنــه يقترب من الموت خطوة ، ويوقظه موت النسر لحظات ينتزعه فيها من الحياة ليريه النهاية المحتومة المقدرة .

ولست أحسب أن لغة يمكن أن تعبر عن مثل هذا الاحساس قدر لغة الشعر ، ولست أحسب أن القاص حين اختار الشـــعر كأداة ليعبر بها عن هذه المراحل من قصته الا صادقا صدقا فنيــا مهما كان رأينا فى صحة نسب الشعر الى لقمان .

فاستعانة القاص بالشعر هنا ليس فضولا ولا حلية ، وانما هو لجوء الى اقرب الأدوات الى التعبير عما فى داخل النفوس ، واستعانة بأدق هذه الأدوات جميعا وأكثرها ابانة .. والقصاص العربى هنا انما يستعين بالشعر ليقدم ما نسميه نحن فى القصص الحديث بالمنولوج الداخلى .. ويتتبع بواسطة الشـــعر ما نسميه نحن فى النقد الحديث بالحركة الداخلية لنفوس الأبطال .. فالشعر فى هذه الحالة يكمل الصورة ويعطيها عمقا ويرسم ظلالها والوانها، ويخرج القصـــة من مجرد كونها سردا جامدا تاريخيــا لأحـــداث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسطورية ذات دلالة معينة لا تتضح الا فى النهاية ، الى قصة حية تعيش فى وجدان الناس بما لشخصياتها من حياة حقيقية فنيا ، مليئة بالانفعالات والانطباعات ، عامرة بالمشاعر المختلفة المتباينة المتضاربة .

والشعر رابعا يأتى فى آخر القصة أو بعد نهايتها زمنيا لينقل المضمون الذى أراده القصاص من قصته .. فالقصاص يستعين بالشعر يرويه على لسان أبطال خياليين أو على لسان شعراء حقيقيين ليعطى المضمون الذى سعى اليه من سرد قصته منذ بدايتها .. وهو فى هذا يهرب من ايراد هذا المضمون تقريرا على لسانه هو او على لسان أبطاله،فيهرب بهذا من الخطابية والوعظية فى قصته التى يتركها تنتهى نهاية طبيعية دون أن يتدخل هو بحكمة الا فيما ندر .. ثم يأتى بهذا الشعر ليعطى كل ما اراد دون ما افتئات على جوهر قصته وفنيتها وأسلوب سردها .. والشعر فى هذه الحالة غالبا ما كون جمعا لما قاله الشعراء المعروفون فى الحادثة التى يذكرها والقصة التى يعنيها .. كما فعل عبيد فى حديث فناء عاد .. وهى فى بعض الأحيان تأتى على لسان شخصيات خيالية يخترعها القاص ليخرج بالحكمة التى يريد كما فعل وهب فى أكثر من موضع .. ولعل هذا يفسر ظاهرة وجود أبيات الحكمة فى آخر القصائد العربية كتقليد من تقاليد الشعر العربى .. لعل هذا التقليد أخذ من هذه الظاهرة التى نلمسها فى القصة ، فهو وان كان غرضا قائما بذاته فى القصيدة فهو فى القصة شىء مكمل ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

او هو اللمسة الأخيرة النى يتكامل بعدها العمل الفنى ويغدو وافيا بكل ما يراد منه ..

ولجوء القصاص الى الشعر هنا انما ييسر له أمرين : الأول هو التدليل على صدق قصته بما قال فيها الشعراء من شعر ، والثانى أن يحفظ هذا الشعر الذى تركز فيه كل تجربة القصة فيغدو كالأمثال المتداولة على السنة الناس فيذكرهم دائما بقصته .. والمعروف أن معظم الأمثال العربية اما أبيات شعرية ، أو شطر من البيت ، أو كلام مسجوع موسق يسهل حفظه .. والمعروف ايضا ان كل هذه الأمثال انما ترد الى قصص بعينها .. ولكن لعل أهم ما يستفيده القاص من لجوئه الى الشعر هو هروبه من ورود الأحكام على لسانه هو وتخلصه من الأحكام والمضامين لايرادها على السنة غيره ..

وبعد فلعلنا الآن قد وضعنا أيدينا على سر هذه الظاهرة التى تلفت النظر فى القصص العربى ، أعنى ظاهرة ورود الشعر فيه بكثرة وحتمية .. ولعلنا نفهم الآن سر اصرار معاوية على أن يورد عبيد بن شرية شعرا فى كل ما يقول ، ثم لعلنا ندرك سر اطمئنان معاوية الى كل قصة يعضدها الشعر ويأتى فى ثناياها ..

الا أن لهذه الظاهرة جانبا آخر لا يقل عن الظاهرة نفسها خطورة واهمية .. ففى قصة عاد الأوسط مثلا نرى عبيد بن شرية يذكر على لسانه شعرا يصف فيه حربه مع الفرس يبلغ ٣٣ بيتا .. ثم اذ يتوجه تبع إلى الشام يقول فى ذلك شعرا يبلغ ٣٥ بيتا ..

ثم يقف ليذكر قوته وجبروته وسطوته فى ٤٣ بيتا .. وحين نزل تبع الى غمدان قال يذكر آباءه الذين ملكوا قبله الحصون التى كانوا ينزلون فيها باليمن فى ٤٤ بيتا .. فلمـــا رجع تبع من غزواته مر بالمدينة وترك فيها ابنه خالدا فقتله اهل المدينة فقال فى ذلك شعرا يبلغ ٤٧ بيتا .. ثم يعود ليقول فى نفس الحادثة ٣٩ بيتا .. ثم يقول فى نبوءة الحبرين له بخروج النبى محمد صلى الله عليه وسلم بدعوة الحق ٢٤ بيتا .. فاذا ما قتل الهذليين اللذين أرادا له الهلاك بغزو الكعبة قال فى ذلك ٢٢ بيتا من الشعر . فاذا ما كسى البيت العتيق قال فى ذلك ٥٠ بيتا من الشعر .. وقال تبع يمدح قومه ويفخر بقوته ونفسه ٥٤ بيتا .. وكان تبع يعرف النجـــوم وقال فيها من الشعر ٥٦ بيتا . وقال تبع فيما وطئه من البـــلدان ٦١ بيتا .. ويستزيد معاوية عبيدا من شعر تبع فيورد له عبيد من شعره ٥٢ بيتا .. وقال تبع فى حربه للأعاجم الذين اجتمعوا للقضاء عليه ١٠٣ بيتا .. ويعود معاوية فيستزيده من شعر تبع فيذكر له عبيد ٢٣ بيتا قالها تبع .. ثم يذكر عبيد أن تبع حين وقف أمـــام البيت الحرام قال فى الزهد ١٨ بيتا من الشـــعر .. وهكذا يبلغ ما جاء فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى من شعر على لسان تبع ٦٩٤ بيتا من الشعر ، بينما يروى وهب بن منبه فى كتابه التيجان كثيرا من الشعر على لسان اناس عاصروا تبعا ، وكان لهم دور فى قصته ، ويروى ابن اسحق فى السيرة أبياتا كثيرة أخرى حول تبع لأكثر من قائل ..

وهذا الشعر كله انما يروى فيه تبع سـيرة حياته كاملة ،

غزواته وفتوحاته ، معاركه وانتصاراته ، ممزوجة كلها بتأملاته وآرائه .. كما تلمح فى هذا الشعر ما يلقى الأضواء حول معارف العرب فى عصره بالنجوم والشعوب والصناعات . وتلمح أيضا عاداتهم وتقاليدهم فى السلم والحرب .. وتكمل الأشعار الواردة فى الكتب الأخرى الصورة بما ترسم حولها من أطر ، وما توضح من مواقف بعض من اشتركوا بفعل فى حياة تبع ..

وقد نختلف فى قيمة هذا الشعر من ناحيتيه التاريخيةوالفنية . فالشعر الوارد على لسان تبع موضوع قطعا ، والشعر الوارد على لسان غيره قد يكون موضوعا وقد يكون صحيحا .. والشعر فى حد ذاته قد تكون له قيمة فنية من حيث الدلالة على نفسية تبع ورسم آرائه وأحلامه ، وصدى الأحداث الخطيرة التى عاشها فى نفسه ، وقد تكون دلالتها من هذه الزاوية ضعيفة .. بل ان هذا الشعر قد يكون من الناحية الشكلية البحتة موضع نقاش وجدال . ولكن الشيء الوحيد الذى لا جدال فيه هو أن هذا الشعر لو جمع بعضه الى بعض وربط شعريا لملء الثغرات لأكمل عندنا ملحمة طويلة لن تقل بحال عن ٦٩٤ بيتا وهى ما ورد فى كتاب عبيد ، وان كان من المرجح أن تزيد بما يمكن اضافته اليها من الكتب الأخرى والروايات التى جاءت عن طريق عبيد .. وهى من حيث قيمتها الملحمية خطيرة القيمة لأنها تسبق فى عصر روايتها وتدوينها الكثير من النصوص الجاهلية نفسها ، فهى والحالة هذه من أسبق الأعمال الشعرية . وقد يكون واضعها عبيد وقد يكون عبيد مجرد رواية ، وفى هذه الحالة تصبح عملا شعبيا ملحميا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجهول المؤلف الحقيقى ولكنها تسجل تاريخ حياة ملك عربى خطير الشأن فتح كل العالم المعروف فى عصره آنذاك ، وضرب بسهم فى العلوم المعروفة فى عصره ، ولعب دورا خطيرا فى حياة الجزيرة العربية والأديان العربية ، اذ المعروف أنه انما كان يحارب لقتل اهل الشرك وانه هو الذى حمل دين اليهودية الى اليمن ، وانه عظم ووقر الكعبة ثم تنبأ بظهور محمد عليه السلام .

وهكذا تأخذ الملحمة كل مقوماتها من وصف للمعارك الحربية، ومن رسم للصراع فى الجزيرة العربية حول المعتقدات ، أو من تقرير لعظمة العرب وغلبتهم عل كل الأمم .. ثم تأخذ دلالة خطيرة يمسها الاسلام كدين ، اذ تقدم الملحمة اعترافا كاملا لهذا الدين وتعلن أن معركة تبع ما هى الا معركة تمهيد للأرض التى يملؤها الاسلام بعد هذا نورا وعدلا .

وهذا الذى نذكره عن هذه الملحمة يحتاج الى دراسة متفرغة كاملة على احد الدارسين أن يشغل نفسه بها فيقدم لنا صورة للملحمة العربية التى زعم الباحثون أنها لم توجد .. كما أن هذا الذى نذكره عن تبع ليس الا مثلا صغيرا وسط مئات الأمثلة التى يمكن بتتبعها العثور على ملاحم اخرى لا تقل روعة فى هذه الكتب الأولى ..

وبعد فأحسب أن الذى جرنا الى هذا كله هو ما لا حظناه من كثرة الشعر فى كتاب عبيد ، ولعل هذا يكون قد ساقنا الى شىء له قيمته فى دراسة القصة العربية والشعر العربى جميعا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب السيرة النبوية

تكون كتب السيرة العنصر الثالث فى العناصر المكونة لهـذا العصر الذى نسميه بعصر التجميع فى الرواية العربية .. فبينما نرى كتبا تذهب الى جمع الأساطير والروايات العربية كجزء من التراث الأسطورى والفنى العربى ودون أن تعنى عناية حقيقية بتطويع القصة أو الأسطورة لمضمون دون آخر ممثلة فى كتاب التيجان لوهب بن منبه .. نرى كتبا تذهب الى جمع الأساطير والروايات قاصدة بهذا الجمع اثبات المضمون الاسلامى ، ومستعينة بالقصة لتثبيت المعانى الجديدة التى جاء الاسلام لينشرها، وهى والحال هذه لا تتعارض على الاطلاق مع القصص القرآنى، بل تكاد تكون امتدادا له وتكملة ، فاذا ما تعرضت لقصص ليس بالقرآن فهى تضع فيه من الدلالات ما يتفق والقرآن ، وهذه الكتب تتمثل فى كتاب عبيد بن شرية الجرهمى الذى يحكى مجالسه مع معاوية بن أبى سفيان .. هذان كما ترى اتجاهان فى جمع الحكايات العربية والأساطير المتوارثة ، أما الاتجاه الثالث فهو الذى يتمثل فى كتب السيرة ، ولعل قمتها هو كتاب السيرة النبوية لابن اسحق الذى رواه ابن هشام ..

ونحن حين نضم كتب السيرة الى الأعمال القصصية انما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تستند الى طبيعـــة هذه الــكتب ومنهجها كما نستند الى تاريخها وتطورها ..

فالعرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لهم من مادة للتاريخ الأسطورى والقصص الا ما كان شائعا بينهم من اخبار ملوكهم واجدادهم الاولين ، وما فى حياة هؤلاء من احداث اتسمت اغلبها بالسمة الاسطورية وغلفتها الخرافة الى حد كبير .. ولعل اكثر هذه الأحداث ما عرفوه عن طريق اليمنيين من قصص تتعلق بملوك اليمن وابطالها . ونستطيع أن نضيف الى هـــذا كله أيام العرب وحروبهم وما دار حولها من حكايات .. الا أن هـــذا كله مهما حاول القصاصـــون والمؤرخون أن ينقوه من الســـمات الجاهلية فلا شك انه ظل يحمل فى طياته روائح المعتقدات الجاهلية والتقاليد الجاهليـــة .. ولذلك لم يـــكن من العجيب أن يتجـــه القصاصون المسلمون بجهدهم الفنى الى المورد الجديد الذى اتاحته لهم دعوة محمد (ص) . وما روى الصحابة والتابعون من احاديث عن ولادته صلى الله عليه وسلم ، وعن حياته وكفاحه ، وماحفلت به هذه الحياة من حركة وجهاد واصطدام بأهل الشرك . فهـــذه المادة الفنية الزاخرة ليست مصدرا ثريا وحسب ، بل هى مصدر يتفق مع الروح الجديد الذى ملأ اعطاف الأمة العربية بعد الاسلام. ويتلاءم كل التلاؤم مع رغبات المتلقين الذين شغلوا بالاسلام عما عداه ، فكان اقرب الى قلوبهم ان تكون الأعمال المقدمة لهم اعمالا تقوم على صاحب الدعوة وعلى أحداث الدعوة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهناك سبب تاريخى دفع الى هذا الاتجاه القصصى فى سرد سيرة النبى واحداث حياته .. ذلك أن القرن الهجرى الأول مضى جميعه دون أن تدون الأحاديث النبوية تدوينا له صبغة رسمية ، ولعلهم تحرجوا ان يفعلوا ذلك فيجعلوا الى جوار كتاب الله كتابا آخر .. فقد روى عن الزهرى انه قال : أخبرنى عروة بن الزبير ان عمر بن الخطاب اراد ان يكتب السنن ، واستشار فيه أصحاب رسول الله ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهرا يستخير الله فى ذلك شاكا فيه ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال : « انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا اناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا البس كتاب الله بشىء » ..

فأنت ترى تحرج عمر من تدوين الحديث .. والمعروف ان الحديث لم يدون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، بل لقد جاء فى الأحاديث نفسها ما ينهى عن تدوين الحديث، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فلا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ..

وهكذا نرى القرن الأول يمضى بأجمعه وليس هناك كتاب يجمع آثار الرسول ويقدمها للناس ، انما كل ما فى الأمر انالصحابة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحفظون ويروون .. وكان لهـذا الحجر اثره ، فمع حاجة الناس الى ان يعرفوا من امر حياة رسولهم الشيء الكثير ، ومع هـذا الحظر على كتابة الاحاديث وتدوينها نشأ هذا الاتجاه الى التدوين التأريخى الغاية ، القصصى القالب الذى اتجه اليه الكثيرون .. ولعلهم وجدوا فى تدوين ما يتعلق بالنبى وحياته وغزواته ما يحقق ما فى نفوسهم ونفوس المتلقين لمـا يكتبون من تعلق بالرسول ، وحب لتخليد آثاره .

ولذلك لم يكن عجيبا أن يـكون من اول المتصدين لـكتابة السيرة اناس ممن اشتهروا بكتب القصص والأساطير كوهب بن منبه الذى كتب فى المغازى كتابا حفظ حلية الأدباء قطعتين منه ، واحدة تتناول فتح مكة ، والثانية وفاة النبى . ويذكر الأسـتاذ مصطفى السقا فى مقدمة سيرة بن هشام ان فى مدينة هيدلبرج بألمانيا قطعة من هذا الكتاب ، ويقول الدكتور حسين نصـار فى كتاب نشأة التدوين التاريخى ان هذه القطعة تتناول تاريخ العقبة الكبرى واجتماع قريش فى دار الندوة والهجرة وغزوة بنى خيثم « مما يدلنا على أن وهبا تناول الفترة المكية والمدنية من حيـاة الرسول » .

الا أن الظاهرة الأساسية فى تدوين كتب السيرة أن معظم القائمين عليها كانوا من المحدثين كعروة بن الزبير بن العوام الذى جاء ما دونه على هيئة رسائل الى عبـد الملك بن مروان جاءنا بعضها عن طريق ابن اسحق والواقدى والطبرى .. ويقول عنها الدكتور نصار انها تمثل اقدم المدونات التى وصلت الينا عن بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحوادث الخاصة فى حياة النبى ، ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن حياة النبى فحسب ، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا فتراه يعالج وقعة القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام، ويعنى عروة أيضا بتاريخ الزبيريين . ولذلك ترى جميع أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه فى كتب التاريخ .. وكذلك اشتهر بالتأليف فى المغازى أبان بن عثمان ، وعاصم بن عمر الذى يقول عنه ابن قتيبة انه صاحب السير والمغازى ، والزهرى الذى يقول عنه الأغانى ان خالد بن عبد الله القسيرى أمره بكتابة السيرة له ، وموسى بن عقبة ومعمر بن راشد ثم شيخ رجال السيرة محمد ابن اسحاق .

وهذه الكتب كلها يذكر عنها المؤرخون أنها عنيت بالشعر ونماذج الخطب والرسائل . ومن بعض النماذج التى نقلتها لنا الكتب المتأخرة عن هذه الكتب نجد أنها تكاد تشبه فى تأليفها وصياغتها كتاب وهب وكتاب عبيد .. وليس هذا بعجيب فالعرب كما عرفنا من قبل قد عرفوا هذه الطريقة الروائية فى نقل تاريخهم مازجين اياه بألوان من الأساطير ، ومغلفين أحداثه بخيالهم الذى يخلق المواقف الروائية بين الأبطال خلقا ، ويجرى على ألسنتهم الحوار الشعرى حينا ، والحوار النثرى المصنوع حينا آخر .. ووصلة الهمز بين العملين ، روائى كوهب يتناول حياة الرسول ومغازيه .. ولسنا نحسب ان وهبا فى هذه المغازى يخرج على منهجه الذى استنه فى كتابه التيجان ، وانما الأقرب الى العقل والمنطق ان يكون منهجه فى كلا العلمين واحدا لا يتغير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالسبب الثانى اذن هو ما حاول به الكتاب ان يسدوا من ثغرة يحسونها اذ يمنعون عن رواية الحديث فلجأوا الى تدوين احداث السيرة معتمدين على ما شاهدوا وحفظوا من أحداث حياة الرسول ، وناهجين النهج الذى تعودوه فى التاليف أعنى النهج القصصى .. وكتاب ابن اسحاق يسير على نهج كتاب وهب ابن منبه من بدء بتاريخ الانبياء من آدم .. الا أن بن هشام حين قدمه لنا انتهج نهجا خاصا فى عمله بالكتاب ، ويصدر ابن هشام كتاب السيرة بما يكشف عن دستوره ومنهجه يقول :

« وانا ان شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل ابن ابراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده ، واولادهم لأصحابهم ، الأول فالأول ، من اسماعيل الى رسول الله (ص) وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك ما يذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر ، ولا نزل فيه القرآن شىء ، وليس سببا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ، ولا شاهدا عليه ، لما ذكرتمن الاختصار ، واشعارا ذكرها لم أر احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها . واشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره .. »

وهذا المنهج يحدد مكان قصص السيرة من أنواع القصص فى عصر التجميع هذا ، فهى كما ترى تلتزم التزاما بسيرة الرسول ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحكى عمن سبقوه ماله علاقة بميلاده وما يعد مقدمه لبعثته .. فهى كما ترى تروى التاريخ منذ اسماعيل متتبعـــة من له علاقة بشجرة النسب التى ينتسب اليها الرسول .. فاذا تركت هــذا فانما الى احداث تعد ضرورية لفهم رسالة الرسول كدخول اليهود الى الجزيرة ، ثم دخول النصرانية .. ثم ما بين الدينين الكتابيين من صراع،وما بينهما مجتمعين وبين الوثنية من معارك لاتنتهى، بل قصة الوثنية نفسها وكيف عرف العرب الأصنام فاشركو بعــد ان كانوا موحدين على ملة ابراهيم عليه السلام .. ولا شك أن كل هذا له قيمته واهميتــه فى التمهيــد للحديث عن الرســول وبعثته .. الا ان اعتماد كتب السيرة فى رواية هذا الجــزء الممهد للسيرة نفسها انما كان يقوم على نفس المصادر الذى اعتمدت عليها كتب الروايات والأساطير ككتاب وهب وكتاب عبيد ..

واذا كان وهب جمــع كل شىء دون التقيــد الا بالتسلسل التاريخى ، واذا كان عبيد قد التزم فيما يجمع بمضامين تتمشى مع الدين الجديد ، فان ابن هشام كما ترى يلتزم التزاما بجمع ما له علاقة بالرسول فى نسبه ، أو بالرسول فى رسالته .. فاذا مـــا تعرض لأحداث تاريخية أو اسطورية لا علاقة لها بنسب الرسول، أو بالحركة الدينية فى الجزيرة مر بها مسرعا . فهو يتناول تاريخ اليمن بما له علاقة باشارات القرآن العديدة الى هذا التاريخ ، كعاد وأهل الأخدود وأصحاب الفيل .

وكتب السيرة هــذه نلمح فيها جميعـــا ظاهرة هامة وهى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاهتمام بالمغازى .. بل ان الاسم الذى عرف لهذه الكتب فى أول الأمر هو اسم المغازى . فوهب وأبان بن عثمان وعروة بن الزبير وعاصم بن عمر يشتهرون جميعا بأنهم من كتاب المغازى .. ومعنى هذا انهم يتتبعون حياة الرسول خلال المعارك التى خاضها . والواقع أن كل كتب السيرة حتى التى تناولت من حياة الرسول اكثر من قطاع وقفت كلها عند المغازى وقفة طويلة .. وهذا الاتجاه يكشف عن ما تحاوله هذه الكتب من وصل لتاريخ العرب القديم بتاريخهم الحديث .. وتاريخ العرب القديم سلسلة من المعارك والغزوات ، فكان من الطبيعى أن يلتفت العرب فى تاريخهم الحديث الى الغزوات والمعارك .. ولا عجب أن تبلورت فىنفوسهم شخصية الرسول (ص) لتحل تدريجيا مكان أبطالهم الأسطوريين الذين ينسبون اليهم القوة والقدرة وحرب القوى الخفية .. فالعرب كما لعلك رأيت فى حكايات وهب يعتقدون انهم يحملون الى العالم رسالة ايمان ، ويعطون أبطالهم هذه السمة ، سمةالمدافعين عن حق معين .. وهذا الحق يبدو فى بعض الأساطير مبهما غامضا ، وهو فى البعض الآخر يأخذ جانب الكتب السماوية .. فهو مرة مع اليهودية وهو مرة مع المسيحية .. الا انه لا يحارب من أجل الشر أبدا . بل ان حروبهم دائما منذ مطلع ما يذكرون من أساطير تقف الى جانب رسالة ما بصورة دائمة .. وقد أتاحت لهم شخصية الرسول كل السمات التى يبحثون عنها فى أبطالهم .. فقد كانت معاركه كلها معارك انتصار لمبدأ ، ودفاع عن ايمان ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحربا ضد شرك وكفر .. كانت معاركه اذن صـــورة واقعيـــة لأحلام أسطورية كثيرة راودت ذهن العربى وملأت خياله من قبل..

كان العربى يتلمس أبطاله فى أعماق التاريخ فى حياة التبابعة والجرهميين ، وكان يلبس أبطاله ثوبا معنويا يرتاح هـــو اليه ، ويطمئن الى أنه يمثل بما فيه من فضائل ، ويحقق نزعته الىالبطولة المتكاملة .. وفى النبى تجسدت هذه الفضائل وتحققت النزعـــة البطولية المتكاملة . ولذا فالنبى (ص) يحتل فى هـــذه القصـــة مكان البطل ، ويمثل فيها جماع ما كان العرب يحلمون به من مثال لبطلهم الذى يحمل السيف دفاعا عن حق معين تسنده قوة جبارة تعينه على هزيمة المشركين . وتفتح أمامه الطريق وتزيل من أمامه العقبات ، بينما هو وقلة من رجاله يجالدون أهل الشرك الكثيرى العدد والعدة حتى ينتصر وينتصر معـــه ايمانه الجديد ورســـالته الجديدة .. ومحمد بعد منهم ما فى ذلك شك يرفعون نسبه الى اسماعيل محققين فى كل أب من أبائه رابطين سلسلة النسبالنبوى بمجموعة من الأعمال التى تمهد للبطولة الكاملة عنـــد محمد .. ويقول ابن هشام فى الجزء الأول من السيرة : « فرسول الله صلى الله عليه وسلم اشرف ولد آدم حسبا ، وافضلهم نسبا من قبـــل ابيه وامه صلى الله عليه وسلم » ومن الأحاديث التى نسبت اليه (ص) أنه قال : « ما ولدتنى بغى قط منذ كنت فى صلب آدم ، فلم تزل تنازعنى الأمم كابرا عن كابر حتى خرجت فى افضل حيين فى العرب : هاشم وزهرة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والواقع أن السمة الأولى فى أبطال العــرب اتصال نسبهم اتصالا واضحا لا خلل فيه بآدم ، فالشرط الأساسى للبطل العربى ان يكون شريف النسب ، صــحيحه ومتصله .. وفى كتاب وهب وكذا فى كتاب عبيد لن تجد بطلا تاريخيا واحدا لا يذكر لك المؤلف نسبه الذى يصله بآدم .. وكأنهم يجــدون فى شرف نسبة بطلهم شرفا لهم أجمعين ..

واحب هنـــا أن الفت الى ظاهرة هامة متميزة ، ذلك أن ابطال العرب قبل الاسلام كانوا جميعا من عرب الجنوب أى من اليمن .. بينما محمـــد يمثل البطـــل الحقيقى الأول من عـــرب الشمال .. ولذا فقد كان احتفال الشماليين بظهوره احتفالا خطيرا وهاما .. فقد ظلوا يتناقلون بطـــولات اليمنيين باســـتمرار حيث كانت الحضارة والمدنية ، وعزاؤهم انهم بعد عرب .. اما وقـــد ظهر فيهم بطل شمالى نسبا وحسبا فلا عجب أن استعاضوا به عن غيره من ابطال أساطيرهم القديمة.. وانت تعرف هذه المحاولة العصبية المظهر التى وردت عند عبيد بن شرية الذى اراد بهـــا وهو اليمنى أن يضيف هذا البطل الشمالى الى قومه فيقـــول : « حتى كان اسماعيل ونقله ابوه ابراهيم صلى الله عليـــه وسلم من بلاده ، فأنزله بمكة .. فكنا نحن جرهم أهل البلد والحرام ، فنشأ اسماعيل بيننا وتكلم بكلام العربية وتزوج منا .. فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمر الجرهمى . واســـماعيل وأبوه منا ، وانتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الم تعلموا انكم من ولد اسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليه وسلم، وابراهيم نحن ولدناه وأبوه آزر واسمه تارخ بن ناحور بن أرغو ابن شارخ بن فالغ بن عابر ، وهو هود ، فهو أبونا وأبوكم ، فنحن ولدناكم وأنتم منا ونحن منكم قليل فى كثير » ..

هذه المحاولة من جانب عبيد تبين أهمية ظهور هذا البطل الشمالى عند العرب .. وهو كراو يمنى يحاول أن يمزج البطولتين بعضهما ببعض ، بطولة النبى الشمالى ببطولة اليمنيين الذين امتلأت أساطيرهم بأكثر من بطل .

والواقع ان البطل العربى تتجمع فيه سمات هامة : أولها اتصال نسبة بما يثبت عروبته وشرفه وأهمية آبائه جميعا .. وثانيها دفاعه عن مبدأ وعقيدة ، وأيا كان هذا المبدأ وتلك العقيدة فلابد ان تكون خيرة مؤمنة .. وثالثها أن تسنده قوة غيبية خارقة تثبت صحة ما يدافع عنه من مبدأ كما تثبت أهميته هو فى عالم الأبطال الخالدين ..

هذه السمات تجدها فى كل أبطال وهب وعبيد ، فليس منهم الا كل ملك يتصل نسبة بآبائه من الملوك حتى يصل الى هود ومن هود الى آدم .. وكلهم يدافعون عن الايمان سواء كان هذا الايمان هو التوحيد بعامه أم هو دين من الأديان الكتابية .. وكل منهم له قوة غيبية تساند خطاه ،ولعل هذا أوضح ما يكون فى قصة ذى القرنين الذى يأتيه الوحى من أحلامه أو من ارشاد رفيقه الخالد الخضر . بل ان معظم أبطال اليمن أن لم يكونوا ملوكا فهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انبياء سخر لهم الجن والانس والرياح والوحوش كسليمان بن داود أو كصالح النبى أو هود نفسه ..

وفى محمد (ص) اجتمعت هذه الصفات .. وقد حدثتك عن نسبه ، وأنت تعرف رسالته ، بقيت القوة الخارقة وهى السمة الثالثة فى البطل العربى ، وهى نفسها التى ستفسر لنا فى بساطة ويسر ما امتلأت به كتب السيرة من احداث خارقة تنسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنت قد ترفضها عقلا ، وقد تنكرها دينا ، ولكنك ستعرف سببها فى كتب السيرة حين تعرف انها تحقق شرطا جوهريا من شروط البطل عند العرب .. فقد كان من الطبيعى اذن أن تضيف هذه الكتب الى الرسول كبطل كل علامات التأييد الغيبى كالملائكة التى تحارب فى صفوفه ، وكمعرفته لما يدور فى الخفاء ، ثم صور ايمان الناس فى مختلف العصور والأزمان به وبرسالته ، الناس والجماد أيضا .

وهذا كله يمثل السبب الثالث فى اتخاذ السيرة شكل القصة وهو سبب كما ترى نفسى يتعلق بتصور العرب لأبطالهم ، وبحاجة العرب الى بطل جديد يجمع سمات الدين الجديد الذى آمنوا به، ويجمع فى نفس الوقت سمات أبطالهم القدامى ومميزاتهم ..

فالأسباب كما ترى هى أولا أن النبى وسيرته كان فيهما الغناء عن السير الجاهلية لشعب آمن به وبرسالته . وهى ثانيا أن العرب منعوا فى القرن الأول للهجرة من رواية احاديث الرسول فوجدوا فى السيرة متنفسا لتداول احاديث الرسول وحكايات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حياته . وهى ثالثا أن محمدا كان شماليا يمثل البطل الجديد الذى يجمع فى نفس الوقت سمات البطل العربى فى كل مراحل التاريخ الأسطورى للعرب ..

وهذه الأسباب المتداخلة المتشابكة يضاف اليها سبب جوهرى هام وهو حاجة العرب الى زاد من القصص باستمرار — وقد اثبتنا من قبل أن ادبهم الأساسى كان هو القصة ، وان مجالس اسمارهم لا يمكن أن تخلو من القصص ، وقد نهى الاسلام عن الجاهلية وسيرة أهلها — فكان لابد من البحث عن مصدر جديد للقصص والأسمار .

والسيرة النبوية بهذا تقف مكرحلة انتقال بين الشكل القصصى الذى عرفه العرب قبل الاسلام وبين شكلها الذى تطور فيما بعد الى القصص العربى الاسلامى .. فالذى لا شك فيه أن السيرة قد اثرت فى القصة العربية تاثيرا ضخما وكبيرا .

وانت لن تجد قصة عربية بعد هذا الا وهى تبدأ بنسب البطل وقبيلته ، واتصال هذا النسب وصحته ، واهمية تلك القبيلة وخطورتها .. ثم لن تجد قصة بعد هذا الا وبطلها يدافع عن حق وقضية ، ويحارب شركا وكفرا .. ثم لن تجد بطلا لا تؤيده قوة غيبية تسدد خطاه وتعينه . فكأن السيرة كانت قمة للأعمال القصصية قبل الاسلام ، تبلورت فيها كل مميزات القصة العربية لتغدو بعد هذا مصدرا للفن القصصى عند العرب .

فسيف بن ذى يزن البطل الاسطورى يتصل نسبه من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التبابعة حتى هود ثم آدم ، وهو يدافع عن الايمان والتوحيد بصورة عامة ، ويحارب الشرك والكفر بصورة عامة ، وان كان فى كثير من الأحيان يحدد صورة الايمان بأنها دين ابراهيم الخليل .. وهو مؤيد بالجن المؤمن ومجموعة من الطلاسم التى تفتح له كل مغلق ، بل هو مؤيد بقوى مؤمنة صالحة كالخضر الذى يظهر له اكثر من مرة وكغيره من الانبياء الصالحين الذين ينتظرونه ليهدوه سواء السبيل .

وعنترة يتصل نسب ابيه ونسب قبيلته بنى عبس لتغدو اشرف قبائل العرب ، فاذا ما استمرت القصة قليلا اكتشفت ان امه بنت ملك الأحباش فهى رغم كونها امة فى بلاد العرب الا انها شريفة النسب ، بل هى اكثر الحبشيات عزة ومكانة.. وعنترة قوى قوة خارقة وهبها له الله تجعله يفوق البشر جميعا وقت الصدام .. وحين تعوز المؤلف رسالة يضيفها الى عنترة فهو يقول ان عنترة سلط على العرب ليقضى على كل جبابرتهم قبل الاسلام ليمهد بهذا للنبى ، فما يظهر الا وقد قتل عنترة كل جبار يخشى على الرسول منه .

وكما اثرت السيرة فى القصة العربية من بعد فكذلك اثرت فى الحديث النبوى . فقد انتشرت هذه الكتب وكأنها تحوى علما حقيقيا لا جمعا أسطوريا لما سبق الرسول من احداث ، ورواية قصصية لأحداث حياة الرسول .. وهكذا دخل الحديث الشىء الكثير من الاسرائيليات والوضع .. فأنت ترى ان مصادر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الكتب كانت رواة الأخبار كوهب وعبيد وغيرهم كما كانت الكتب المختلفة التى تتناول أساطير العرب وحكاياتهم ، بل أنت ترى ان من العاملين فى تدوين السيرة مؤرخون لأساطير العرب كوهب بن منبه نفسه .

ولعلك تستطيع الآن أن تدرك سر كلمة الامام احمد بنحنبل التى اوردها السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان اذ يقول : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى » .

اما التفسير فلأنه استمد معظم مادته من كتب السيرة وما تحكى من قصص وحكايات .. وأما الملاحم فقد رأيت معى عند الكلام عن كتاب عبيد انه روى على لسان تبع الأوسط ٦٩٤ بيتا تحكى حياته واعماله ويمكن اعتبارها بعد جمعها ملحمة كاملة . وهى كما ترى من النظرة الأولى موضوعة ولا شك ، فتبع لم يكن يعرف العربية التى كتب بها الشعر المنسوب اليه .. اما المغازى فقد كتبت كما رأينا كعمل قصصى يمثل الامتداد لما عرف العرب من قصص،فلم يكن القصد من تدوينها العلم والتاريخ بقدر ما كان القصد من تدوينها الفن والامتاع ، وتحقيق الصورة الكاملة للبطل العربى كما تصوره كتاب هذه المغازى ..

كلام أحمد بن حنبل اذن صادق صدق كلام الخبير العارف، وهو فى نفس الوقت دليل على صدق ما توصلنا اليه من نتائج بشأن هذه الكتب .. أعنى كتب السيرة ..

وكتب السيرة كما رأينا تمثل الركن الثالث فى أركان القصة العربية فى هذا العصر الذى اسميناه بعصر التجميع .. فهى تمثل النوع الذى يعنى بأحداث تتعلق بفرد واحد ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت هذه الأحداث قد أخذت مكانها قبل مولده أو بعده .. الا أن هذه الكتب فى الوقت نفسه تعتبر مرحلة الانتقال بين عصر التجميع هذا وبين عصر التدوين الذي يليه .. فهى قد استفادت من الركنين الآخرين فى عصر التجميع وأخذت منهما كل ما يمكن أن تأخذه ليتكامل لها الشكل القصصى . وهى قد أضافت الى كل هذا تقاليد جديدة الى العمل القصصى العربى تظهر آثاره فيما جاء بعدها من أعمال .. ثم هى تروى فى جزء كبير منها أحداثا واقعية شهدها اكثر من واحد ورواها اكثر من واحد ، واعنى حياة الرسول (ص) فهى والحالة هذه نقله الى الكتابة عن معلوم معروف ، لا رواية مصاغة عن روايات قديمة معروفة وحسب ..

واحسب انه من المفيد لنا ان نقف وقفة صغيرة عند أحد هذه الكتب نتعرف عليه تعرفا واضحا ، وأحسب أن اقرب هذه الكتب الى اكتمال الصورة سيرة ابن اسحاق التى نقلها ابن هشام ، وحققتها لنا وقدمها للمطبعة العربية فى أربعة أجزاء الأساتذة : مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى تحت اسم السيرة النبوية لابن هشام ..

* * *

سيرة ابن إسحاق

لعله من العجيب حقا أن ننظر الى كتاب ابن هشام الذى يرويه عن ابن اسحق نظرتنا الى كتاب تاريخ حقيقى يؤرخ لحياة الرسول تأريخا يراد منه وجه العلم والحقيقة وحدها .. فثمة أشياء تقف دون هذه النظرة وتجعلنا نحتاط قليلا ونحن نحاول أن نضع هذا الكتاب فى مكانه بين الكتب ..

أول هذه الأشياء أن ابن اسحق المتوفى نحو عام ١٥٢ هـ كان جامعا مبوبا لكل ما رواه من سبقه من الناقلين المحدثين أمثال عروة بن الزبير ووهب بن منبه وابن شهاب الزهرى وشرحبيل بن سعد وعاصم بن قتادة وغيرهم .. ولهؤلاء جميعا أعمال متفرقة فى السيرة ، ومنهم من تناول فترة بذاتها ، ومنهم من اهتم بالهجرة الى الحبشة ، ومنهم من اقتصر على حكاية المغازى ، ومنهم من حكى عن رسول الله (ص) .. وجاء ابن اسحق ليؤلف من هذا كله عملا موحدا ، يجمعه مما تناقله هؤلاء الرواة ، ويبوبه حسب أحداث التاريخ وحسب المكان والزمان ..

ورغم أن كتاب ابن اسحق نفسه ليس تحت أيدينا الا أن رواية ابن هشام لكتابه تبين منهج ابن اسحق وتوضح طبيعة عمله . والواقع أن ابن هشام يحاول أن يتدخل فى كثير من

المواقف لينقد ويعارض ويشرح ويضيف ، فاذا ما أغفل شيئا تصدى السهيلى فى الروض الأنف لبيان خطأ تاريخى أو تصحيح رواية تتعارض مع أحداث الرسالة أو طبيعتها .. فعندما يتحدث ابن اسحق عن فرض الصلاة نرى السهيلى يقول معقبا وناقدا « وهذا الحديث لم يكن ينبغى ان يذكره فى هذا الموضع ، لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت فى الغد من ليلة الاسراء . وذلك بعد ما نبىء بخمسة اعوام . وقد قيل : ان الاسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف ، وقيل بعام ، فذكره ابن اسحاق فى بدء نزول الوحى ، واول أحوال الصلاة » ..

وتتكرر هذه الظاهرة كثيرا فى مواضع مختلفة من رواية ابن اسحق . ومعنى هذا انه حصل على كمية كبيرة من الأخبار والقصص وحاول أن يرتبها ويبوبها فنجح فى هذا فى غالب الأحيان ، وجانبه التوفيق فى بعضها فكشف هذا عن طبيعة عمله الذى يقوم على التجميع لا على النقد والتمحيص ومقابلة الروابة بأخرى ومحاولة التحقيق اتاريخى ..

ونرى ابن هشام يتدخل كثيرا ليكمل حادثة اشار اليها ابن اسحق اشارة وتركها دون افاضة ، كما فعل فى قصة داحس والغبراء وحروب الأوس والخزرج وغيرها .. وهذا ربما كان يعنى ان ابن اسحق لم يأخذ من الروايات الا ما يقيم هيكل كتابه ، وما زاد عن هذا الهيكل تركه حتى وان كان فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكره ما يلقى الضوء على الأحداث نفسها . وهذا ــ كما قلنا ــ ما حاول ابن هشام أن يتلافاه ويكمله ..

فابن اسحق اذن ليس مؤرخا بالمعنى العلمى لهذه الكلمة. وانما هو جامع ومبوب .. كانت السيرة قبله أجزاء متفرقة ، يروى كل من تناولها ناحية ، فجاء هو ليجمع هذه النواحى كلها فى نهج متسلسل تاريخيا ..

والرواة الذين سبقوا ابن اسحق ومنهم القصاصون وجامعو الأساطير لم يقصدوا ــ كما بينا من قبل ــ التاريخ لذاته ؛ وانما كان عملهم ــ الى حد كبير ــ محاولة لاشباع نهم العرب الى القصص ، وهم قد اختاروا شخصية محمد (ص) بطلا لقصصهم استعاضة به عن أبطال الجاهلية الذين يقصون عنهم لأنهم وجدوا فى شخصيته وفاء بملامح البطل العربى وسماته ، كما كانوا يحاولون أيضا اشباع نهم المسلمين الى الحديث عن رسولهم فى وقت منع فيه الخلفاء الصحابة من تدوين الحديث وجمعه اكتفاء بالقرآن الكريم .. ويكفى أن يكون فى طليعة هؤلاء الرواة واحد كوهب بن منبه أكبر جامع لأساطير اليمن لنرى فى هذا الدليل على ارتباط السيرة فى أذهان هؤلاء الرواة بالقصص ..

وحين جاء ابن اسحق فجمع كل هذا مؤلفا بينه ، ومكونا منه أول كتاب متكامل فى السيرة ؛ تعرض للاتهام والحملة عليه؛

فنجد عالما جليلا كالامام مالك بن أنس . وآخر كهشام بن عروة ابن الزبير يكاد أن يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق والثقة ، ولا يدخران وسعا فى اتهامه بالكذب والدجل الى جانب اتهامات أخرى كالنقل عن غير الثقات وصنع الشعر ووضعه فى كتابه وأخطاء فى الأنساب وغيرها ..

ونحن نرى أسبابا كثيرة لأمثال هذه التهم فيما يرويه ابن اسحق من قصص تخرج عن حد المعقول ، وتتعارض وطبيعة محمد البشرية وحقيقة رسالته كل التعارض .. فالصورة التى نخرج بها عن محمد من كتاب ابن اسحق أقرب الى الصورة الأسطورية منها الى الصورة التاريخية .. فهو يدعو ربه فينزل المطر ، وحين يجلس تظله شجرة الأنبياء ، وحين يسير تمنع عنه الشمس غمامة ، الى آخر ما فى الكتاب من معجزات ..

وعذر ابن اسحق كما قلنا أنه يجمع روايات شتى يرويها أكثر من راو ، وفيهم من يتعشق الأساطير ، وفيهم من يكتب الأساطير . ويحاول الخطيب فى كتابه « تاريخ بغداد » وابن سيد الناس فى كتابه « عيون الأثر » أن يدافعا عن ابن اسحق دفاعا حارا ، ولكن دفاعهم لا يستطيع أن يمحو هذه الحقائق الموجودة فى كتابه .. الا ان كلمة الفصل تأتى على لسان أحد المدافعين عنه اذ يقول ابن عدى : « ولو لم يكن لابن اسحق من الفضل الا انه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شىء للاشتغال بمغازى رسول الله (ص) ومبعثه ومبتدأ الخلق ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن اسـحق » .. فكتابه بهـذا الاعتراف كتاب يصرف الناس عن ذكر ملوك الجاهلية وأبطـال أساطيرها الى ذكر رسول الله وغزواته .. ومعنى هذا أن ابن اسحق انما كان يجمع قصصا عن الرسـول ويرتبهـا ويبوبها ويقدمها لنا متكاملة لتقف أمام سير ملوك العرب وأبطالهم وتتفوق على كل هذه السير بما لمحمد من لصوق بقلوب العرب والمسلمين، وبما لأحداث حياته من اهمية فى عالم المسلمين يبـرزها الدين والعصبية والهدف المشترك .. ولعلنا بعـد هذا نرتاح الى أن كتاب ابن اسحق لم يقصد منه الى التاريخ ، وانما قصد منـه الى جمع القصص كما هى طالما استطاعت أن تؤدى دورا فى الكشف عن جوانب البطولة فى حياة الرسـول ، وابراز ملامح الكفاح فى كل مراحل حياته ..

* * *

ثانى الأشياء التى تواجهنا ونحن نبحث مكان كتاب ابن اسحق بين الكتب هى طريقة تأليفه للـكتاب .. وابن اسحق يبدأ كتابه بالتنويه بأنه يعرض فيه لسيرة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .. فيبدأ بذكر نسب الرسول حتى آدم .. ويحدد موضوعه بأنه ما يتعلق بحياة الرسول ونسبه ، ويلقى على أحداث سيرته من الأضواء ما يجلى رسالته ويظهر أهميـة دعوته وتطورها . ويأتى ابن هشام فيأخذ مما جاء به ابن اسحق حسب منهج خاص وضـحناه ، ويبين منـه أن الأمر تتبع لأهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشخصيات التى جاءت فى نسب الرسول . وهو تتبع لا يخضع للتاريخ بقدر ما يخضع للأهمية الأسطورية . فاننا لنراه يقفز قفزا من تتبع نسب الرسول ومحاولة معرفة مكانته بين العرب، الى أحداث تقع فى اليمن فتؤذن بموت ملكهم ربيعة بن نصر ودخول الحبشة الى اليمن ، ثم عودة الملك على يد سيف بن ذى يزن ، ثم انقطاعه بظهور رسول الله فى مكة .. والأحداث كما نرى أسطورية الدلالة ، أسطورية التأليف ، وهى تتعلق بملوك اليمن الذين تعلم مما ذكرنا عنهم من قبل أنهم كانوا المادة الأسطورية الأولى عند رواة الأساطير العربية .. ثم نستمر الحكايات عن دخول اليهودية الى اليمن ، فدخول النصرانية ، فيوم الفيل ، وتقف عند عبد المطلب قليلا . ثم تستأنف القصة سيرها حول أمة الفرس باليمن ، فبدء ظهور الأصنام وعبادتها ، ثم عود الى النسب فيقف وقفة طويلة عند عبد المطلب بن هاشم ويجره هذا الى الحديث عن زمزم .. وهنا تبدأ سلسلة أخرى من الأساطير حول البيت ومن تداولوا على السكنى حوله من جرهم الى كنانة وخزاعة الى قريش .. ومن زمزم أيضا يتطرق الى حياة عبد المطلب وأولاده الى أن يصل الى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وهذا الحديث كله رغم أنه يحاول أن يلبس سمة العلم بما يورد من انساب الا انه لا يخرج فى شىء عن منهج سبق أن رأيناه عند وهب بن منبه فى كتابه التيجان ، وعند عبيد ابن شرية فى كتاب اخبار ملوك اليمن .. فالسيرة رواية أحداث والأحداث تعتمد على أفراد بذاتهم وحولهم تدور الأساطير ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تسلم كل أسطورة الى التى تليها .. فاذا ما انتقلنـــا الى باقى الكتاب رأيناه يتبع نفس الطريقة فهو ينتقل من حدث الى حدث ، ولكل حدث بطل يدور حوله الحديث ويسلم الى الذى يليـــه فى القصة التالية وهكذا ..

الفرق الوحيد أن وهبا كان يجمع الروايات حــول ملوك اليمن بعامة وكأنما يريد أن يصور حضارة اليمن ومجـــدها عن طريق سرد أساطيرها . وعبيد كان يحكى من أساطير اليمن ما يعطى معنى اسلاميا وما له علاقة بالقصص القرآنى ، أما ابن اسحق فهو يجمع الروايات التى لها علاقة بمحمد كانسان وبمحمد كنبى . واهتمامه بمحمد الانسان جعله يجمع ما له علاقة بنسبه وبيئته وجدوده .. أما عنايته بمحمد النبى فجعلته يعنى بجمع ما له علاقة بالأديان فى الجزيرة من ديانة الحنيفية الى اليهـــودية ثم المسيحية مع ذكر تاريخ عبادة الأصنام .. وكأنما يحاول أن يرسم صورة للجزيرة قبل محمد .. فاذا ما بدأ فى الحـــديث عن محمد نفسه فهو بطل أسطورى قد امتزج بشخصـــية النبى ، تنسب اليه المعجزات والخوارق ، وترسم صـــورة كفاحه الجاد فى سبيل رسالته معا وفى وقت واحد . وهذا التضارب فى رسم الشخصيات نجده عادة فى أساطير العرب جميعا ، فأنت سرعان ما تحس باختلاط واضح بين شخصـــية الملك التاريخيـــة وبين صورته الأسطورية التى يوردها القصاصون فى مزيج بين مايعرفه التاريخ وبين ما يخلقه الخيال ..

والتشابه بين كتاب ابن اسحق وبين غيره من كتب القصص العربية لا يقف عند هذا الحد بل هو يمتد الى طريقة سرد القصة نفسها . فهو بعد أن يلم بأحداث قصة يخرج منها الى ما قيل فيها من شعر .. واحساس الناقدين القدامى بزيف هذا الشعر راجع الى اعتبارهم الكتاب تاريخا بينما هو فى واقع الأمر لا يعدو ما كان متبعا فى كتب القصص والأساطير بعامة من انهاء كل قصة بسرد الشعر الذى قيل فيها من أقوال شعراء معروفين، فان لم يوجد فهو شعر ينسب الى أحد أبطال الحادثة نفسها ، أو البطل الأصلى للحادثة .. وفى حادثة واحدة وهى موت عبد المطلب ابن هاشم يذكر ١١ بيتا لصفية ابنته و ٧ أبيات لبرة ابنته و ٨ أبيات لعاتكة ابنته و ٩ أبيات لأم حكيم البيضاء ابنته و ٧ أبيات لأميمة ابنته و ١٠ أبيات لأروى ابنته و ٤١ بيتا لأبى لهب عبد العزى ابنه بينما يذكر لمطرود بن كعب فى نفس الحادثة ٧ أبيات .. وليس معقولا أن كل أولاد عبد المطلب نساء ورجالا يقولون الشعر .. كما أن الشعر الذى أورده ابن اسحق ليست له قيمة فنية توجب اثباته ، انما الأمر فيما نرى تقليد يتبعه ابن اسحق نقلا عن كتب الأساطير والحكايات ، وهو لا يقتصر فى استعماله على ما له علاقة بتاريخ العرب الأسطورى القديم وحسب ، وانما يتجاوزه الى ما يورد من قصص تتعلق بشخص النبى وأحداث حياته وكفاحه ..

الاختلاط اذن بين الصورة التاريخية والصورة الأسطورية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسير فى تأليف القصـــة على النهج المعـــروف عن أصـــحاب الأساطير العربية يكون منهجـــا للكتاب ينبت علاقته الشـــديدة بالمثل التى احتذاها ابن اسحق وهى ما سبق من كتب ككتاب وهب وكتاب عبيـــد ..

ومعنى هذا أنه فهم سيرة محمد (ص) كما فهم وهب سيرة الحارث الجرهمى مثلا أو كما فهم عبيد سيرة تبع الأوسط مثلا من حيث البناء والتركيب ، ومن حيث منهج الرواية والتأليف.. وهذا يؤكد أن كتاب ابن اسحق أقرب الى العمل القصصى منه الى العمل التأريخى العلمى القائم على البحث والمقارنة ..

* * *

ثالث الأشياء التى تحدد مكان كتاب ابن اسحق ، موقفه مما يجمع من الأحداث وطريقة ربطه بينهما .. فهو كما قلنـــا يحكى دخول اليهودية بلاد العرب ، ثم دخول المســـيحية ، ثم نشأة عبادة الأوثان ، ثم تلق أهل الجـــزيرة من قريش من كل هذه الأديان ومحاولتهم البحث عن دين الحنيفية .. وكل مايرويه حول هذه الأديان يغلب عليـــه الطابع الأســـطورى ، وان كان يجمعه خيط واحد هو التمهيد لظهور الدين الجديد .. فاذا ما أوشك أن يتحدث عن الدين الجديد فهو يورد مزيجا أسطوريا جديدا يعلن دور هذه الأديان كلها فى التنبؤ بمحمد واعداد الناس لاستقبال رسالته ودينه ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاليهود تنبأوا بمحمد منـــذ تبع الأوسط حين قال له حبران من اليهود أن يكف عن المدينة فلا يهدمها لأنها مهاجر نبى يظهر فى مكة ، ومنـــذ قصة بحيرى اليهودى التى امتلأت بأحـــداث أسطورية واضحة كالظل والغمامة والشجر التى تسخر للصبى الصغير محمد اثناء رحلته مع عمه أبى طالب . ودور اليهود فى التنبؤ كبير ومتعدد ..

أما المسيحية فهناك قصة لا تقل فى تأليفها وسباقها ومـــا فيها من أحداث أسطورية عن قصة بحيرى ، تلك هى قصـــة نسطور فى رحلة محمد مع ميسرة فى مال خديجـــة ، وهى تضم أحداثا تؤكد نبوءة نسطور برسالة محمد كالشجرة التى وجدت خصيصا لتظل محمد ، وكالملكين يظلانه اذا سار .. وهنـــاك دور ورقة ابن نوفل الذى يكثر حوله الشعر وتكثر الحكايات . وتأتى قصة سلمان وكيف سأل رجال الدين النصارى ؛ بل وكيف التقى بالمسيح نفسه مما يضفى على أحداث قصته جوا خياليـــا أسطوريا يقود كله الى تنبؤ النصارى بمحمد ورسالته ..

أما الوثنية فتنتشر الحكايات عند ابن اسحق حول كهـــان العرب وما كانوا يتلقون من علم بالغيب عن طريق الشياطين . ثم ما سبق ظهور محمد من رجم للشياطين بالنجوم مما جعـــل اكثر الكهنة يؤكدون ظهور نبى .. بل ان سطيحا وشقا الراهبين يتنبآن بمحمد منذ ربيعة بن نصر ملك اليمن ، ويخبرانه بزوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملك اليمن علىيد الأحباش، ثم عودته على يد سيف بن ذى يزن، ثم انقطاعه بظهور النبى محمد (ص) من شمال الجزيرة ..

والمسألة بهذه الصورة تكاد تكون تنافسا بين اديانالجزيرة فى الادلال بالفضل فى معرفة الرسول والتنبؤ به وتنبيه الأذهان الى رسالته ..

وتقبل ابن اسحق لكل هذه الروايات — وواضح ان كل واحدة منها لها مصدر بذاته — انما يعنى حياده الكامل تجاه كل هذه الأديان .. فهو أولا لم يحاول أن يناقش اى رواية منهذه الروايات وان كانت واضحة الوضع مليئـــة بالأساطير والأحداث التى يغلب عليها الخيال .. وهو ثانيا يجمع كل القصص التى تمهد لظهور محمد سواء كان مصدرها يهـــوديا أم نصرانيا أم وثنيا .. وســــواء أدل بموقف اليهـــود أم بموقف النصارى ام بموقف الوثنيين .. والذى يهمه منها كلها أنها ارهاصات بمحمد ورسالته بصرف النظر عن مصـــدرها أو دلالتها أو أهميتها .. وهو ثالثا يقبل المتناقضات التى فى كل هذه الروايات التى تحاول كل منها أن تحط من الأديان الأخرى وترفع من قدر دينها هى .. فالروايات اليهودية تعلن أن اليهود يعرفون محمدا اذ هو مذكور فى كتبهم بصفاته وعلاماته ، واليهود مؤمنون يصلون الخمس أو هكذا يروى ابن اسحق فى صـــفحة ٢٢٧ من جـــزئه الأول .. والمسيحيون يتناقل قسسهم النذر بظهور محمد كعلامة لخـــلاص البشرية وظهور الدين الصحيح ، بينما يظهر عيسى بنفســه ليخبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلمان بهذه النبوءة أو هكذا يذكر ابن اسحق فى صفحة ٢٣٦ من الجزء الأول .. أما أصحاب الوثنية فهم يكفرون الديانتين : فعندهم أن اليهود يعبدون عزرا وأن النصارى يعبدون عيسى . بينما هم — أى الوثنيون — يعبدون الملائكة ..

وهذا التناقض نشهده فى أكثر من موضع بعد هذا وقبله : فالروايات تارة تحط من قدر دين منها وتارة ترفع من شأنه، وابن اسحق يجمع هذا كله بدون تفرقة ..

وهذا كله يعنى أن ابن اسحق لم يكن له موقف علمى واضح ، بمعنى أنه لم يحدد لنفسه حدودا يقبل فيها الرواية أولا يقبلها .. كما لم يجعل لتقبله للمتناقضات حدا . بل لم يحاول أن يناقش أيا من الروايات التى ينقل .

انما ابن اسحق صاحب موقف آخر ، هو الموقف الوجدانى .. فالذى لا شك فيه أن ابن اسحق كان مؤمنا بمحمد مأخوذا بشخصيته ، والذى لا شك فيه أيضا أن حسه الفنى كان مرهفا يتذوق القصة ويستطيب ما بها من مواضع أملاها الخيال وتولدت من الحب أو من دعواه ، ومن الاخلاص أو محاولة الظهور بثوبه. فقبل ابن اسحق كل ما يرضى وجدانه مما يكسب سيرة محمد الجو الفنى الذى يحب ، والذى يجعل منها ما هو أروع من كل سيرة قبلها .. ولعل هذا هو السر فى أنه لم يرفض أى رواية ، ولعل هذا هو السر فى انه لم يقف لحظة شاكا أمام الحكايات

الغريبة التى تروى عن معجزات محمد والتى تخرج محمدا عن طبيعة رسالته وحقيقة دوره .

على هذا الضوء يمكننا أن نفهم عمل ابن اسحق فلا نظلمه كما فعل الامام مالك بن أنس الذى لم يرضه عمله اذ نظر اليه نظرة العالم الباحث عن الحقيقة التاريخية والعلمية .. وانما نضع عمله فى المكان اللائق بـه ، أعنى فى قمة الأعمال القصصية الاسلامية .. والمثل المتكامل الذى يقدم الصورة الثالثة من صور عصر التجميع فى الرواية العربية .. بل نستطيع أن نقول أيضا انه يمثل وحده مرحلة الانتقال بين الرواية العربية قبل الاسلام بمثلها وأبطالها ، والرواية العربية الاسلامية التى تطورت ونمت ووصلت الى قمتها فيما بعد .. والفضل فى هذا كله يرجع الى حس ابن اسحق المرهف الذى استطاع أن يستخرج من كل الروايات حول محمد هذه السيرة المنظمة المنسقة التى تحوى تاريخا قصصيا جميلا لحياة محمد صلى الله عليه وسلم .. وان كان نصيبها من التاريخ والحقيقة العلمية لا شأن لنا به .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملامح مرحلة التجميع

نحن نستطيع القول الآن بأن المرحلة الأولى فى الرواية العربية والتى أسميناها بعصر التجميع تنقسم الى أقسام ثلاثة:

١ ـ الأساطير والروايات ذات المضامين الدرامية والتى عرفها العرب عن أبطالهم القدامى منذ خلق الله آدم الى عام الفيل وأحداثه .. ويقف على قمة هذا القسم كتاب التيجان لوهب بن منبه .. وهدف أصحابه يتجه الى الامتاع من ناحية واشباع حاجة العرب الى أبطال يحوون جماع فضائلهم الحربية والنفسية .. كما هدف أصحابه أيضا الى ابراز المضامين الدرامية التى حوتها حياة العرب وعاشوا فى اسارها .. وهى بهذا كله قد جمعت تراثا فنيا عربيا زاخرا استمد منه العرب فى مختلف أطوار حياتهم الروائية، ويستمدون منه بعد ذلك فى كل أعمالهم ، فأثاره تظهر فى الأعمال الروائية المتأخرة مما يدل على اطلاع أصحاب الروايات المتأخرة التأليف على أعمالهم وتقديرهم لها وتأثرهم بها ..

٢ ـ أساطير وروايات موجهة ، أى راعى مجموعها أن تساير الروح الاسلامية ، والعقلية الاسلامية ، وأن لا تتعارض مع ما جاء بالقرآن من قصص ان كان الموضوع واحدا ، فان اختلف الموضوع فان المضمون توجيهى اسلامى ، يخرج دائما بحكمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا تتعارض ومبادىء الدين الجديد .. ويقف على قمة هذا اللون كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية الذى يحوى مجالسه مع معاوية .. وهذا اللون لا يتقيد فيما يجمع من حكايات بزمن أو مكان أو أشخاص ، وانما هو حر طليق يختار ما يشاء ويقص ما يريد على أن لا يتعارض — كما قلنا — مع الدين ، فان تعارض فلابد من تفسير هذا التعارض وتبريره ..

٣ — حاكيات السيرة ، وهى حكايات تتعلق بحدث واحد هو الاسلام ، وشخص واحد هو محمد (ص) . الا أن هذه الحكايات تبدأ منذ يتخيل جامعوها أن هناك صلة بين ما يروون والرسالة الجديدة .. فهى تأخذ من الكتب الأخرى ما يخدم هذا الحدث ويتركون ما عداه ، ولعلك تلمح فى أكثر من موضع قول ابن هشام فى السيرة النبوية :

« وهو حديث طويل منعنى من استقصائه قطعه حديث سيرة الرسول (ص) » .

فالأحداث عند أصحاب هذا اللون انما تخدم هدفا واضحا. وحرية من يجمع القصص ليست مطلقة وانما هى مقيدة بما يقيد أحداث السيرة نفسها . ويقف على قمة هذا اللون كتاب السيرة النبوية لابن اسحق . الذى يمكننا أن نعده بحق أول عمل قصصى فى الاسلام ..

وسمات هذه المرحلة مرحلة التجميع تكاد تتشابه فى فهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحداث ، وفى موقف أصحابها من الأساطير وشطحات الخيال ، ومن صورة للبطل وصفاته وسماته مما فصلناه فى مكانه ..

ونحب ان نوضح أن هذه المراحل الثلاث بينها من التشابك والاختلاط ما يجعل الفصل القاطع بينها متعذرا ، انما هى حدود نحاول أن نضعها لنسهل البحث ونفتح الطريق ..

* * *

وبعد فلعلنا استطعنا أن نرسم الصورة التى تخيلنا لهذا العصر الذى يعتبر بداية لظهور القصة فى أدبنا العربى .. ولعلنا ايضا نكون قد أجبنا على الكثير من الأسئلة التى أثرناها فى مستهل الكتاب ..

ولسنا فى واقع الأمر نريد من بحثنا هذا الا أن يكون دافعا للأساتذة المتخصصين فى معاودة النظر فيما قرروا من أمر النثر العربى والقصة العربية ، فيقدموا لنا من أبحاثهم ما يرد اعتبار الأدب العربى ويضعه فى مكانه من الآداب العالمية ذات الطابع الانسانى ؟

فاروق خورشيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناقشة ورد

« الرواية العربيـــة »

دفاع عن أصالتها وامتدادها

حمل الى صديق عددا من اعداد (الفصلية) التى تصـــدر عن المركز الثقافى الاسلامى بلندن باللغـــة الانجليزية بعنـــوان (الفصلية الاسلامية) واشار الى بحث بهـــا بعنوان (ترجمـــة الأعمال الروائية الغربية الى العربية) بقلم كاتب دارس فاضل هو الأســـتاذ (متى موسى) .. وعلى الرغم من أن موضـــوع الترجمة مجال لبحث شيق ولا شك الا أن الذى أراد صـــديقى أن يلفت نظرى اليه هو ما تعرض له كاتب الدراسة من مناقشة طويلة حول الآراء التى ترددت فى مدى تأثر الأعمال الروائيـــة العربية المعاصرة بالترجمة تأثرا مباشرا وكاملا .. وفى هذا المجال يتناول كاتب الدراسة الأستاذ (متى موسى) كتابى (فى الرواية العربية) بالرد والمناقشة ، مع تعرضه لدراسات المرحوم الاستاذ محمود تيمور عن القصة العربية والأستاذ يحيى حقى عن القصة العربية الحديثة وانتمائها الى الترجمة انتماءا مباشرا .والدارس يقدم لدراسته عن الترجمـــة بمسح نقـــدى للاراء التى تعرضت لأصول الرواية العربية المعاصرة ، وواضح من هـــذا التعرض انه يميل الى الأخذ بالرأى القائل باعتبار الترجمـــة عن الأدب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغربى هى الأصل الأول للأعمال القصصية العربيـــة المعاصرة مخالفا بهذا كل من سبقوه بمحاولة ارجاع القصة العربيةالمعاصرة الى تأثرات بتراثها العربى القصصى القديم • وحقيقة الأمر اننى لا أعرف الأستاذ (متى موسى) ولكننى اشهد له بتقصى البحث فى التقديم ثم بعد ذلك فى العرض تقصيا دءوبا وجادا ، وان كنت آخذ عليهماأخذتهوآخذه علىالكثيرين مندارسى تاريخ الروايةالعربية من داء الخضوع لأحكام مسبقة، غالبا هى أحـــكام المستشرقين ، والاستسلام لها فى طواعية ويسر ، والاسراع الى تكذيب الناقد العربى أو الدارس العربى اذا ما تعارض رأيه مع ما أجمع عليه المستشرقون وتمشى مع سهولة البحث ويسر تناوله ، وفى حالة الأستاذ متى بالذات فانه وجد لزاما عليه لكى يستطيع أن يمضى فى جهده الكبير فى دراسة ترجمة الآثار الروائية الغربية وخاصة الانجليزية والفرنسية منها فى اثبات أن موضوع دراسته هذه هو صاحب الأثر الأول على ما يحفل به أدبنا العربى الحديث من آثار روائية وقصصية ، وبهذا يصبح للجهد المبذول فى البحث مايبرره، ويصبح موضوع البحث صاحب قيمة عظمى ولافتة . وخاصة وقد مهد هذا لهدفه من البحث برسم صورة لمصر للفترة التالية للاحتلال الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ وما ساد الحياة الثقافيـــة والسياسية والاقتصادية من انحطاط وصـــل بها الى آخـــر درجات التأخر والتخلف فى ظلال الجهل والفوضى والرشوة التى سادت الحياة المصرية تحت الحكم العثمانى الواهى وطمـــوح المماليك الشره ، ويؤكد بعد هذا أن ملامح النور قـــد ظهرت فى البـــلاد المصرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسورية (ويعنى بالسورية هنا الشام كلها) على يد البعثات التبشيرية والجماعات الدينية التى تكونت بنفوذ هذه الجمعيات فى البلاد . وينشط أعضاء هذه الجمعيات فى البدء بالقيام بعمليات الترجمة عندما يبدأ محمد على حملته الاصلاحية لانشاء المدارس المتخصصة لخدمة جيشه الكبير .

وموضوع الترجمة وكيف بدأت؟ ولماذا؟ ومن عمدها؟ ليس فى موضوعى فى شىء ،وان كان الجهد الذى بذل فيه شيقا وموضوعيا الى حد كبير ، ولكن الذى يلفت النظر هو ما ساقه من مناقشة لاثبات فضل عملية الترجمة الكامل على عملية الابداع الروائى العربى المعاصر . فأيا كانت أسباب الدارس ودوافعه فان تعرية أمة من ترادف تيارها الفكرى وتتابعه ، وتكامل حاضرها مع تراثها شىء ينبغى أن يعالج بالكثير من الشك والكثير جدا من الحذر والروية .

وقد اعتمد كاتب البحث على آراء لبعض الكتاب والدارسين تؤكد موقفه ، كما اعتمد على ما كان مترسبا فى ذهن مجمل الدارسين من آراء حملها الجيل الأول من الدارسين العرب متاثرين بآراء أساتذتهم من المستشرقين ، وينقل فى بحثه قول المستشرق (جب) فى كتابه دراسات فى حضارة الاسلام ، ان الكتاب العرب ، وجدوا الميدان خاليا من آثار أدبية مشابهة للأعمال الروائية التى أرادوا ابداع شبيهاتها ، وقد اضطروا تحت ضغط الحاجة الى اللجوء الى المصدر الذى يلبى حاجاتهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بترجمة الروايات الفرنسية والانجليزية بدلا من محاولة بناء أدب روائى جديد بما فى ذلك من خلق شكل أدبى جديد خلقا تاما .. وقول هاميلتون جب هذا يكاد يكون تعبيرا عن صرخة ميخائيل نعيمة التى ظهرت فى « الغربال » والتى ترجمها الأستاذ متى فى انجليزية رقيقة ورائعة والتى تقول : « دعونا نترجم فاذا المتسول يتسول عندما لا يستطيع ان يعول نفسه والظمآن يتسول الماء من جاره عندما يجف بئره .. نحن فقراء مع اننا نتشدق بثروتنا المهجورة . فلماذا اذن لا نشبع حاجتنا من منابع خيراتنا التى تتدفق بالثروة المتاحة لنا » .. ثم يقول الأستاذ نعيمة .. « اننا نفتقر الى العدد الملائم من الأقلام والعقول لسد حاجاتنا الثقافية اذن دعونا نترجم » ..

وصرخة ميخائيل نعيمة وقول هاميلتون جب وكذلك تقريرات يحيى حقى التى اعتمد عليها الأستاذ متى موسى فى دراسته تمثل حاجة ملحة ضيقة فى مرحلة من المراحل ادت الى انتشار الترجمة لكسر المعبر الى الحضارة ككل .. ولكنها لا تثبت قضية أبدا .. تلك القضية التى تحاول أن ترجع أصولنا الروائية المعاصرة الى النقل والترجمة . والا كان معنى هذا أن كل ما اتصل بيننا وبين تراثنا الفكرى العربى والاسلامى هو الدين والدراسات الدينية وحسب . وهذا تعسف كبير . فقد ترجمنا العلوم والرياضة والطب ونظريات الفن والمعمار والبحرية وكل شىء لنعبر ماوضعتنا فيه ظروف الاحتلال والتخلف ولنواصل مسيرتنا الحضارية القديمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن الذى لا شك فيه أن مرحلة العودة الى الحضارة كانت مجرد مرحلة لم تنسنا على الاطلاق جذورنا العلمية والثقافية ، وسرعان ما اكتشفنا فى كثير من العلوم والفنون أن الأدوات العلمية والفكرية التى نستعملها فى انبهار ما هى فى الحقيقة الا تطوير لبضاعة كانت لنا وردت الينا . ولهذا فقد اتجهت دراساتنا بسرعة الى وصل حاضرنا المتطور بماضينا الثرى لنأخذ من منابعنا ولتكون اضافتنا الجديدة أكثر أصالة وعمقا وأشد ارتباطا بتكويننا العقلى وميزاجنا الفكرى والحضارى . ولم يقل احد فى ميدان من ميادين العلم والفلسفة والفكر أن حركتنا العلمية المعاصرة وكذلك حركتنا الفكرية وليدة الترجمة والنقل وحدهما وانما هى عند الجميع وليدة هذا بالاضافة الى ما ورثناه من علم وفكر تكشف عنه الدراسات المتتالية وتؤكده وتعمقه .

واعتمادنا على الترجمة فى ميدان القصة لا يعنى الا اننا كنا نتلمس معبرا الى الحضارة فى ميدان الأدب ، وكفى الترجمة أنها وفرت لنا هذا المعبر ، أما الانتاج فشىء آخر مرة أخرى .. وما حاولنا اثباته فى كتاب (فى الرواية العربية) الذى صدر عام ١٩٥٩ هو أن الانسان العربى عرف القصص طوال تاريخه ، وانها جزء من عطائه الأدبى لم يتوقف لحظة واحدة ، حقيقة أننا اطلعنا على القصص الغربى ترجمة ونقلا بل وتقليدا فى بعض الأحيان فى مطلع حركتنا الأدبية المعاصرة ولكن الحقيقة أيضا أننا اطلعنا فى العصر العباسى والأموى على التراث العالمى وتتذاك فى العلم وفى القصة والفن وفى القصص على السواء . واننا ترجمنا ونقلنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقلدنا فى بعض الأحيان مورثات الحضارة العالمية فى كليلة ودمنة واسمار الليالى وغيرها ، ولكنا حين نقلنا بعد حين قصة الحيوان فى كليلة وحكايات الفروسية فى الف ليلة رفضنا التصورات اليونانية للملاحم والتمثيليات من حيث البناء الشكلى واكتفينا بمعرفتها اذ لم نجد فيها وفاء بحاجة لنا ، فلم نقلدها أو نحذو حذوها فى الانتاج الفكرى العربى الرسمى أو الشعبى علي السواء .. وحين اتجه القصاص العربى الى الملاحم النثرية فى عنترة وذات الهمة وغيرهما كان يطوع شكل الملاحم اليونانية لما يريد هو فخرج بشكل آخر مختلف تماما ومتغير تماما — وهذا ما نقول انه حدث بالنسبة لنهضتنا المعاصرة ، فقد ترجمنا ونقلنا وقلدنا ، ولكن حين انتهت مرحلة الافاقة من الاغفاءة وابتدأ ابداعنا القصصى دخل فيه بالتاكيد وعلى القطع كل موروثنا القصصى ، واثر فيه لا شك ما حمله لنا تراثنا من اشكال فنية قصصية سابقة .

وهذه القضية قديمة وقد اثارها كتاب (فى الرواية العربية) فى اواخر عام ١٩٥٩ ،ومن الغريب أن نجد الأستاذ (متى موسى) يعاود مناقشتها هنا مرة أخرى وفى بحثه بالانجليزية ليرفض كل ما هضمته الحياة الأدبية العربية هذه السنوات كلها وما اقتنعت به وما غيرت به من مفاهيمها ودراساتها ، وحين صدر هذا الكتاب اثار زوبعة نقدية رددنا عليها فى حينها ، ونبهنا[1] الى خطورة المسلمات المنقولة عن المستشرقين فى مثل قول المرحوم الأستاذ احمد امين :

يقول أوليرى : أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف « أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر فى شعر العرب لايرى فيه اثرا للشعر القصصى ولا التمثيلى ، ولا يرى الملاحم الطويلة التى تشيد بذكر مفاخر الأمة كالياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسى ، ثم هم فى عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب فى تاليف الروايات ونحو ذلك . ونحن مع اعتقادنا قصور العرب فى هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب احد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله . فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال والعرب قد اكثروا القول فيه كثرة استرعت الأنظار وان كان الابتكار فيه قليلا) .

هذه الفقرة وردت كاملة فى كتاب فجر الاسلام للمرحوم الأستاذ احمد امين، والكتاب يعتبر واحدا من امهات الكتب فى دراسة تاريخ ادبنا العربى ، ورغم أن طبعة هذا الكتاب الأولى صدرت سنة ١٩٢٨ الا أن دارسى الأدب العربى يعرفون أن هذا الكتاب بالذات كان المرجع الأساسى للكثير من الدراسات التى تعرضت للأدب العربى بخاصة والفكر العربى بعامة ، بل والدراسات الجامعية منها بالذات . وهذا الموقف الذى يقفه أحمد أمين يسير فيه وراء المستشرقين امثال اوليرى ورينان ومرجوليوث وغيرهم ممن يسمون العرب بصفة المادية وضعف الخيال بل ويقررون أن العرب لا يعرفون المعنويات ولا قيمة لها عندهم . ولسنا نشك لحظة واحدة فى أن هذه الأحكام لم تصدر عن الرغبة العلمية الخالصة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوجه الله والعلم، بل لعلها صدرت عن هوى كشفت عنه الأيام يريد أن يقعد بالعرب عند حد معلوم من ارتياد الفكر والثقافة ، ويصبح هذا الحد مباحا طالما بعد عن الابتكار والخلق ، وطالما سلم لأمم الغرب بالتفوق والغلبة ، ومن قديم قالوا أننا بلد زراعى ، وحديثا يعتبرون أرضنا منجما بكرا للطاقة يستنزف لتقدمهم الحضارى وحدهم .

وحين تفجأنا هذه التقريرات الظالمة المتجنية ، وحين تفجعنا هذه الروح المستسلمة المقلدة التى يعالج بها باحثونا ما قرر الغرباء المغرضون ، نتهم فى نظرتنا العلمية واخلاصنا للحقيقة ، ونوصف بالتهور ، وكأنما البحث العلمى أمر مقصور على الأيدى المستسلمة التى تتجمد امام المسلمات الخاطئة ، وتقف مسلمة أمام ما قرره الأغراب وان كان فيه من التجنى والافتئات ما يفقد أشد العلماء هدوءا ووقارا وحكمة ، كل ما علمته اياه الأيام من تأن واتزان ..

لسنا فى واقع الأمر مجرد متحمسين حين نرد ظلما وقع على فكرنا العربى لا يقره عقل ولا منطق ، كما لا يقره البحث العلمى الحر ولا الحقائق التاريخية التى سلمت من التزييف والتحريف والتشويه .. وحين أراد الأستاذ أحمد أمين أن يدفع قول (أوليرى) وضع أمامه الصور الأدبية التى كانت أصلا فى الاتهام فتحدث عن الفخر والهجاء .. الخ .. وما هذه الأضراب من القول الا السبب الحقيقى الذى يستند اليه أوليرى وغيره من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستشرقين فى اتهامنا بالعجز فى الخيال والقصور فى التعبير ، فكأنه دفع التهمة باثباتها مسلما بخلو أدبنا من صـــور الابداع الحقيقى فى الرواية والملحمة .. وعجب أن يتفـــوق اليونان فى الشمال والفرس فى الشرق والهنود فى الجنوب ويظل العـــرب وحدهم القاصرين العاجزين وكأنما تعمدوا أن يكونوا أقل الأمم حظا وأكثرهم تخلفا .. ليس هذا منطقيـــا ولا طبيعيـــا وليس التسليم به وقارا علميا ، وانما هو قصور فى البحث وعجـــز فى الأداة ..

والأعجب من هذا أننا حين تقدمنا فى كتاب (فى الرواية العربية) لنناقش هذه المسلمة المهلهلة ، ولنورد نماذج روائية بالمدلول العام عرفها العرب قبل الاسلام بحقب وحقب ، محللين لها تحليلا يستخرج المضامين الانسانية العامة التى تعالجهـــا والتى تثبت قيمتها الفنية طلع علينا المرحوم الدكتور محمد مندور بحديث عن القصة الفنية وأصـــولها التى يجب أن تتوافر فيها حسب مقررات النقد الأدبى الحـــديث ، وطلع علينا باحثـــون آخرون ، بتعريفات للنادرة والحكاية والقصة .. ولم يســـأل أحد أصحاب الشاهنامة والالياذة عن هذه الأصول ، ولم يحاول أحد أن يخضعها لتلك التقسيمات ، وانما احترمت فى حد ذاتها ودرست على أســـاس أنها عمـــل له كيانه وأصوله وســـميت بالملاحم ، واعتبرت لونا فنيا قائما بذاته تســـتخرج من نماذجه الناجحة أصوله الفنية وقواعده .. كما لم يسأل أحد صـــاحب كيخوته ولا صـــاحب الديكاميرون عن الأصـــول الفنية للرواية

والقصة ،ولم يقف احد طويلا ليناقش: هل دون كيخوته رواية تخضع للأصول النقدية للرواية أم لا . وانما استقبلت بمنتهى الاحترام واعتبرت أعمالا قصصية تمهد لظهـور الفن القصصى المتكامل وتطوره ، وترسم خطوة فى الطريق الذى قطعه المنتجون والدارسون جميعا لهذا الفن .. ولم يتهم احد العقلية الغربية بالقصور ولا المادية لأنها لم تعرف فن القصة كما حدده الدكتور مندور ، بل اتجه الباحث بدلا من هذا الى درس تراثها فقـدره وعرف له مكانه واحترامه ، واعتبره تمهيدا طبيعيا لما بعده ..

ولكننا هنا فقط الذين نتعرض دائما للنظرية المزدرية التى تستكثر علينا ما هو حق طبيعى لكل امة ولكل شعب .. فحينما قدمنا نماذج من الأعمـال الروائيـة بالمدلول العـام من عصور الاسلام وما قبل الاسلام انبرى اكثر من دارس يسال عن نوع هذه القصص أهى رواية أم قصة قصيرة أم نادرة أم ماذا .. ؟ ومادامت هذه النماذج لا تخضع لواحد من هـذه القوالب التى تعلمناها فى المـدارس الثانوية فهى ليست فنـا وليست بشىء ، وايس ما نقدمه ببحث مادام لم يحترم معلومات المرحلة الثانوية فيقدم لها ما يرضيها ويتمشى مع مسلماتها .. اما الدكتور المرحوم مندور فقد تفضل والقى علينـا درسا فى الفـرق بين الرومان والكونت والنوفيـل وهى الاصطلاحات التى تحددت فى القـرن التاسع عشر ذاكرا أن الفن القصصى لم تـكتمل مقوماته الا فى هذا القرن .. وزاد المرحوم الدكتور طه حسين فلفت الدكتـور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منذور الى ان الغربيين قد بدأوا يعرفون صورا من هـــذا الفن منذ بدء عصر النهضة أى منذ دون كيخوته لسيرفانتس ثم ما تلاه من قصص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ويقول الأستاذ متى موسى فى بحثـــه المنشور بالانجليزية منذ شهور فى (الفصلية الاسلامية) :

« لقد أصر فاروق خورشيد على أن الفن الروائى والقصصى ليس جديدا على الاطلاق بالنسبة للعرب ولم يكن من بين الفنون التى استعارها العرب المحـــدثون تماما من الغـــرب فى بداية نهضتهم الثقافية المعاصرة فى أواسط القرن التاسع عشر عبـــر حركة الترجمة ، وقد حاول أن يعضد أدلته على هذا تعضـــيدا حماسيا ولكنه ليس يقينا بأن قدم نموذج تتمثل فى قصة مضاض ومى من كتاب التيجان لوهب بن منبه وهو نموذج يقوم على موتيفة تعتبر عالمية اذ هى شبيهة بالموتيفة التى قام عليها عمل شكسبير فى روميو وجولييت وبرناردين دى سانت بيير فى بول وفرجينى » .

ويستطرد قائلا : « الا أن نقطة الضعف الأســـاسية فى نظرة خورشـــيد هى خلطه الواضح بين الحكاية أو الرومانس الموجودة فى الحكايات الموجودة قبل الاسلام أو الاسلامية والتى تتمثل فى الف ليلة وبين ملامح القصة والرواية كما نعرفها اليوم ، ولا ينكر أحد أن العرب كغيرهم من الشـــعوب عرفوا القصص والحكي ولكن أحدا لا يمكن أن يقول أن قصصهم تشابه القصـــة كما نعرفها اليوم . ومن المؤسف أن خورشيد لم يحاول أولا أن

يوضح لنفسه تصوره للرواية اذ أن كتابه يبذل جهدا ضخما فى اثبات مسلمة واضحة لا شك فيها » .

وهذا الذى يقرره الأستاذ متى موسى لو كان واضحا كل هذا الوضوح ما احتاج منه الى مناقشة يستهل بها بحثه الذى نشير اليه وتستغرقه فترة طويلة من البحث ويجد من الضرورى أن ينتضه بأدلته وشواهده قبل أن يستمر فى دراسته حول حركة الترجمة الروائية واثرها على الأدب المعاصر .. فالواقع ان القضية لم تكن قضية اثبات وجود الشكل الأدبى بقدر ما كانت قضية اثبات وجود الفن الروائى نفسه وهذه القضية كانت تحتاج الى اثبات ، والى اثبات مصر ومتحمس ، فما كنا ندرس فى أدبنا العربى فى مناهج المراحل الأولى أو حتى فى مناهج الدراسة الأدبية المتخصصة سوى الشعر واغراضه وسوى النثر بصفته اما خطابة واما رسائل ، أما القصص فقد اغفلها أصحاب النقد من المناهج لما سبق عندهم من الآراء مثبتة بأقوال أوليرى وجب وريبنان ومرجوليوث وغيرهم..وساعتها كان لابد من اثارة القضية برمتها ، وساعتها دارت المناقشات العنيفة وتصدى الكثيرون لها كما يتصدى الآن الأستاذ متى موسى وتقدمت مترددا لأهمس حقيقة صغيرة ولكنها زاهية ناصعة ، تلك هى ان الأدب العربى قد عرف صورة متكاملة من القصة قبل ذلك بكثير أى فى القرن الرابع الهجرى فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين على الأكثر حين عاش الناس فى وطننا

العربى على متعة التحلق حول راوى قصة عنترة ابن شداد التى أخرجها يوسف بن اسماعيل كاتب العزيز بالله الفاطمى، وعلى غيرها مما سبقتها أو تلتها من أمثال قصص الف ليلة وسير الظاهر وسيف وذات الهمة .. وهذه الأعمال لا تقل عند النظر المنصف، وفى ميزان النقد النزيه عن دون كيخوته أو غيرها ، وتتميز كلها بوجود الحبكة القصصية والدراسة التحليلية لنفوس الأبطال ، وتعقد الأحداث وتشابكها ، مع مساواتها لها فى وجود المضمون الانسانى العام ، والأهداف الاجتماعية والسياسية الظاهرة .. ولو اننى لم اشك كثيرا فى أن أساتذتنا الدارسين لن يتقبلوا هذا الراى ، فهم قد درسوا من العملين دون كيخوته فقط ، أما عنترة وغيرها فما كنت احس الا انهم القوا عليه الأحكام القاء دون أن تكون تحت أيديهم الدراسة الواعية التى يرضى عنها ضميرهم العلمى، والتى تستخرج لهم الأصول الفنية الحقيقية لهذه الأعمال التى تشمخ بأنوفها شموخا حقيقيا يضعها فى مصاف الأعمال الخالدة الكبيرة التى تمثل خيال أمة وتذوق شعب متفتح يعيش فى المعنويات ويعرف قدرها ويقدس من يمثلها من الأعمال والشخوص جميعا .. وقلت يوما فى حدة اننى لم اشهد فى دراستنا الأدبية الا دراسات حول الملاحم فارسيها وهنديها ويونانيها ، أما سيرنا العربية التى اصطلحوا على تسميتها بالسير الشعبية ، وأما غير السير من روائع الفن العربى القاص، فلم تحظ حتى الآن بالتفات حقيقى من جمهرة الدارسين العرب الذين آثروا أن يكون مجال تفوقهم كلاما يلوكونه حول الالياذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشاهنامة ، ولا عجب فقد اتبعوا قول اوليرى ومن بعده احمد امين ثم باقى الدارسين .

وناقشت المرحوم الدكتور محمد مندور صاحب كتاب النقد المنهجى عند العرب الذى كان يعرف جيدا ان النقد الأدبى العربى تأثر بأشياء كثيرة حالت دون ارساء قواعد متطورة تطابق نقدنا الحديث الذى يقوم على الدراسات النفسية والتحليلية والمذهبية ، والذى يعرف الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية والمقارنة وغيرها ، ومع هذا فقد كرس جزءا كبيرا من جهده وعمره لدراسة هذا النقد العربى واسهم بهذا — لا شك — فى تطور نقدنا المعاصر الى جوار ما وفد علينا من دراسات لتطور النقد ومذاهبه فى الغرب ، وذكرته بأن عدم وجود هذه الاضافات التى يريدها أصحاب التقعيد فى هذه الروايات الأولى عند العرب لا يمنعنا من دراستها ، كما أنه لا يعنى أن العرب لم يعرفوا القصة ، والا كان معنى عدم وجود المدارس النقدية بمفهومها المعاصر عند العرب مانعا من دراسة النقد العربى ودليلا على عدم معرفة العرب بالنقد مثلا ..

الأمر أننا نريد أن نثبت معرفة العرب لفن القصة لا بالقصة التى يصدق عليها ما ذكره الأستاذ متى وسبقه اليه الدكتور مندور عن اختلاط مفهوم القصة عند العرب وذلك لنحطم الخرافة التى تزعم القصور فى العقلية العربية ولنحقق شيئا من الانصاف فى النظرة العلمية الى الأدب العربى ، أما جعل القضية هى

هل اثرت هذه الروايات العربية كفن فى الفن القصصى العربى المعاصر أم لا ، فقضية معكوسة مغلوطة لأنها تشبه وضع العربة أمام الحصان ، فنحن بعد لم ندرس هذا الفن القصصى العربى دراسة نطمئن اليها وتكشف لنا عن أصولها وقواعدها من ناحية البناء ، وعن مضامينها الانسانية وقيمها الفنية من ناحية التعبير عن شعب متطور نام له كفاحه وله مثله وله قضاياه وقيمه . ولا يمكن بحال ان نسأل عن العلاقة بين قصصنا المعاصر والقصص العربى المتوارث الا بعد أن نعرف هذا التراث معرفة جيدة . أما الجزم بأنه لم يكن ليؤثر بحال على انتاجنا المعاصر فهو أولا رجم بالغيب وهو ثانيا فصل لجيل الكتاب المعاصرين عن أمتهم كلها وعن انتاج هذه الأمة الذى يمثل عقليتها وعقائدها وموقعها من الحياة ..

ولذلك دعونا الدارسين الى بحث هذا التراث العربى الروائى بقدر من الاحترام له ولأصحابه ولجمهور المتلقين الذين تقبلوه وعاشوا فى متعته عسى أى يجدوا فى كنوزه ما يحطم خرافات كثيرة اعتبرت حقائق علمية مسلمة من باب الكسل والاهمال حينا ، ومن باب النظرة المرتعشة الوقور حينا آخر .

وللمرحوم الدكتور فؤاد حسنين كتاب اسمه « قصصنا الشعبى » نشر عام ١٩٤٧ ، قال فيه فى ص ٢٠ :

«حتى عهد قريب كانت القصة فى اوروبا كما مهملا لم يعن بها اديب ، ولم يلتفت اليها مؤرخ . لذلك ظلت الآداب الأوروبية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرونا عديدة محرومة من القصة بعيدة عنها فى الوقت الذى كان فيه الشرق قد سما بها وأوجد فيها المجاميع الكثيرة كألف لبلة وليلة . فاذا كان الأمر كذلك فلا غرابة اذن اذا راينا الشعوب الشرقية خاصة السامية منها ـ أعنى شعوب الجزيرة العربية وبعض أجزاء أفريقيا ـ تستعين بالقصة فى أغراضها الأدبيــة كما اتخذتها كتبنا الدينية وسيلة من وسائل الاقناع والدعاية ».

ولعل هذا الراى يوافق الى حد كبير اللمحة الذكية التى كتبها الأستاذ أحمد عباس صالح حين قال أن الغرب عــرف الملحمة والدرامة ولكنه لم يعرف من الفنون القولية فن القصة بينما عرف العرب هذا الفن ولم يعرفوا الملحمــة والدرامة . ويزيد على هذا الدكتور فؤاد حسنين فيقرر أن القصة قد انتقلت فى العصور الوسطى عن طريق السلم والحرب مع الحضــارة الاسلامية الى الغرب فاستغلها القصاص والأدباء والمصــورون استغلالا عظيما .. وعدد الدكتور فؤاد حسنين مجاميع من هذه القصص الشرقية الاسلامية ترجمت ودونت وظهرت فى ايطاليــا والمانيا وروسيا والدانيمرك والنرويج ابتداء من عام ١٥٥٠ أى فى الفترة المواكبة لأول تباشير القصة الغربية كما قرر المرحوم الدكتور طه حسين مصححا ما قرره الدكتور محمد مندور .

فى كل هذا لم اكن ازعم ان العرب عرفوا الفرق بين الكونت والرومان والنوفيل وانما زعمت فقط أنهم عرفوا القصــة كفن قولى وكتبوها وانهم تذوقوها أيضـــا على نطاق واسع وكبير ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن ما عرفوه جدير بالدراسة والاحترام بصرف النظر عن مقررات ومصطلحات القرن التاسع عشر الذى تؤكد النظرة العلمية أنه ليس نهاية العالم .

وتصبح القضية أكثر وضوحا اذا لاحظنا أن ما كان يمكن أن نسميه قواعد القصة فى القرن التاسع عشر قد تغير تغيرا كاملا بل ولعله تحطم على أيدى الكثيرين من رواد القصة وكتابها فى نهايات القرن العشرين التى نشهدها هذه الأيام فلا يستطيع احد ان يقول أن منهج ديستوفيسكى فى الرواية هو نفسه منهج هوجو ، أو هو ذاته منهج كامى ، أو منهج كتاب الموجة الجديدة فى فرنسا وانجلترا مثلا .. ان الشكل يتغير بتغير الانسان المتلقى والانسان الكاتب ، وبتغير روح العصر ومتطلبات روح العصر ومتطلبات العصر .. والشكل الثابت أو الفورم الذى يصطلح عليه النقاد فى مرحلة أدبية سرعان ما يصبح معبرا الى شكل جديد يفرض نفسه على الفن الروائى والقصصى ، فالمسألة ليست مسألة أننى زعمت أن موازين القصة القصيرة النقدية فى مطلع القرن تساوى أو تنطبق على قصص الف ليلة وسيرة عنترة . وانما كل ما أردت اثباته هو أن هذا الفن من هذا الفن ، وأنهما صورتان لفن واحد . أحدهما ظهر فى بيئة اسلامية فاتخذ منهجا بذاته ، والآخر معاصر ظهر فى بيئة صناعية متطورة فى أوروبا فاتخذ منهجا مغايرا .. وأزعم أن فن اليوم القصصى يتخذ لنفسه منهجا مغايرا ومخالفا تمام سواء على يد كتاب الغرب أو على يد الكتاب العرب المعاصرين

لما يتميز به العصر من تمزق وضياع وقضايا خلقها التقدم التكنولوجى المخيف .

اننا لا ننكر اننا عرفنا من الغرب الوانا من الانتاج القصصى ساعدتنا على العبور الحضارى ، ولكننا ننكر أن كتابنا حين كتبوا القصة انفصلوا عن تراثهم الذى تعلموه وعاشوا عليه من طفولتهم ثم اطلعوا عليه فى رجولتهم وكهولتهم حين انتجوا القصة . وما محاولات فريد ابو حديد فى عنترة والوعاء المرمرى وما محاولات طه حسين نفسه فى احلام شهرزاد ومحاولات الحكيم فى شهرزاد والسلطان الحائر وأهل الكهف وما محاولات غيرهم فى كل حقبة من احقاب نهضتنا المعاصرة الا الدليل على الانتماء الوجدانى والفنى للقصص العربى عند كتاب اليوم . اما الشكل فقد اخذه توفيق الحكيم مثلا ثم عاد فمزقه فى «المسرواية» وفى غيرها من المحاولات .

ولست فى الحقيقة أدرى سر التحامل على مسلمة علمية الا اذا كانت المسألة اننا مازلنا نعيش فى عقدة النقص التى ولدها انفتاحنا الحضارى المفاجىء مع الغرب بعد عصور طويلة من التخلف والانعزال . .ان خلاصنا من هذه العقدة لا يأتى الا بالربط الجاد الدارس بين ما اخذنا من الغرب وبين ما كان لدينا اصيلا وعميقا ، وليست هذه دعوة متحمسة ولكنها وبالذات فى مجال الانتاج الأدبى دعوة ضرورية وهامة ، فمن لا امس له لا غد له ، واذا كان ميخائيل نعيمة قد صرخ فى مطلع الحركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثقافية المعاصرة «فلنترجم» . .فاننى أصرخ الآن «فلنقرأ تراثنا» . . فلنستوعبه ، فلندرسه ، فلنستلهمه ، ثم فلنضعه فى مكانه الصحيح فى ركب الحضارة . .

وشكرا للأستاذ متى موسى و « للفصلية الاسلامية » الصادرة عن المركز الثقافى الاسلامى بلندن أن اتاحا لى هذه الفرصة لفتح النقاش فى موضوع هام ومتجدد ، وخاصة بعد أن استجاب الكثيرون من دارسى الأدب العربى لدعوة كتاب (فى الرواية العربية) خلال هذه السنوات وظهرت دراساتهم المتخصصة عن السير الشعبية وغيرها من فنون الأدب الروائى العربى . وظهرت دراسات مقارنة تحاول الربط بين بداية الفن القصصى الغربى وبين صور القصة العربية المعروفة فى نهايات القرن السادس عشر والسابع عشر والتى ترجمت الى الغرب عن طريق الاحتكاك الذى اوجدته الحروب الصليبية أو عن طريق الاندلس . فلعل اعادة فتح هذا الموضوع ترسى حقائق جديدة نحتاجها فى فهم علاقة حاضرنا بأمسنا وتمهد لنا طريق ابداع عربى مشارك فى الغد للانتاج الفنى المعبر عن قيم العصر الحضارية ومشاكل الانسان فى دنيا العصر .

فاروق خورشيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

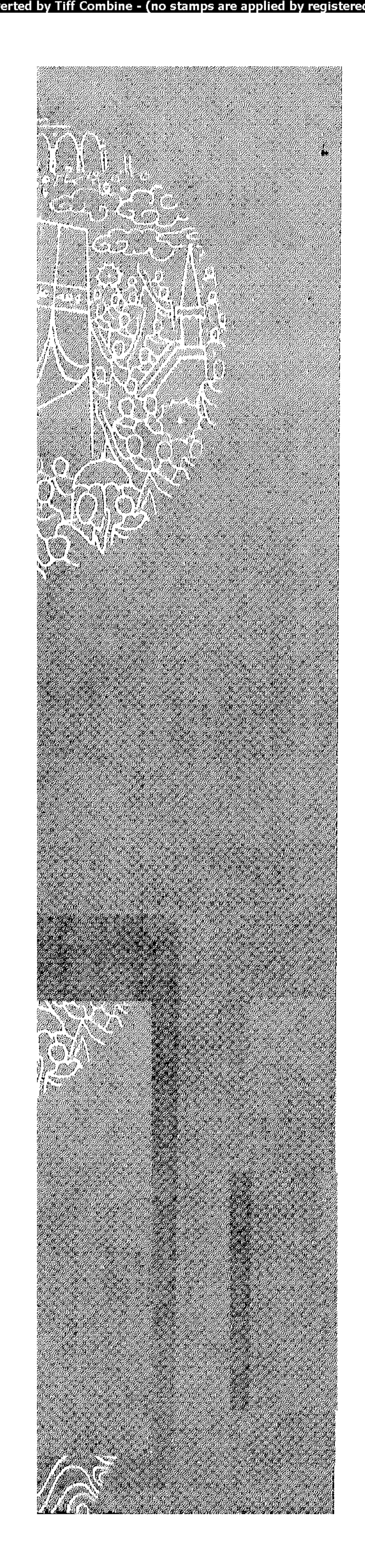
فهرست

مطابع الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



هـذا الكـتاب

ظللنا في جامعاتنا ومدارسنا ندرس الأدب النثري العربي على أنه الخطابة والرسائل وسجع الكهان ، مما جعل صورة الأدب العربي النثري صورة شوهاء ، لا تحفل بالإبداع الفني ، والقدرة على التعبير عن مشاكل الإنسان المصري خاصة والإنسان العربي عامة .

وقد ساعدت المحاولات المستمرة من المستشرقين على تثبيت هذه الصورة في أذهان دارسي الأدب العربي وفي أذهاننا نحن أنفسنا .

ثم كانت هذه المحاولة لإعادة الإعتبار إلى أدبنا العربي ولإثبات قدرته الإبداعية فيما انتجه من اعمال نثرية روائية تضع الأديب العربي في مصاف غيره من أدباء العالم المشاركين في التعبير عن آلام الإنسانية وطموحها .

والكتاب لا يزعم لنفسه أنه دراسة جامعية منهجية ، وإنما هو كتاب رأي ومناقشة ، ربما دفع إليه الإيمان بضرورة جلاء صورة تاريخنا الأدبي القديم ، وربما دفع إليه تعلق بأصول لا بد من التعلق بها إن كان من خطتنا أن نبني للغد الأدبي .. على أية حال فلنعتبر الكتاب فكرة مثبتة بالشاهد والمنطق ، أنه لا يحاول أن يقول عن نفسه أكثر من هذا ، ويكفيه أنه اثار ويثير من الجدل حول هذه القضية ما لم ينقطع حتى الآن ..

واليوم أصبح الفن الروائي العربي القديم حقاً عرفه الأديب العربي وأبدع فيه . ولم تعد صورة الكاتب العربي تشوهها المعطيات القديمة البالية .

ويكفي الكتاب أنه نبه إلى هذا وأثبت قضية في مثل هذه الخطورة والأهمية . ويكفيه أنه دعا الدارسين إلى الالتفات إلى ثروة هائلة كانت مرفوضة من قبل في دنيا الدراسات العربية .